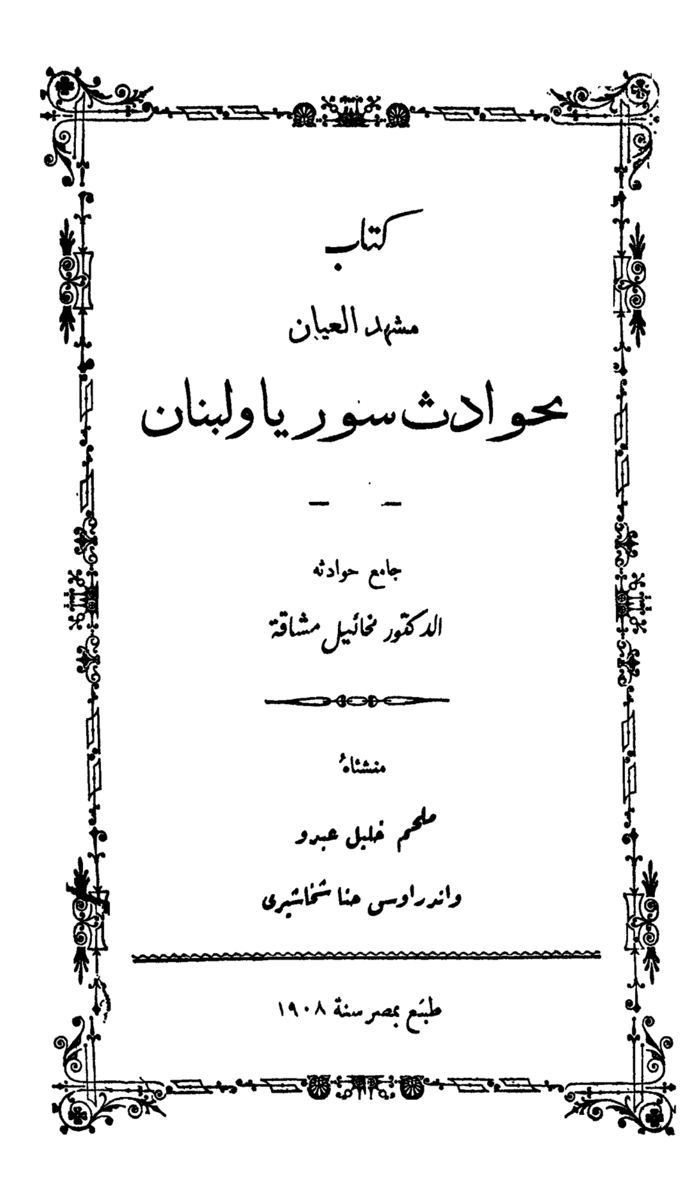


كتاب

مشهد العيان

بحوادث سوريا ولبنان

جامع حوادثه

الدكتور مخائيل مشاقة

منشئاه

ملحم خليل عبده

واندراوس حنا شخاشيري

طبع بمصر سنة ١٩٠٨

مقدمة

لمنشئ الكتاب

لما كانت العادة المتعارفة بين الفئة المنشئة واصحاب التآليف ان يصدر المؤلف كتابه بكلمة اجمالية كمقدمة يظهر فيها الغاية التي من اجلها تحمل عناء الانشاء ومشقة التحبير ويبين للفئة المطالعة ما يتوخاه بكتابه من الفائدة لها والمنفعة العامة المحضة وان لا مطمع له غير الافادة وخدمة بني نوعه على الاطلاق واظهار الحقيقة بثوبها الناصع التي لا تمسها شائبة وان طال على ابرازها الامد

رأينا من الواجب الادبي ان نراعي العادة في هذا المقام ونحترم جانبها وعذرنا في انزالنا نفسنا منزلة لمؤلف هو كتابتنا الكتاب من بدايته الى نهايته لانّ عبارة المولف غير صحيحة وجملة الكتاب غير وافية للنشر وقد اضفنا الى حوادثه فذلكة تاريخ لبنان التى لا شك تلاقي من المطلع عليها من سكان تلك البقعة المحبوبة اشتياقاً وهدى

وهناك داع آخر وهو في اعتقادنا أهم واجدر يدعونا الى أرسال كلمة مقدمة لهذا الكتاب الجليل الذي توفقنا به صدفة وقادته الينا التقادير على غير انتظار نبسط للقارىء ماهية الكتاب ونحفظ لجامع حوادثه الفضل المتقدم فالاقرار بالفضل لمستحقيه من اجل غاياتنا وتقدير رجاله قدرهم فرض مقدس علينا في كل حين واقرارنا للمؤلف بوضع حوادث الكتاب فقط لا يحط من شأنه ولا ينقص من فضله كما يتضح لكل ذي بصيرة

اما الغاية التي دعتنا الى ابراز هذا التأليف بعد عثورنا عليه ميلنا الفطري الى خدمة الانسانية وبث الحقيقة متى ظهرت لنا فضلاً عن وثوقنا بعد مطالعته

أن في نشره فائدتين لا يحسن بقاؤهما طي الكتمان الاولى صدق حوادثه الهائلة التي يجهلها السواد الاعظم والتي من الواجب اذاعتها ونشرها على رؤوس الاشهاد لثبوت وقائعها واعلامها . والفائدة الثانية نكون قد انفذنا غاية واضع تلك الحوادث واعتبرنا جرأته الادبية التي نشعر بحاجة الى تلبسها والاقتداء بها فاظهرنا فضله واحيينا ذكره

وحسبنا ما نقدم برهاناً على قولنا وشاهداً وافياً على تبرئة ساحتنا من تذييل الكتاب باسمنا اذ لو كانت عبارة المؤلف صالحة للنشر رأساً لا كتفينا من خدمة الحقيقة بنشره له ولنا . ولك والهدى من الله انه هو الهادي وهو صاحب الحق والانصاف



تاريخ عائلة مشاقة

وترجمة حياة بعض افرادها

اذا كان تكريم رجال الفضل واجباً وهم احياء فانهُ مقدس وهم اموات

فالدكتور مخائيل مشاقة صاحب هذه الحوادث وجامعها قد صرف ايامه بين قومهِ كرجل عظيم من رجال هذا العصر دأبهُ بث الالفة ونشر الاصلاح وخدمة الانسانية

ولما كان العدد القليل من الجالية السورية يعرفون سيرة حياتهِ والعدد الاكبر لا خبرة ولا معرفة لهم بها اغتنمنا هذه الفرصة لندون في مقدمة الكتاب هذا الفصل احتراماً للفقيد الذي عاش عظيماً ومات عظيماً واجلالاً لمقامهِ السامي . والذي نورده في هذا الباب هو غاية ما وصلت اليه معرفتنا والله وحده صاحب العصمة والحكمة

كان يوسف بركي يوناني المحتد يقطن مدينة كرفو من اعمال جزيرة كرفو بالارخبيل اليوناني وكانت كرفو تابعة لجمهورية البندقية . ولا نعرف عن هذا الرجل غير نزوحه من تلك الجزيرة وحلوله في مدينة طرابلس الشام حيث اتخذ التجارة صناعة له في ارض الفيحاء وكانت تجارته محصورة في المشاقة لذلك لقب بيوسف مشاقة وهو اول من تلقب بهذا اللقب . وكان يوسف مشاقة المذكور ذا وجاهة ونشاط وتجارته كانت تعد عظيمة في ذلك العصر وكان يملك سفينة شراعية ينقل عليها صادرات وادي النيل واسا كل سوريا على الاجمال وارداتها وكان يفضل الاقامة في مدينة طرابلس لما اختبره باسفاره المتتابعة

فحلت قدمه في تلك المدينة حوالي اوائل القرن الثامن عشر للميلاد وظلت معاملته قائمة مع معامل المراكب في البندقية عاصمة ولاية مسقط رأسه

وقد علق بفتاة من عائلة القلفاط من سكان قرية انفه وهي الآن اسكلة انفه وتبعد عن طرابلس الشام ساعتين ونصف ركوباً وهي قرية ساحلية . فقدم اليها باحدى سفراته وقد وقع نظره على نصيبه الاول فتزوج الفتاة ورزق منها ولداً دعاه جرجس ثم ادركه العجز وتوفي وتوفيت عقيلته قبله بمدة قصيرة

فعزم جرجس مشاقة بعد وفاة والديه على الانتقال من مدينة طرابلس فباع ما خلفه له والده من العقار وقام ومعهُ مال وافر الى صيدا مركز الولاية وتعاطى بها تجارة

التبغ وكان يورد منه للقطر المصري كميات وافرة وبذلك تمكنت صلته بمشايخ آل الصغير حكام بلاد بشاره والشقيف الشيعيين حيث كان يشتري منهم حاصلات اراضيهم الواسعة من التبغ

وقد اتخذ له شريكة من عائلة منسى من انفه مسقط رأس والدته بعد ان نزحت الى صيدا وعولت على البقاء فيها . وكانت هذه العائلة على مذهب الروم الكاثوليك فاعتنق جرجس هذا المذهب واظهر لرجاله بعد مدة ميله الشديد الى تعظيمه بتبرعاته العديدة . ومن جملة ما وهبه الى دير الرهبان قبة ومسلات رخام احضرها من اوربا وغير ذلك فضلاً عن انه اكمل بناء ذلك الدير على نفقته

ولم يكتفِ بما تقدم بل اوقف للدير المذكور قرية الوردية بجبل الديمان واربعة بيوت للسكن بمدينة صيدا وكانت مساعداته للاعمال الخيرية عموماً وللدير خصوصاً متتابعة متلاحقة

وقد نقش على جانب الهيكل اسمه على هذه الصورة « لقد احب جمال مجدك جرجس مشاقه عبدك »

فكافأه اولياء الدير بترتيب قداس يتلى عن نفسه يومياً الى ما شاء الله وباحتفال بعيد مارجرجس سنوياً . وكان ذلك سنة ١٧٥٧ هذه هي العلاقة الاولية المتصلة بين عائلة مشاقة ودير الرهبان الى يومنا هذا

ثم اضطرته المصلحة ان يقوم من صيدا الى صور فانتقل اليها لتسهيل سبل تجارته مع مشايخ المتاولة القاطنين في جوارها والذين لهم من اغلالها النصيب الوافر مثل التبغ والحبوب والاخشاب ولم يكن وقتئذٍ في تلك البلدة مسيحياً غير جرجس مشاقه وحاشيته وبانتقاله اليها تكاثر عدد النصارى حتى ادت زيادتهم الى تشييد كنيسة . وكان جرجس المشار اليه هو البادئ بتاسيس جدرانها فبنى الكنيسة على اسم القديس توما الرسول وبعد ان اتم بناء الكنيسة رأى من الحكمة ان يجعل له مأثرة خارجة عن حدود مذهبه واذ لم يكن في صور جامع للمتاولة يؤدون فروضهم الدينية فيه عزم على ان يبني لهذه الفئة جامعاً على نفقته لان اختلاف عقيدة المتاولة الشيعيين لا تجيز لهم ان يؤدوا فروضهم في جامع السنيين لذلك باشر بناء مسجد للشيعة على نفقته . فدرى بعمله والي صيدا فارسل واستقدمه ولما امتثل امامه ساله الوالي عن عزمه بشان بنيان المسجد فحقق له الخبر فصرفه وانعم عليه بفرو من جلد النمر وطلب منه ان يشركه معه في العمل الخيري فاجابه الى ما

يريد وسمح له ببناء للأذنة وهكذا تمّ بناء المسجد على نفقته

ثم اعاد بناء بيته في صور و بنى بيوتاً ومحلات عديدة في تلك المدينة وقد توفاه الله في صور وله من الاولاد ابراهيم وبشاره . وهذا الاخير هو جدّ عائلة مشاقه القاطنة الآن بالاسكندرية (مصر) وهي مؤلفة من بشاره والياس وابناء يوسف بن بشاره واولادهم

وقد مرّ بنا ان ابراهيم مشاقة هو جد عائلة مشاقة وهو جد مؤلف هذه الحوادث كان على جانب عظيم من الذكاء والوجاهة عند احمد باشا الجزار كما سنذكره في حينه فاقطعه بلاد بشاره والشقيف فقام بهمته خير قيام . وكان عاقلاً وله اعمال مبرورة قد حفظها له التاريخ وسوف ترد في الكلام عن الجزار

انما قبل وفاته بايام معدودة ارتاب به الجزار فكاد يبطش بشيخوخته الاّ انه قضى نحبه مغموماً على نكبة اصدقائه آل السكروج الذين نكل بهم الجزار وقتلهم وخلف من الاولاد بضعة منهم جرجس مشاقة الثاني وهو بكره وقد توفي عن اثنين واربعين عاماً

وبعد وفاة ابراهيم مشاقة ارسل الجزار فاستحضر ابنه جرجس مشاقة الثاني ولم يمهله ان يدفن والده ولما وصل الى عكاء امر بالحجز عليه اياماً طلب منه في خلالها مطاليب جمة ومستحيلة ومازال الجزار يعاوده الطلب يوماً بعد يوم حتى انفذ ثروته ولم يترك له من الاملاك والمتاع شيئاً ثم اطلق سراحة

وجرجس هذا كان ابوه قد زوجه قبل وفاته بفتاة من عائلة عنحوري وهي كريمة حنا عنحوري جد حنا عنحوري احد اعيان تجار دمشق الآن ثم وشي به بعض النصارى للجزار فعاود الكرة عليه فاصبح لا يملك شروى نقير

وبعد ان اطلق سراحه اشار عليه احدهم ان يذهب الى دير الرهبان لعل رجاله الابرار يأخذون بيده و يمدونه بشيء من المال فعمل بموجب النصيحة وسار الى الدير و بعد ان اطلعهم على حاله وكيف قبض الجزار علي ما يملكه اظهروا له كدرهم ودفعوا له خمسمائة غرش . فسألهم اذا كان والده قد ابقى له شيئاً عندهم فاجابوه بالسلب فعاد الى بيته فترك لعائلته المال الذى احضره معه من الدير الاّ خمسين غرشاً ابقاها معه ليستعين بها على المسير الى وادي النيل فقدم مدينة دمياط ميناء القطر المصري في ذلك العصر ونزل ضيفاً كريماً على اولاد عمه شقائق عقيلته وهم ميخائيل وروفائيل

وبطرس عنحوري من كرام تجار دمياط وعمدها

ولما قابلهم اوقفهم على حاله مع الجزار وطلب منهم المساعدة فلم يروا من الحكمة ان يمدوه بمال تظهر جسامته لجواسيس الجزار فيلحق بهِ الاذى ثانيــة وهناك الطامة الكبرى . وبناء على ذلك لم يعضدوا صهرهم وانما نقدوه مبلغاً يقوم باوده واشاروا عليه بالذهاب الى جبل لبنان . وفي اثناء اقامته في مصر انفذ الى عائلته خمسمائة قرش . ولما انقضى فصل الشــتاء رجع الى سوريا عن طريق بيروت وقصد دير القمر فاقام فيها وغير اسمه مخافة ان يدري به الجزار فتسمى جرجورا فقط ولم يعلم عائلته بوجوده في دير القمر من خوفه الشديد من الجزار . ومن حظه لم يكن في تلك المحلة من يعرفه غــير ابراهيم داود منسى نسيبه وجرجس بطرس وهذا كان يشتغل بالصياغة فعقد جرجس النية على اتقان هذا الفن عن صديقه المار ذكره وقد حصــل على اربه من ذلك الفن وبرع فيه ولا يزال بعض مصنوعاته باقية الى يومنا هذا تشهد لهُ بالاتقان وطول الباع

وفي اثناء مهاجرته من صور كانت عائلته تشتغل بالخبازة وتقوم باودها من تلك المهنة . وفضلاً عما اصاب هذه العائلة من جور الجزار حتى ادركت الحضيض بعد ان كانت ترتع بسعة العيش والرفاه حمل عليها الدهر حملة عنيفة فقتل بعض افرادها بداء الجدري منهم نقولا وقسطنطين وذهب هذا الداء بيصر مريم شقيقتهما التي قضت نحبها في دمشق بالوباء سنة ١٨٤٨

ولما اثرى رجل هذه العائلة الذي نحن في سياق حياته بعث فاستحضر عائلته الى دير القمر سنة ١٧٨٦ وفي هذه السنة رزق غلاماً فاصبح اولاده ابراهيم واندراوس

اما شقيقه انطون مشاقة فلم يشأ الحضور الى دير القمر والقيام معه فيها وفضــل الذهاب الى مصر فشخص الى دمياط ونزل على سكانها الافاضل فاكرم وفادته وثقفهُ على نفقته وكان يصحبه معه في سفراته الى اوربا غير ان المنية عاجلت هذا المحسن فاضطر انطون ان يترك محله ويشتغل في محــل آخر واخيرًا دخــل في شركة بطرس عنحوري وتوفي سنة ١٨٢١ عن ثلاثة واربعين عاماً واخلف ثلاثة اولاد

ولنعد الآن الى جرجس الذي فرضنا على انفسنا ترجمة حياته فهذا ظل في دير القمر مع عائلته . واتفق ان الامير بشيراً الكبير زار عكا ومر بصور فتفقد عائلة مشاقة وبحث عنها فرأى حاكم المدينة يقطن احدى دورهم فقصوا عليه ما اصاب هذه العائلة فاسف لذلك اسفاً شديداً .

وفي حين وصوله الى دير القمر استحضر جرجس المشار اليهِ وجعله كاتبهُ الخاص وأمر له بكسوة واجزل له العطاء وبقي جرجس مشاقة بخدمة الامير حتى توفاه الله سنة ١٨٣٢ فاقام الامير بمركزه ولده اندراوس فقام بعبء الخدمة باخلاص ونشاط

ميخائيل مشاقه

صاحب حوادث الكتاب



هو ميخائيل بن جرجس بن ابراهيم بن جرجس بن يوسف مشاقه وهو اوسع افراد مشاقه شهرة واعلاهم منزلة ولد في ٢٠ اذار (مارس) سنة ١٧٩٩ في قرية رشميا من اعمال جبل لبنان

ولما بلغ السن الذي يؤهله لتلقي علوم زمانه درس على والده القراءة والكتابة واتقن بعض المهن الا ان نفسهُ كانت اكبر من ان تقف عند هذا الحد . وقد ظهر فيه ميل فطري الى درس الفلك والعلوم الطبيعية ولم يكن له في ذلك المكان واسطة تنيله اربهُ ولا كان في تلك المدينة (دير القمر) من يعرف فن الحساب حتى الضرب والقسمة وكان ميالاً كما تقدم الى العلوم العالية وكان يسمع ان اليهود يدركون مواقع الكسوف والخسوف وبقية العلوم على انواعها انما يحفظونه بصدورهم ولا يطلعون عليه احداً فصار يتردد على رجل منهم اشتهر بالعلوم الطبيعية على امل ان يحصل منه على بغيته وقد

تأكد خيبة امانيه بعد اختباره مقدرة الرجل · والذي وقف عليه منه هو ان اليهود يعرفون هذه المعرفة السطحية عن الكسوف والخسوف من الرزنامة التي تردهم من اوربا وفيها مواقع حركات القمر والشمس وبعض الموائد الفلكية فاقلع عن زيارة اليهودي وعن الافتكار بحصوله على الفوائد الجمة من اليهود

وحصل له مثل ذلك عندما بعثه والده بمهمة الى القس كيرلس اذ شاهد هذا يطالع كتاباً مخطوطاً وفيه اسماء الشمس والقمر متوالية فظن انه حظي بضالته ولما سال ذلك الراهب عن ماهية الكتاب فاجيب انهُ كتاب الكيكلس تأليف احد الآباء يستعين به على مواقع الاعياد المارة الى بضع سنين وعن مواقع القمر والشمس وغير ذلك من المعارف التي لا تدركها عقول العامة · اراد هذا الراهب ان يوهم ميخائيل ان منزلتهُ من علم الفلك والفلسفة مثل منزلة ارسطو وسقراط اونيوتن · غير ان مشاقة تساهل معه حتى حصل على نسخة من الكتاب ولما طالعه رأى ان معارفه لم تزل كما هي فرجع وهو في تمنٍ وتردد

وفي سنة ١٨١٤ جاء دير القمر خاله بطرس عنحوري ومعه كتب خطية فطالع منها كتاباً في علم الهيئة والكواكب لديلاند الفرنساوي وآخر في تقويم الكواكب له ايضاً وآخر في حواشي الارشمندريتي افتيموس غازي لبنيامين فرنكلين الاميركي في علم الطبيعة وآخر في العلوم الطبيعية للاستاذ ريتا البلانلي واخر في المآخذ الحديثة في تقويم الكسوفات لبطرس عنحورى · وبعد ان طالع تلك القوم درس على خاله مبادىء علم الفلك حتى تمكن من تعيين خسوف القمر

وفي سنة ١٨١٧ قدم الى القطر المصري ونزل على انسبائه عنحورى ودرس عليهم علوماً حديثة · وفي سنة ١٨١٨ قادته افكاره الى البحث في العقائد الدينية شان المتوغل في العلوم الطبيعية وجاهر بارتيابه في صحتها وكان لا يأنف من الجدل وهو الذي زاده ثباتاً في صحة معتقده وعاد من سفرته الى دير القمر سنة ١٨٢ وشرع في تجارة الاقمشة الحريرية ولكنه لم يزاولها الا مدة قصيرة حيث قام لقيام الامير بشير الكبير الى حوران فراراً من مطاليب عبد الله باشا والي عكا فاقام مشاقة في دمشق متخفياً مدة وقد اشيع ان مع اخوته خزينة الجبل التي اودعها معهم اميره مرت الايام ولم يحدث له مكروهٌ وقد آب مع الامير الى دير القمر ورجع الى تجارته التي تحسنت من صلته مع مشايخ الدروز وخصوصاً الشيخ بشير جنبلاط التي كان سببها الامير بشير لما رحل الى مصر · وفي عودة

الامير من مصر قربه وعهد اليه جمع الخراج من اهالي لبنان ودفع الغرامة الى عبد الله باشا وفي هذه الاثناء حصل سوء تفاهم بين الامير بشير والشيخ بشير جنبلاط كان العامل على اثارته وتمزيزه رؤساء الدين الذين دابهم القاء الفتن والمداخلة بما لا يعنيهم في كل زمان وحبذا لو تلتزم هذه الفئة المباركة نصوص الكتاب المقدس وتترك الشؤون المدنية على عاتق اربابها فتحفظ بذلك مقامها وتجله . وكان غيظ مخائيل مشاقة من القاء بذور الفتن بين الامير والشيخ عظيماً حتى انه جاهر بالملامة على الطغمة الاكليريكية في نشوب المخاصمة ولم يرهب لومة لائم . وقدم في تلك الاثناء الى دير القمر احد المبشرين الاميركان فصار مخائيل يتردد عليه احيانًا الى ان ظهر ارتياحه الى اعتناق المذهب الانجيلي لان ما ناله من سوء المعاملة من رهبان دير المخلص لقاء تبرعات جده الغزيرة الى ذلك الدير جعله يحنق عليهم و يعرض باخلاصهم الذي لا صحة له ولا اساس

ولما حطت اوزار الفتنة المار ذكرها بين الامير بشير والشيخ جنبلاط وجه اليه الامير وظيفة شبه مدير لحكومة حاصبيا وراشيا فاقام بها مع امراء تلك المقاطعة فوق ماينتظر منه واحبهُ الامراء لما ابداهُ من حسن السلوك معهم الى آخر ايامه وفي سنة ١٨٢٨ اصيب بحمى وافيدة حملتهُ على العودة الى دير القمر طلبًا للابلال والراحة من عناء الاعمال . وقد خطر بباله ان يدرس فن الطب ولم يلبث طويلاً حتى باشر اظهار خاطره الى حيز العمل و بدأ يطالع و يدرس على نفسه لعدم وجود معهد لتدريس الطب بسوريا ولا ريب انهُ لاقى صعوبة وعقبات جمة وكان يلاصق كل طبيب يقدم الى تلك الديار بإيعاز او مهمة لشدة ولوعه بهذا الفن فنال بذلك خبرة واسعة يصعب على الطالب القانوني نيلها فكان الاهالي يدعونهُ لتطبيب مرضاهم وكانت الثقة به قوية قبل ان يحصل على الشهادة القانونية . وفي سنة ١٨٣٣ انتقل الى دمشق واتخذ شريكة لحياته فاقام بها الى آخر ايامه . وجاء دمشق بايعاز من الدولة المصرية الدكتور كلوت بك ناظرًا على المجلس الصحي في دمشق فكثرت اجتماعاته بهِ الى ان اصبح صديقهُ الحميم فكان يصطحبه بمهامه الطبية وقد افاده افادات عظيمة فاهداهُ كتبًا غزيرة الفائدة وادوات للجراحة مستحدثة . وقبل حصوله على الشهادة اقامه شريف باشا رئيسًا على اطباء دمشق بمدة استيلاء المصريين على سوريا . وفي سنة ١٨٤٥ قدم الى الديار المصرية واجتمع بالدكتور كلوت بك صديقه القديم الذي ساعدهُ اولاً وآخرًا على نيل الشهادة

ونالها بعد ان قدم فحصاً للجنة اطباء قدموا من جامعة باريز الى القطر المصري لتلك الغاية . وقد زار الآثار المصرية وشاهد مواقع حربية ستقف على اخبارها في بابها . ودرس علم المنطق وكان كثير التمني لكل العلوم وكان صديقاً حميماً لبحري بك وشريف باشا وغيرهما من وجهاء القوم . وبعد عودته من مصر طالع كتب الفلاسفة وقرأ نوتر ونيوتن فارتاب بهما وقرأ تأليف الاستاذ كيدن الانكليزي فاعجب به واتخذه دستوراً لرجوعه الى احترام الاديان . وقد ثبت لديه من هذا الكتاب صحة الديانة المسيحية فاعتنق مذهب البروتستنت تاركاً اهلهُ مفضلاً عليهم راحة ضميره . فعل ذلك سنة ١٨٤٨ وقد بذل غبطة البطريرك مكسيموس جهده في ارجاعه الى مذهب اجداده ولم يفلح فلاقى اضطهاداً عنيفاً من غبطته في وعظاته واجتماعاته وكان يكيل له الكيل وازيد ان شفاهاً او كتابة الى انفصال الموت بينه وبين خصمه فارتاح من عنف الاضطهاد اذ ذاك ولكنه بقي على جلدهِ ونشاطه في الجدل والمحاورة الى ان قضي عليه

وقد عينته حكومة الولايات المتحدة قنصلاً في دمشق ثم استعفى

وشاهد مذبحة الشام وكاد يذهب بتيارها وشاهد اكثر حوادث هذا الكتاب وعاصر اكثر ابطالهِ والرجال الذين لهم ذكر بوقائعه وكان وجيهاً ومحبوباً لدى الامير بشير وامراء حاصبيا وراشيا من آل شهاب وصادق نخبة القوم وعرف بينهم بالنزاهة والصدق

مؤلفاته

(١) رسالة الدليل الى طاعة الانجيل سنة ١٨٤٨

(٢) اجوبة الانجيليين ضد اباطيل المقلدين سنة ١٨٥٢

(٣) جواب صديق من طائفة الروم في حمص واقناعه سنة ١٨٥٢

(٤) كشف النقاب عن وجه المسيح الكذاب سنة ١٨٦٠

(٥) البراهين الانجيلية ضد الاباطيل البابوية رداً على اليسوعيين سنة ١٨٦٣

(٦) تبرئة المتهوم من قذف البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٥٤

(٧) رد على منشور البابا بيوس التاسع الذي يدعو فيهِ البروتستانت الى الاشتراك في المجمع الفاتيكاني وترك الضلال

(٨) رسالة البرهان على ضعف الانسان رداً على تعاليم الفيلسوف فولتر

(٩) الرسالة الشهابية في قواعد الحان الموسيقى العربية

وكل هذه الرسائل طبعت · ومن مؤلفاته التي لم تطبع

(١) رسالة في ترجمة حياة البطريرك مكسيموس يبين فيها كيف اتصل الى درجة الحبرية العظمى

(٢) رسالة رد على ابن الحموية واعتراضاته على مذهب الانجيليين

(٣) التحفة المشاقية مطول في علم الحساب

(٤) كتاب المعين على حساب الايام والاشهر والسنين

(٥) وهذا الكتاب الذي جمع حوادثه وسماه الجواب على اقتراح الاحباب

صفاته واخلاقه

لا حاجة بنا الى الاسهاب لبيان صفاته واخلاقه بعد ان اسهبنا بتعداد اعماله وما جد له من الافكار والاخطار غير انا نوجز في تدوين ما يلي :

فكان المغفور له جامع حوادث هذا التاريخ رجلاً مقداماً متوقد الذهن عالي الهمة ذا عزيمة شماء لا يقعدهُ في سبيل ما يريده مقعد ولا يصده في سبيل مبتغاه مانع وقد حصل على العلوم بجده واجتهاده كما تقدم · وكان محبّاً للرقي كثير الاعتماد على نفسه ذا استقلال اداري وقد زادته الاضطهادات التي لاقاها من رجال الدين وثوقاً بقدرته وكان شديد التعصب لدينه قوي الحجة شديد اللهجة الى ما وراء الاعتدال

انما كان ضعيف الانشاء ركيك العبارة شديد الجنوح الى اللغة العامية بكتاباته وكان قوى الذاكرة حسن السلوك لين المعاشرة

اخلف له ثلاثة اولاد وهم ناصف واسكندر وسليم · وقد انهى كتابه هذا عن حوادث سوريا ولبنان سنة ١٨٧٣

الفصل الاول

ملاحظة وتمهيد

لما كان المرحوم الدكتور مشاقة مؤلف حوادث هذا الكتاب ضمنه تاريخ عائلة مشاقة الكريمة من الجد الاول اي من اواخر القرن التامن عشر الى سنة ١٨٧٣ ولما كانت حوادث الكتاب تشغل قرناً من بدايتها الى نهايتها ولم يصدر كتابه بفذلكة تاريخية تربط حوادثه بحوادث الاعصر الغابرة وجدنا ان الحاجة ماسة الى لمحة عن تاريخ جبل لبنان مع الاسهاب في جغرافية لبنان القديم والحديث وفي اصل القبائل والامم التي توطنته قديماً وحديثاً وما طرأ عليها من التغييرات السياسية والاجتماعية من ادبية ودينية ومدنية منذ ابتداء التاريخ الى عصر الجد الاول لعائلة مشاقة فنقول

الفصل الثاني

في مساحة لبنان القديمة

لبنان سلسلتا جبال الاولى داخلية تدعى لبنان الشرقي والثانية ساحلية تدعى لبنان الغربي وتبتدىء من حدود آسيا الصغرى وتنتهي بحدود حيفا وجبال اليهودية وبينهما التلول والمفاوز الفسيحة التي قيل عنها انها تدر عسلاً ولبناً

واعظم النقط التي جرت فيها حوادث هذا الكتاب هي حاصبيا وراشيا من اعمال الجبل الشرقي ودير القمر وزحلة والمختارة وصيدا وصور وعكا من اعمال الجبل الغربي

ومن اهم القرى الواقعة في الجبل الشرقي حاصبيا وراشيا وكانتا مركز حكومة الامراء الشهابيين

ومن اهم مدن الجبل الغربي صيدا وعكا و بيروت وصور ودير القمر وكانت صيدا مركز الولاية وعكا في غنى عن وصفنا فهي اشهر مدينة دارت فيها رحى الحرب وأهرق على اسوارها دماء الالوف من البشر فالتاريخ وحده كفيل لحفظ ما دار فيها من المواقع الهائلة . فنابليون المعظيم بعثته مطامعه الاشعبية لدك حصونها ولكنه رجع بالفشل والخيبة

و بيروت كانت قبل انفصالها عن الجبل و بعده مدينة تجارية لحسن موقعها الجغرافي

ودير القمر كانت مركز حكومة امراء شهاب وخصوصاً كبيرهم واعظمهم مقاماً الامير بشـير الذي بعد نفيه الى جزيرة مالطة عرف بالمالطي . والمـدن المتقدم ذكرها هي اهم الامكنة التي لها علاقة بحوادث تاريخنا وفيها جرت معظم وقائعه وفيها سيرت الجيوش لاخضاع لبنان واذلاله وفيها عقدت المجالس والمؤامرات السياسية على سطوة الامراء واضعاف شوكتهم الى آخر ماهنالك من الاعمال الجائرة والسديدة كما يرد في حينه

الفصل الثالث

في سكان لبنان الاولين

يقسم علماء الاجتماع الانساني الانسان الى اربعة اصناف القوقاسي والمغولي والزنجي والاحمر ولا يهمنا من هـذه الاصناف غير اولها اي القوقاسي لان سكان لبنان منهُ

ولامشاحة في ان جبل لبنان واراضيه الفسيحة وتربته المخصبة كانت آهلة يسكنها الناس قبل زمن التاريخ بقرون متطاولة

والعلماء متفقون على ان جنة عدن التي أوت الانسان الاول موقعها اما في ارض شنعار على حدود الفرات واما في ارمينيا وسواء كانت في هـذه ام تلك فهي على تخوم سوريا ولبنان ومن الادلة القاطعة على وجود الانسان في تلك الامكنة قبل فجر التاريخ قلعة بعلبك فان في شكل بنيتها وهندستها مايدل على قدميتها فهي اقدم من اهرام الجيزة بمصر . ومما تقدم يتضح لك ان اسلافنا كانوا على جانب عظيم من الادراك في فن البناء والمدافعة وآثارهم الباقية لهم التي عجزت عن ابادتها السنون والعناصر تشهد لهم بالمقدرة وتهزأ بالابنية من نوعها التي اقامها ويقيمها اهل هذا العصر . ولكن الى اي عصر بالقدم يمتد تاريخ تمدنهم لا نستطيع اثباته في هذا المقام

الفصل الرابع

في سكان لبنان بعد الطوفان

لنا في التاريخ هداية ورشاد نقصها تتمياً للفائدة التي نتوخاها · عرفنا حينما انفجرت انوارا التاريخ على المعمور عموماً ولبنان خصوصاً ان جماعة من بني سام بعد خروجهم من الفلك هاجروا الى سوريا ولبنان · ثم لحق بهم ولد حام وكان ذلك قبل الميلاد بقرون عديدة وبعد ذلك بمدة قدم ابراهيم جد اليهود مع افراد من حاشيته ·

فالساميون اقدم من سكن سوريا ولبنان وامتدت تخوم عمرانهم الى شطوط بحر الروم · ومن المدن التي شادوها وتوطنوها جبيل وبيروت وعكا · وفي الداخلية مدن وقرى كثيرة العدد اشهرهن دمشق وبعلبك وحلب وحماة ·

اما الحاميون لما راوا ذلك من الساميين اندفعوا بعامل المزاحمة فاقبلوا من بابل والعراق وابتنوا لهم من المدن صيدا وصور وطرابلس والبترون واللاذقية وطرسوس وغيرها ومن المدن في الداخلية حمص وكركيش واورشليم وبعض احياء من مدينة بعلبك وحصاصون تامار وسادوم وعمورة

الفصل الخامس

في ان المزاحمة وان تكن علامة العمران فهي تودي الى الفتنة

وذلك لما بين بني سام وحام من المزاحمة والمنافسة في العمران التي سببت لكل فئة منهما ميلاً الى استفراغ جهدها وقواها تحوز على السبق في مزاحمتها ومن البديهي ان المزاحمة اذا وقعت بين قوم اوامة ادت الى الاستعمار والتطرق الى المدنية وقد تتوغل الامة المزاحمة في ضروب الابداع والتفنن حتى تبلغ حداً تفرغ به جعبتها وتفني اعاظم اموالها وهي تكون مخمرة في سكرة الجد والمزاحمة الى ان يقوم عليها بعض افرادها ويطالبونها بالحساب عن اعمالها ونتيجة ما وصلت اليه فتعلو الضوضاء ويكثر اللغط وتتظاهر الطائفتان بالاسبقية وتمتدح افراد كل امة اعمال امتها وتتباهى بها على سواها وعند المقابلة يتبين الافضل منها والانسب يبقى ولو كان الانسان مطبوعاً على الاقرار بخطائه وسقطته عن رضى ومحبة ويعلن الحق متى رآه وعرف محله سواء كان الحق بجانبه

او بجانب خصمه لما كانت الحروب التي ذهب ويذهب بها ملايين من النفوس البريئة في الهيئة الحاضرة ولا قامت الفتن والمخاصمة بين البشر . ولكن لسوء حظ العائلة البشرية خلق الانسان مطبوعاً على محبة الذات والانانية يرى الحق بجانب خصمه و يتغاضى عنه — ذلك او مثله حدث لبني سام وحام عندما اشتدت مفاعيل المزاحمة بينهما وافضت الحال الى تخاصم وتنافر وعداء واحراق دماء الالوف من رجالهما بعد ان كانتا على وفاق ووئام فقس على ما تقدم ما تجري عليه في يومنا هذا الدول وامم الارض قاطبة تر الاصابة معنا فيما قلناه والله الموفق الى السواء

الفصل السادس

اذا كان القتال واقعاً بين امة واخرى وهجم عليهما عدو تعاضدتا على التنكيل به

والسبب في ذلك ما يكون للامة المتقاتلة من الحنق والحقد في صدرها على خصمها وقد اوجدته بها نعرة التفرد في السلطة والسيادة على اقرانها ولما كانت هذه الاماني من اوليات امانيها فهي تسترخص كل عزيز لديها في تحقيقها ولا تقصر في تنفيذ مآربها والبطش في ما يحول دون بلوغها ما تشتهيه بسفك آخر نفس من حياتها ومما لا ريب في حدوثه اذا كانت الحرب واقعة بين امة واخرى ودهمهما عدو انهما تتكاتفان على البطش به والفتك بعدوه وحاميته ذلك ما حدث لبني حام وسام وهما في حرب سجال اذ دهمهما البابليون والاشوريون في قيادة بطلهما سرجون الاول فانضمتا يداً واحدة على التنكيل بخصمهما والدافع لهما على ان ذلك الانضمام ميل غريزي بالانسان وهو حبه اظهار مقدرته ولو سحق بها انفس بريئة وميله الى البطش في الحوائل التي تصده عن تنفيذ رغبته في خصمه فبنو حام لما رأت العدو مقبلاً نحوها حولت سهامها عن بني سام اليه خوفاً من انها اذا ترددت لحظة عن ذلك تحسبه بنو سام عليها وجلاً وجبانة وهكذا قل عن بني سام . ومما حدث لهؤلاء القوم هو من حوادث يومنا وحدث في كل زمان ومكان وقد تمكن اهل بابل واشور من اخضاع بني حام وسام قبل الميلاد بقرون وارغموهما على دفع الجباية والغرامة الى ان تعززت لهما القوة وتوفرت لديهما النجدة فنهضتا نهضة واحدة على طرد اولئك الفاتحين وقد تم لهما النصر بعد حروب طال امدها

الفصل السابع

في اجتياح المصريين سوريا ولبنان

وكان ذلك في نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد لما زحف المصريون بقيادة تحوتمس وابلوا بلاء حسناً ووضعوا على سوريا ولبنان الجباية . ولكن ذلك لم يطل حتى قامت رجال سوريا ولبنان وطردوا المصريين من البلاد واذ ذاك كتب المصريون معاهدة هجوم ودفاع مع امراء سوريا ولبنان وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد حمل رعمسيس الثاني بطل مصر المشهور على سوريا ولبنان واخضع الحثيين واخذ منهم الجزية لكنه عجز عن اخضاع امراء لبنان خصوصاً شماليه حيث اهدن وبشري فوقفتا بوجهه وردتا مطامعه وقد كاد يفرغ قواه ويفني رجاله من ارساله النجدة وراء النجدة واخيرًا ارتضى الفريقان ان يكون له السلطة الاسمية على تلك الربوع فقط

وما لبث رعمسيس ان آب الى مصر مدحورًا وعلى غير ما كان ينتظر ورضي ان يتخذ ملك سوريا اخي صديقاً فابرم معه معاهدة دفاعية وبعد زمن ترك الجندية

وبعد خروج المصريين انقسم السوريون الى قسمين قسم استقل بحلب وكركميش واعالي سوريا يترأسه الحثيون والقسم الثاني الكنعانيون استقل بلبنان وسواحل سوريا البحرية وفلسطين وبعض بلاد العرب . ثم انقسم الفينيقيون الى امارات صغيرة نازعت بعضها بعضاً وكانت اقواها وافضلها الباقية

الفصل الثامن

في اجتياح موسى فلسطين

وبينما كانت القبائل المتقدم ذكرها في مناوشات وخصام اقبل عليها اليهود ويشوع بن نون فدوخوا بلاد فلسطين وازاحوا الكنعانيين عن ارض اليهودية

وقد حدث للكنعانيين ما حدث لابني حام وسام من التعاضد والتكاتف حينما هجم عليهما بنو بابل واشور فقد اجتمعوا تحت راية واحدة ونكلوا باليهود واذلوهم ثم غزا سوريا الاشوريون واوجبوا عليها ثمانية اعوام في نهايتها رجعوا عنها بالفشل وتاصلت

الحروب بين اليهود واهالي لبنان ومرت الاعوام على مخاصمتهم الى ان عاد الاشوريون الكرة عليهم فاخذوهم على غرة وبسطت سلطة الاشوريين عليهم ونزعوا استقلالهم

ومن الامم التي تداولت الحكم على اهالي سوريا بعد الاشوريين البابليون فالفرس فاليونان فالرومان فالعرب المسلمون فالاتراك السلاجقة فالاكراد الايوبيون فالصليبيون فالمماليك الاولون والآخرون فالاتراك الحاليون

الفصل التاسع

الاتراك العثمانيين

الاتراك قبيلة طورانية احتلت اسيا الصغرى وبعض شطوط البحر الاسود وارمينيا ونزحت الى تلك الاقطار من اعالي اسيا التركية على حدود الصين في القرون الوسطى هرباً من وجه جنكيزخان الفاتح التتري المشهور وفي احتلالهم اسيا الصغرى وبلاد اخرى تسمت على اسمهم التجأوا الى السلاجقة المسلمين فحموهم واقطعوهم اراضي لمواشيهم وكانوا يقتصرون على الماشية من اعمالهم وهم كثيرو الشبه بعرب ايامنا

وكانوا يعتمدون في حل ما يطرأ عليهم من المشاكل على عثمان وهو زعيمهم بل قائدهم في كل اعمالهم وكانت الحروب الصليبية دائرة رحاها في ذلك الوقت وكان آل سلجوق صحاب السيادة الاسلامية فتطوع عثمان المشار اليه مع اولاده وبعض من رجاله في نصرة بعض سلاطين السلاجقة واظهر شجاعة وحسن دراية مما استدعى الالتفات الى مكافأته وتقديره حقه فرقي الى درجة الامارة وعينوه حاكماً على مقاطعة وبعد بضع سنين توفي السلطان السلجوقي الذي لجأوا اليه فانتهز هذه الفرصة الامير عثمان وجاهر باستقلاله وقد خدمه حسن الطالع فاسس له ولولده دولة مستقلة لم تزل اعلامها مرفوعة الى الآن

الفصل العاشر

في فتوحات السلطان بايزيد

فالانسان كان ولم يزل لايحترم حقوق جاره وفي امكانه لاستيلاء عليها فالسلطان بايزيد لما آنس ضعف المملكة الرومانية الشرقية واقترابها الى الهرم جمع شتات رجاله ونفخ في صدورهم روح الجد والحمية فتألبوا ورفعوا الاعلام وزحفوا على المملكة الرومانية وهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم الذي كاد يذهب منهم ضحية على مذبح الشقاق والمشاكسة فدوّخوا اكثر ايالاتها ما عدا عاصمتها القسطنطينية التي كادت تدخل في مطامعهم لولم يعترضهم تيمورلنك التتري المشهور بين قواد العالم اذ ذاك و يصدهم عن متابعة فتوحاتهم وقد جرت بينهما موقعة عظيمة في انقره اسفرت عن وقوع السلطان بايزيد اسيرًا بيد تيمورلنك فقبض عليه واخضع رجاله و بعد ذلك خلا له الجو فاستولى على مملكة الترك وتمكن من جمع الجباية من مصر وملك الروم واسكره النصر فقاده الى فتوح الصين لكن المنية عاجلته وهو في الطريق وتوفي السلطان بايزيد بعد وفاة تيمورلنك بمدة قصيرة

الفصل الحادي عشر

في ان الملك المستبد تموت دولته بموته

كان لتيمورلنك الهيبة والعظمة بين رجاله حتى كانت ترتعد فرائصهم عند مواجهته فتفرد برأيه واستبد بحكمه لما ناله من النصر في فتوحه والطاعة العمياء من رجاله وكان يأنف من مكالمة اخص رجاله في أهم الشؤون وكانت مملكته بما اضاف اليها من الممالك متعلقة به رأسًا لذلك لما انتشر خبر وفاته بين رجاله وسائر مملكته تقوّضت اركان سلطنته ودكت الى الحضيض لانه لم يكن بين رجاله رجل به الكفاءة لادارة شؤون المملكة فتبعثرت ولعبت بفتوحاته ايدي سبا ولو كان تيمورلنك في حياته قرب اليه رجلاً او بضعة رجال وكان يتظاهر بالاعتماد عليهم في حل المشاكل لحفظ لهم في مماته رهبةً في قلوب جنده وساعدهم على احياء مملكته وتعزيز شوكتها الى ماشاءت التقادير ولما رأت الاتراك وبقية الممالك التي اجتاحها تيمور وملكها ما وقع لجنوده بعد وفاته جاهروا

باستقلالهم ورفضوا ان يكونوا تحت سلطة التتر · اما الاتراك العثمانيون فاقاموا عليهم اميرًا من سلالة الامير عثمان وطابت لهم الفتوحات ومد سلتهم

فاجتاحوا القسطنطينية وتملكوا على بقية الدولة الرومانية · و بعد ان عرفوا بطشهم طلبوا سوريا بقيادة السلطان سليم الفاتح فاستولوا عليها وعلى مصر وفيها بقية الخلفاء العباسيين فبايعوه بالخلافة العربية فاصبح اعظم ملوك الاسلام بطشًا وسطوة واعرقهم نسبًا وصلة

الفصل الثاني عشر

في امراء المماليك البحرية

هؤلاء الامراء يقال لهم مماليك البحرية نسبة الى بحر النيل لانهم كانوا يقيمون في جزيرة من جزره جعلوها حصنًا لهم

فهؤلاء المماليك وضعوا ايديهم على مصر بعد الدولة الكردية الايوبية وكانت السلطة تتداول بينهم لاعظمهم سطوة وكانت سوريا تابعة لهم ولما اذلهم السلطان سليم واخرج الدولة من ايديهم عينهم جواسيس على رجال دولته في مصر وسوريا فظلوا في خدمته ولكن مطامعهم كانت تحدثهم بطرد العثمانيين وارجاع دولتهم الى الوجود · ولما درت الدولة العثمانية بما يضمرونه في صدورهم عليها من الحقد اوعزت لرجالها في قطع دابرهم وراحة البلاد من شرهم ولم تتمكن من تنفيذ اوامرها الا سنة ١٨١١ على يد محمد علي باشا فقد محا آثارهم بالمكيدة المذكورة · اما قبل ذلك فكانوا يترقبون الفرص لاعادة سيادتهم حتى قام بهم علي بك الكبير وادعى قيادتهم وقام بهم بعد ان دربهم على الحرب والكفاح وطرد الاتراك من مصر وامّ سوريا وغيرها من ايالات الدولة العثمانية وكان النصر حليفه ولما رأت الدولة سطوته وشعرت بانتصاراته العديدة اوجست منه فبعثت اليه صهره ليفتك به غدرًا فقبل المهمة التي دعته اليها الدولة ومضى قاصدًا حماه و بعد ان غدر به وفاز بعمله الشنيع حدثته نفسه ان يتولى قيادة الجيش ويحل نفسه محل عمه · لكن الدولة اوفدت جيشًا كبح مطامعه وغل يده و بقيت مصر في حوزة المماليك وتحت رعاية الدولة العثمانية الى سنة ١٧٩٨ حيث اقبل اليها نابوليون الاول فاتحًا بجنده الفرنساوي ثم خرج هذا الجند منها سنة ١٨٠١ وعادت الى كنف الدولة وتولاها محمد علي سنة ١٨٠٥

وهو الذي قرض المماليك سنة ١٨١١ كما تقدم

الفصل الثالث عشر

نوع حكومة سوريا في عصر حوادث هذا التاريخ

ومما يجدر بنا ذكره هو ايدع كتابنا هذا لمحة اجمالية عن نوع حكومة الاتراك بسوريا بعصر حوادث هذا الكتاب ليحيط القارىء بها علماً و يعلم ما كانت حالة الحكومة القانونية والمالية وكيف كانت تضبط امور الدولة بذاك العصر

ونعتمد هنا على ثقات المؤرخين وخصوصاً تاريخ حسر اللثام عن نكبات الشام فنقول :

مما لا يختلف فيه اثنان ان العدل اساس الملك بكل العصور الغابرة والتي سوف تأتي . فالدولة التي ساد العدل فوق ربوعها وعمت المساواة افرادها تنمو وترتقي وتتسع املاكها وتعم سطوتها و يتوافد القوم لطلب نصرتها والاحتماء بظلها من مخالب الاستبداد والجور وحسبنا ماروه التاريخ شاهداً لما قلناه وما نراه يجري بالممالك الحية دلالة قاطعة على ان العدل والمساواة امام القضاء ودستور الدولة واعطاء كل ذي حق حقهُ هي اساس الارتقاء . على هذا الطريق مشت دول التمدن والارتقاء القديم وعليها تجري الدول الحية بايامنا

وعلى هذا الطريق تمشت الدولة العثمانية باول ادوارها في عهد السلاطين العظام الفاتحين الذين وسعوا نطاق المملكة واجروا العدل والقسط في الرعية فتهافت للخضوع لهم الرفيع والوضيع حتى ارتقت دولتهم من مقاطعة صغيره الى مملكة واسعة الارجاء ومضى عليها عصر كانت بهِ اعظم دولة بالعالم على الاطلاق

وكان يستظل عشرات الملايين من البشر بظلها الزاهر ومجدها الباهر يتسابقون الى احراز حمايتها من كل صقع وناد

انما عند وقوع حوادث كتابنا هذا كان العدل والقسط قد تركا ربوعها لفساد المأمورين وجهالة الشعب الذي بفضل عسف الحكام وجورهم واصل سيره للوراء في عصر حوادث هذا الكتاب لايختلف عن الشعوب الهمجية باواسط افريقيا الا ببعض الشؤون الثانوية

كل ذلك من فساد الحاكم و تشويش نظام الدولة وخروج مهابتها من صدور اولئك

اللئام الذين كانوا يعيثون في الارض فساداً

وكان همهم ابتزاز مال الرعية وتعزيز الهمجية ومحاربة العلم واستئصال شأفته حتى كنت لا ترى في سوريا واحداً من مائة يحسن مبادئ القراءة فما قولك بالعلوم الاخرى

وكان كل منهم دأبه جمع المال والتنعم بالملذات واتيان المحرمات كيف ما كانت الحال لا يقعده عن قصده دين ولا ذمام ولا يعتبر نظاماً وكثيراً ما كان يجرد سيفه لقتال الدولة ويرغمها على الرضا بالسلطة الاسمية فقط لقاء مال يدفعه لها

فكانت الدولة لا يهمها من امور الرعية شيء شقيت ام سعدت اذا كانت تدفع المال المطلوب لها فاستبد الحكام وعظم شرهم وكبر امرهم واصبح من المستحيل ردعهم فتأصل بهم هذا الخلق حتى تخلقوا به وبئس المسير والمصير

الفصل الرابع عشر

تقسيم الايالات

وكانت البلاد السورية تقسم الى اربعة اقسام ادارية او اربع ايالات ٠ الاولى ايالة حلب والثانية ايالة دمشق وهذه كانت تتناول اواسط البلاد مما يلي الشرق ٠ والثالثة ايالة صيدا او بيروت وكانت تتناول اواسط البلاد مما يلي الغرب ٠ والرابعة ايالة القدس الشريف

وكان لكل ايالة والٍ مستقل عن الآخر يصدع بامر الباب العالي رأساً في أمور ايالته — الاّ ان البلاد او الايالات كانت تخضع عسكرياً لسلطة قايد عام يقيم بدمشق الشام ويدعى مشير العرضي الهمايوني الخامس ٠ وكان هذا المشير وظيفته ادارة الشؤون الجندية بسوريا كلها ولم يزل هذا النظام للآن

وكان رجال الجند بذاك العصر الا نفر صغير منهم اجانب اخلاطاً من ولايات الدولة باوربا وبلاد الاتراك باسيا الصغرى والعرب بينهم قليلون لان النظام لم يكن نافذاً فيهم

وكان لكل ايالة مجلس شوروي مؤلف من بعض علماء المسلمين والوجهاء واهل النفوذ والباشا يترأسه الوالي ٠ ومن شأنه النظر في الامور المالية واحوال الجندية وغير ذلك من المهام

وكان الحكم في الدعاوي الجنائية منوطاً بالقاضي باشي ومركزه في باب السراي الاميرية ثم بالتنكجي باشي وهؤلاء الجماعه كانوا رؤساء القراقولات في المدن • وكانوا قوم أميون لا يعرفون الحكم من النوع يحكمون بحسب ما تقودهم اليه اهوائهم وافكارهم وكمية الرشوة التي يدفعها اليهم المجرمون ولم يكن لهم قانون يعرف ولا نظام يوصف

هكذا كانت تضبط الحقوق بذاك العصر الى الاحكام الحقوقية وما شابهها فالذي يسلم من تداخل الوالي وارادته يحال للشرعية — اما الخصوصيات فكانت تناط بطوائف الاديان تحكم بها كل طائفة حسب تقاليد دينها

الفصل الخامس عشر

في اسباب الثورات والقلاقل

وكانت القلاقل والثورات والاعتداءات متواصلة على التتابع ومعظمها يقع على المسيحيين واهل السكينة من فقراء المسلمين • وكان اكثرها يقوم به الجند وكانت رجال الجندية لاجال جماعة غلب الجهل والحمق ابصارهم وضربت القحة اطنابها فوق رؤوسهم • وكان الفجور والفسق ديدنهم اذ لا رادع يردعهم ولا نظام يقيدهم ولا قوة تصدهم فتماروا بالاثم والدناءة لدرجة الوحوش الضارية

وكان الجند ينقسم الى ثلاثة اقسام اولية منها اثنان وطنيان يلقبان بالوجاقات وهما وجاق الانكشارية ووجاق القبيقول والقسم الثالث مأجور يحضره الولاة كحرس خصوصي لهم • وكان هذا الوجاق يؤلف من اخلاط الامم كالمغاربة والتكارنة والترك والدلاة والارناووط وغيرهم

وكانت العداوة متأصلة بين هذه الفرق او الوجاقات وقد قامت بسببها حروب كثيرة بين هذه الاقسام المتصاغنة هرقت بها دماء غزيرة فتسبب من جراء ذلك مخاوف وويلات عديدة وقعت على الشعب — حيث كان هؤلاء الرعاع ينهبون الدكاكين وتقفل الاسواق وتوقف حركة الاعمال ويستحيل على ابناء السبيل الخروج من بيوتهم لتحصيل طعامهم

ومرات عديدة كان بعض المدن السورية مسرحاً لثوراتهم وتطرفهم وكثيراً

ما اوقدوا النار باحياء المدن السورية وخصوصاً دمشق وحلب ولا ينفض المشكل الا بتداخل الولاة او بعض الاعيان • ولا تلبث ان تعود الثورة الى حالها الاول بعد ايام قليلة . هكذا كانت احوال الشعب السوري بذلك العصر

وكان الدافع لذلك عدم مقاصة المجرم وقلع جرثومة الفساد واكراه الاوباش على احترام الشريعة ولاجل هذه الاضطرابات ومثلها كنت ترى شوارع المدن وحاراتها كثيرة الابواب العظيمة • تقفل وقت الثورات وقاية لمن ورائها

وكان اكثر رجال الوجاقات نفوذاً الانكشارية لكثرتهم وشدتهم وصداقتهم للوالي ويأتي بعدهم القبيقول وغيرهم وكان زعماء هذه الفيئات يلقبون بالاغوات وكانوا يرسمون على ايديهم الوشم شعار الفرقة التي ينتمون اليها حتى كانت القهاوي التي يتردد اليها هؤلاء ينقش فوق بابها اسم الوجاق الذي يتردد اليها

ولم يكن لهم نظام عسكري يرجعون اليه • وكانت الاحياء المدنية تخضع للآغا الذي يقيم بها وهذا يخضع الى زعيم اوجاق المنتخب من الاغوات لشدة بأسه او لصداقته للوالي او غيره

وكان الاحداث والنساء لا يتجاسرون على المرور بمجتمعات هؤلاء الجهلة خوفاً من الاغتصاب وكان ذلك عظيماً على الرعية وكان المنتمون اليهم كثيرين لعناية الحماية او للمشاركة بالقبائح وما شابه

وكان ما يصلهم من مال الخزينة لا يكفي نفقاتهم لكثرة اتباعهم فاضطروا للعمل • فكانوا يذهبون للعمل مثل بقية الناس وعليهم السلاح ليسهل لهم الانضمام الى فرقتهم متى دعت الحاجة

اما الخاملون منهم واهل الفسق كانوا يجتمعون في القهوات ويعاقرون الخمرة ويعتدون على القوم ويصادرون اموالهم ويفترسون نساءهم واولادهم • • وكثيراً ما كانوا يقتلون الناس لغير سبب كتجربة سيف او بندقية باحد المارة ولم يخلوا من بعض اهل الشهامة والمروءة انما كانوا يعدون على الاصابع

وهذه الاحوال المشروحة جعلت الرعايا تتمادى بالتعدي والجور لدرجة قصوى لسبب ضعف الحاكم وقصوره عن ردع القوي عن الضعيف وكانت البواعث على اظهار قوة الافراد وكثر بذلك العصر الجبابرة الاشداء من مسلمين ونصارى من غير المنتمين لاحد الاحزاب الجندية والمتكلين على انفسهم وشدة بأسهم

وكان القوم يحسبون لهم الحساب ويخافون بطشهم ويحترمونهم ويدعونهم بالمعتبرين وكانت هذه الفئة صاحبة مروءة وشهامة يحكي عنها حكايات عديدة تظهر مروءتها للعيان نسبة واحدة منها للقياس ونترك الباقي لتصور القارىء

قيل ان رجلاً من وجهاء المسيحيين مرت زوجته بالشارع مقبلة من الحمام فنظرها احد الانكشارية فراقت بعينه فتعقبها لبيتها وبعد ان علم المكان وسأل عن زوجها قيل لهُ انهُ يعمل بتجارته فقصده وقال لهُ : يافلان استعد لتدبير عشاء ومسكر وقل لزوجتك ان تحضر لاني سوف اضيفكم بعد ساعة

ففهم الرجل ما يريد هذا الوغد من هتك عرضه فكبر عليه الامر وكان له صديق من الجبابرة مسلم فقص عليه مصيبته فقال لهُ : افعل ماامرك بهِ وسوف احضر لبيتك واريحك من شره . فاقبل الانكشاري حسب وعده فاكل وشرب الخمر وبينما هو يستعد لهتك عرض الرجل حيث طلب المرأة لتسقيه الخمر ذهب الجبار واحتز رأسهُ وعلى هذا المنوال كانت تجري الاحوالى

الفصل السادس عشر
نظر عام في حالة المسيحيين

وكان التعصب الديني بالغاً اشدهُ بشعب ذاك العصر حتى تجاوز بهِ القوم حدود الافراط . وكان المرء منهم يحسب كل رجل غير متدين بدينه جاز لهُ قتله والاعتداء عليه لا اثم في ذلك ولا تثريب في ابتزاز ماله وعرضه . وانتشرت هذه الروح حتى عمت السواد الاكبر من القوم . وكان فريق من العلماء واهل التقوى يرون معاملة الذمي بالحسنى تبعاً لقواعد الدين الشريفة — ولكنهم لم يتوفقوا لردع الرعاع في زمان عمت فيه الفوضى وساد الجهل والهمجية على عيون القوم

وكان المسيحي عرضة للاهانة والذل بينما مرَّ او حلَّ وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة حتى الف الذل كما الف مذلهُ اذلالهُ . فكان النصراني حيثما مر وتوجه ينعت بالكافر ويشتم صليبه ويحتقر وتقلب عمامته ويدفع ويرفس الى غير ذلك من الاهانة

وكان اذا مرَّ في حي المسلمين لحقه صبيان الازقة معيرين قائلين لهُ « نصراني

كلب عواني . رقوله بالصرامي . . قالت امه فينه . ضربة تقلع عينه » وغير ذلك من القبائح

فكان يحتمل كل هذه الاهانات بصبر لا يفوه بكلمة دفاع ولا يقدر على غير الاستجارة بتقي مسلم اذا صدفه يحاول هذا ابعاد الصبيان عنه والا فلا

وكان المسلم اذا مر بمسيحي يقول له : اشمل . . . بريد بذلك ان يسير عن يساره فيفعل صاغراً . واذا كثرت الناس بالطريق بين ذاهب وآيب كثر شقاؤه ولا يعلم كيف يذهب فيدعى للطورقة فيطورق اى يمشي في الطاروق . . . والطاروق عبارة عن منخفض في وسط الشارع تسير به البهائم ينحط عن رصيف المارة قدماً تقريباً وعرضه من اربعة الى ستة اقدام تجمع به الدواب محملة وفي فصل الشتاء يجتمع به ماء الشتاء وفي الصيف الاقذار . وكان يصادف هذا التعيس الآماً مبرحة من الحيوان والانسان على السواء هذا الحيوان يدفعه وذاك يزحمه والسائق بوخزه وغيره يلكمه . وهنا نمسك القلم ونترك للقارىء تصوير حالة هذا التعيس وكيف كان يسام العذاب من الحيوان والانسان و يعامل اقبح من الرق

وكان كثيراً ما يسخره اصحاب الدكاكين لقضاء حوائجهم . او يستعملون اهانته واسطة لازهاب مللهم وتفريج كربهم فيناديه بعضهم تعال يا معلم فيذهب اليه فيصفعه ويكلفه ان يذهب بحاجته او يلبسه حذاءه او يشتغل عن شغلاً ما — واذا كان مازحا يهمس في اذنه شتماً أو اهانة

او يأخذ عمته ويصفعه على ام رأسه ويرمي العمة الى جاره وهذا الى الذي يليه وهلما جرًّا ويقول له : اذهب وخذها منه فيذهب فيكررون عليه العملية الى ان يملوا فيتركوه — وكانت تلك العمامة كبيرة مستحكمة الربط كي تتغلب على ما تقدم وتقي ضمنها ورقة الجزية لانه لو سار خطوة بدونهما عرض نفسه لخطر الاهانة لانه قد يفتش كل يوم مراراً وتكراراً وويل له ان لم يبرزها عند كل سؤال عنها

وكان قانون الحكومة اذ ذاك يكره المسيحي ان يحمل على كتفه كيساً يسمونه كيس الحاجة وليس له ان يخرج من بيته بدونه والمقصود من هذا الكيس ان يضع به من الاغراض وحوايج المسلمين ما يسخره هؤلاء بحمله من بقول وخضار وغيرها

واتفق غير مرة ان النصراني كان يقضي يومه مسخراً ببعض الاوقات رغماً عن كونه صاحب عائلة تعيش من عمله ومضطراً للعمل لتحصيل قوتها ومتى قضي

يومه مسخراً باتت تلك العائلة بدون قوت او تقتات على صدقات اهل الرحمة ٠٠٠ وتكرر عليه الاذلال حتى الفه وحسب نفسه خلق ليكون رقاً لقوم ليس بقلوبهم رحمة ولا حنان

وكانت اموال المسيحيين مطمعاً للحاكم وغيره فلا يعدم من انتحال الاعذار لاستنزافها فان لم تكن بالخراج والجزية فالقروض والمطالبة وما شابهها ومن لم يدفع سجنه حتى يدفع او يقتله وكثيراً ما قتل جماعة منهم خنقاً وشنقاً لكونهم لم يدفعوا ما يطلب الحاكم منهم القروض وغرما ٠ ولم يكن الحاكم وحده يضغط على النصارى مالياً بل هناك كان يؤدي جزية لزعماء الرعاع من المسلمين ليتركوا له حياته ثم الى المتشردين من (الابضيات) واهل البأس من الدين متكيب على كيسهم هذا فصلاً عن مغارم الجند واصنافها العديدة وقد لا يمر به اسبوعاً لا يدفع به غرامة وكانت الحياة صعبة على من رزىء بحكم الوحوش الضواريء الذين سولت لهم النفس انه يجوز لهم تعذيب من كان على غير دينهم

وكان اكثر التعدي الذي يقع باهل الذمة من الجند والاوباش ورعاع الاسلام كثيرًا ما اضطر بعضهم لاعتناق الاسلام هربًا من الحيف والذل وفات هؤلاء ان الدين لا يقوم بالاكراه بل يأمر بالحسنى والمعروف لمن لا يتدين به وقد كان هناك جماعة من الفقهاء المسلمين لم يرضوا بهذه المعاملة لكنهم كانوا القليل من السواد العظيم ولذلك لم يجد نهيهم نفعًا ولا رد سهام الرعاع عن المسيحيين

وقد حظروا على النصارى لبس شيء يتقرب من الملون ولو كان لهم مقدرة مادية على الحصول عليه ولا ركوب المطايا الا بطريركهم فهذا كان يسمح له بالركوب وحصل من جراء ذلك امور تتمزق منها الاكباد وينفطر لها الفؤاد كظلم وشتم وهتك اعراض وسلب الروح والمال ٠ ومن غريب عادات ذلك العصر انهم كانوا يعتبرون اذلال المسيحي تديناً ٠ ولاثبات ما تقدم نثبت منشور درويش باشا وهو واحد من مئات تقدموه وعقبوه فيعلم القارىء العزيز منزلة اولئك التعساء ويقيس عليها حالة غيرهم ممن تقدمهم وعقبهم وهذا هو بنصه الحرفي :

« صدر مرسومنا هذا المطاع الى مشايخ واختيارية اهالي قرية صيدنايا المسلمين ليجروا بحسبه ويعتمدوه فالبادي هو ان النصارى عندكم عمال يقلدوا الاسلام في ملابسهم وعمائمهم ونعالهم وتعدوا درجاتهم وخالفوا فهذا ضد ارادتنا ولم يعطي بهِ رخصة

منا فبناء على ذلك بعثنا لكم مرسومنا هذا لاجل ان تحذروهم وتنذروهم من عواقب ذلك حالاً وتنبهوا عليهم لا يلبسوا الا ملبوس ازرق وعمامة سوداء ونعال سود ولا تدعوهم يقلدوا المسلمين بشيء لا لباسه ولا حالاً وان بلغنا ان واحد تعدى الحدود المذكورة فماله لا يغني عنه وخطيئته في عنقه ويطالب من حقكم وحقه فبناء على ذلك ارسلنا لكم مرسومنا هذا من ديوان الشام على يد رافعه فخر اقرانه جندي باشي ارقداش محمد اغا فبوصوله تعملوا بموجبه وتتحاشوا مخالفته وتلوه واعتمدوه والحذر من الخلاف

في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ هجرية » الختم

محمد درويش

هكذا كانت حال المسيحيين في عصر حوادث هذا الكتاب وا كثرها كانت تقع ودامت على هذا المنوال لفتوح ابراهيم باشا سوريا فرفع عن اعناقهم الاستعباد والاضطهاد

الفصل السابع عشر

في نسب امراء لبنان ومشايخه

من اعظم امراء لبنان بعد امراء معن المنقرضين امراء شهاب الذين يرجع نسبهم الى اقدم عصور الاسلام . ولما قدم العرب لفتح الشام بقيادة ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد قدم معهم بطن من بني مخزوم الذي يرجع اليه تاريخهم بالشام

وقد توفي جدهم الاول بجدار دمشق وبعد الفتح اقطعهم الخليفة ارضاً واسعة في حوران واقاموا في مدينة شهباء من اعمال جبل الدروز ومنها اخذوا لقبهم المتعارف بالشهابيين

وفي تلك الاعصر امتنعت امراء لبنان وولاة اموره عن طاعة دولة العرب فبعثت اليه بني مخزوم وغيرهم من بطون القبائل العربية وامراء معن ليرغموا امراء لبنان على الطاعة للدولة وكانت الدولة ترسل النجدات وتعد صاحب الغلبة بالولاية على لبنان وما يتبعه من الولايات وقامت الحروب اعواماً عديدة ولم يكن النصر ليتم لفريق الا و يعبس له الى ان دالت دولة امراء المردة وقامت على انقاضها دولة امراء معن واخلفت هذه امراء الشهابيين

اما المشايخ فدرجات متفاوتة فمنهم الحاكم الكبير والصغير

ولفظة شيخ عربية وهي لقب يراد به وصف وجيه القوم او زعيمهم واحياناً يقصد بها الطاعن بالسن

وفي الطبقة الاولى بين مشايخ لبنان من حكموا في ناحية الجنوب بيت علي الصغير فامتدت حكومتهم من جسر القاسمية الى النهر الليطاني بما يتخلل هذا القسم من القرى والمدن ومن بلاد بشاره الى حدود الكرمل ومن الكرمل وناحية صفد مع مدينة عكا كانت تحت سلطة مشايخ الزيادنة ومن النهر الليطاني من ناحية صيدا فاقليم الشومر وبلاد الشقيف كانت بيد مشايخ الصعبة الشيعيين او المتاولة

ومن خارج صيدا بميل يبتدي اقليم التفاح وهو آخر حدود لبنان جنوبيّاً وتحكمه آل شهاب من صيدا لحدود ولاية طرابلس شمالاً

الفصل الثامن عشر

في حكومة لبنان وسوريا الاهلية واستعباد الشعب

فالمشايخ الذين تقدم لنا الكلام عنهم كان يتولى امرهم شيخ منهم توليه عليهم الدولة بعد ان تعرض عليه الجباية وتطلق لهُ التصرف باحوال الشعب وراحته وكانت شريعة شيخنا هذا ارادته

وكان هذا الزعيم او شيخ المشايخ يقيم له معاونين ووكلاء ويطلق عليهم اسم مشايخ تعزيزاً لهم وكان يفرض عليهم مالاً محدوداً ويعدهم ان لا يتعرض لاعمالهم فيبرحون ويطلقون لمطامعهم الاشعبية الاعنة في مص حياة الشعب من عروقه بلا شفقة ولا حنان وكانوا يستعبدون ويأتون المنكرات في كثير من اعمالهم الجائرة

وكان الشعب المسكين يؤدي الطاعة العمياء الى حكامه ويأتمر عفوًا باوامر ولاة امره ولم يكن ادراكه يخوله معرفة انه ما خلق ليكون عبداً عتيقاً لحاكمه . وكانت الدولة علة وجود هذا الاعتساف في اعمال رجالها الامناء حيث كانت تطلق للوالي حقوق التصرف بولايته بعد ان تنال منه الرسم المعين وكان هذا يولي شيخ المشايخ وهذا يولي مشايخ ومعاونين على سلب مال الرعية بما تتوصل اليه يدهم ويقدرون عليه

وكان الشعب لا يرد لهم طلباً لجهله القانون ولذلك كان كفيلاً قويًّا لاملاء بطون مشايخه وهو زعيمها وهذا مكلف باشباع بطن الوالي ومن الوالي يرسل ما بقي

عن تلك النفوس الجائعة والبطون الخاوية الى الخزينة الملتهبة ومن سوء طالع الشعب لا الخزينة ولا بطون المشايخ والوالي تعرف الامتلاء فكانت البلصات متتابعة والنهب قائم على قدم وساق

فتأمل وما ترجوه من ذلك الشعب الذي طاب له الذل والف العبودية

الفصل التاسع عشر

في ان الاستبداد يذهب بالوطنية

كان شيخ القرية ينظر الى الشعب نظر السيد و يسلبه راحته فضلاً عن ماله اين شاء وكيف شاء كما تقدم وكأن الشعب تعود الطاعة والف الجبانة فنام الى الذل وحسب لشيخه مزية عليه ومقدرة له لا مناص ولا مهرب له من جور حاكمه فكان كالنعجة تساق الى الذبح بلا معارضة او اقل مدافعة عن حياتها ومن البديهي من شب على هذه العوائد والف تلك الاعمال الجائرة — والانسان ابن عوائده ومألوفه — يستطيب الذل والخضوع وكيف لا يذل وحالته كما عرضناها لك كيف يقدر على رد الغزاة وتلك جامعته ومع هذا الانحطاط الذي كان فيه شعب لبنان لو قدر لزعامته الاتفاق والانضمام ربما كان له النهوض وحض الشعب على مناصرته في رد الاتراك والاجانب عن وطنهم وحفظوا استقلاله ولكن اين كان ذلك الشعب حتى وولاة اموره لم تكن تعلم من الوطنية غير جمع مال الشعب واظهار مقدرتها عليه

وبعد ان علمت حالة الشعب في عصر حوادث كتابنا صار من السهل علينا اقناعك بصحتها وثبوتها وها نحن شارعون بسردها.

الفصل العشرون

في نشأة وسيرة احمد باشا الجزار

جل ما نعرف عن نشأة هذا الرجل انهُ قدم من بشناق احدى الولايات العثمانية الى مصر وقيل انه دعي بالجزار بعد ان شاعت اعماله البربرية ومما جاء عنه في تاريخ نابليون بعد حصاره عكا ورجوعه عنها بالفشل والخيبة ما نصه «وكان من قبل الدولة التركية وال على عكا يدعى احمد باشا الجزار سمي بالجزار لظلمه الشنيع وذبحه الابرار ذبح النعاج

ويعنون بلقبه جزار الغنم صاحب القصبة لظلمه وكثرة شروره وقساوته حتى على عائلته التي ذبحها ذبح النعاج »

وسواء دعي جزاراً لظلمه وغدره او كان ذلك لقبه فلا يهمنا اثباته الآن ولنا من اعماله التي نوردها عبرة لتبصير

وكان احمد الجزار داهية كبيرة ذا مطامع شعواء وشجاعة نادرة واقدام ، ورجل مثله اتصف بمثل هذه الاخلاق تحتاج اليه الدولة وهي تفتش عن امثاله لتجعله من اتباعها الامناء فقد بعث استحضرت اليها المشار اليه وحالا ارسلته الى مصر ليفتك بالامراء المماليك ويريحها من شرهم فقدم الجزار الى مصر ودخل في خدمة فريسته ولما توطن البلاد وعرف مداخلها وكان في ذلك قد قطع الجانب الاعظم من مهمته التي حضر لاجلها حيث توصل بدهائه الى جلب ثقة اسياده المماليك به واجماع من عرفه منهم على محبته والاعجاب بنشاطه ، وحتى ينفذ مآرب الدولة أولم وليمة على نفقته دعى اليها جماعة من الامراء المماليك الذي حضر منهم واجاب دعوته كان ذلك النهار آخر ايامه لان المذكور صاحب الوليمة اسكرهم حتى فقدوا رشدهم ثم نهض فذبح الواحد بعد الآخر الى ان فتك بجميعهم وقد عرف بعد ان أقدم على هذا العمل الابتدائي انه غير كاف لتحقيق أمانيه في اعادة مصر الى الدولة ففر الى سوريا من وجه المماليك وحول نيته الفاسدة عن المماليك الى امراء لبنان

الفصل الحادي والعشرون

في وصول احمد الجزار الى دير القمر

واول مكان حط ترحاله فيه دير القمر مركز الامارة حيث كان مركزها بها صيفاً وبيروت شتاءً . وكان امير لبنان ونتئذ الامير يوسف الشهابي الذي كانت تمتد سطوته على نحو لبنان الغربي والشرقي وعلى مسافة ميل عن صيدا الى عكا شمالاً فحمص احياناً حلب

وهذا الامير كان نفوذه على سوريا برمتها فضلاً عن شرقي لبنان وغربه حيث كان له السيف حاكماً على لبنان الشرقي وهو مقيد بارادته

وكان غرض الجزار التقرب من امراء لبنان لاغراض اثيمة وهي الغدر بهم وايقاد نار الفتنة بينهم و بين المشايخ

وكان يتردد على قهوة الميدان بالقرب من مسكن الامير. ومن دهائه ومكره كان يتردد الى ذلك المكان باوقات معلومة طمعاً في ان يراه الامير من احدى نوافذ القصر وكان ظاهره يدل على المسكنة والفقر مما جعل الامير عند ما اتفق له ورآه اكثر من مرة ان يبحث عنه وقد سأل بعض رجاله فقيل له انه تركي قدم من مصر مطروداً

وللحال امر الامير كاخيته الشيخ غندور الخوري ان يحضر الجزار اليه (وكاخية لفظة تعبر عن كاتم اسرار الامير او نائبه والشيخ غندور الخوري هو جد غندور بك القاطن بلدة عندار والمدرسة التي انشأها بطريرك الكاثوليك فيها هي نفس بيت الشيخ غندور)

ولما مثل الجزار امام الامير سأل كاتم سره الشيخ غندور ان ينظر في امره ولم يكن من حضرة الشيخ الا الاعجاب والاطناب به امام الامير الذي سمح بادخاله في بطانته ور بما كان رأي الشيخ الاستعانة به لدى والي صيدا لان واليها تركي مثله

والامراء كانوا يكثرون اعداد حاشيتهم واتباعهم و يرحبون بكل من يعرض لهم نفسه لخدمتهم

ولم يكد الامير يلفظ جعل الجزار من اتباعه حتى سر من هذا الفوز و بش له وقد امر له الامير بكسوة وجواد مع بقية مايلزم الفارس من السلاح وعين له مكاناً ليأوي اليه وقربه اليه وفي الوقت القصير اصبح الجزار اقرب الى الامير من بقية رجاله

الفصل الثاني والعشرون

في ارتقاء الجزار الى منصب الحاكم

ومن ذلك الحين اخذ الجزار يعد المعدات لاتمام حيلته واول اعماله كانت ترمي الى تحقيق ثقة الامير به والاعجاب باعماله التي تجعل صاحبها ان يكون ذا نشاط وحذق وقد تحققت امانيه حيث اخذ الاعجاب من الامير به مأخذه وقد رقاه الى رتبة اغا ووجهه حاكماً على بيروت

فاظهر الجزار حزماً غريباً وحنكة في منصة الاحكام برز بها على معاصريه ولم نتمالك

الرعية عن الاطناب به والثناء عليه حتى بلغ اعجابهم به مسامع الامير فزادت ثقته به وسر بالصدفة التي قادته اليه ولو كان للامير علم الغيب لتخلص من الجزار وعفى نفسه من شروره وويلاته

ولما أنس الجزار ان ثقة الامير به قوية عرض عليه ترميم اسوار بيروت وحسن له السرعة في العمل خوفاً من بطش الدولة به واستيلائها على البلاد ولم يعلم الامير ما يكنه صدر ذلك الجزار من الشرور والمقاصد الفاسدة فاستحسن رأيه ووافقه على ترميم اسوار المدينة على نفقة الحكومة وفوّض اليه مراقبة العمل وفي الحال قام الجزار ونادى بالسخرة فاجتمع اليه عدد غفير من الاهالي وبدأوا في العمل الذي اوجبه عليهم الجزار حاكم المدينة وقد ناظر العمل بنفسه وانتهى من ترميم الاسوار في مدة قصيرة ولما درى الامير به اثنى عليه وانعم عليه بالالقاب وكان يخاطبه كاقرب الناس اليه . ولم يكن اعجاب الشيخ غندور يقل عن اعجاب الامير باعمال الجزار وما ابداه من الصدق والاخلاص (ولو) كلمة ثقال مع الاسف فلو دريا ان هذا الرجل سوف يجلب على سوريا مجازر وكروباً تتفطر لها القلوب دماً لكانا اول من سعى الى التنكيل به

الفصل الثالث والعشرون

في ترقية الجزار الى منصب الولاية وسلخ بيروت عن حكومة الجبل

ومما يجدر بالذكر ان احمد اغا الجزار بعد ان انجز عمله من تحصين مدينة بيروت ورأى ان الفرصة لوثبته الاخيرة قد حانت عمل على انهاء تعلياته ورغائبه الخصوصية الى الدولة على يد من يثق به ولم يكن لهُ غير ناظر قافلة البريد او سواه وفي ذلك الوقت لم يكن بريد الدولة منتظماً كما هو عليه الآن فكانت الاخبار تصل الاستانة ببطء عظيم وكان رجال الدولة حكام الولايات ومن شاء المخابرة مع رجال الاستانة ينتظرون قدوم قافلة البريد المؤلفة من بضعة انفار وما ينيف عن ثلاثين جواداً لنقل البريد والمبادلة في اثناء الطريق . وكانت الاهالي مضطرة ان تقدم لرجال البريد من طعام لهم وخيول مع عليقها متى شاءت السؤال عنها كل ذلك لوجه الله . وقد يموت للرعية من الخيول في هذا الطريق عدد وافر في كل سفرة والمسافة بين صيدا والاستانة ركوباً تستغرق اربعين يوماً ورجال البريد كانت تقطعها في اسبوع او اقل . فتأمل رعاك الله كم

كانت الاهالي تتكبد من المشقات والخسائر

وكان هذا البريد يمر ببيروت اولاً وصيدا ثانياً وكان كلما وصل الى بيروت يظهر الجزار لرئيسه كل حفاوة واكرام وكان يظهر للامير انهُ يفعل ذلك حباً بمصلحة الجبل التي هي مصلحته

وفي المرة الاخيرة مرَّ بهِ مع البريد احد ثقات الدولة مرسلاً من قبلها للمراقبة وفحص اعمال رجال الولايات وامرائها ومشايخها وقد سر اليه الجزار نضج معدات همته ولا ينقصه لابرازها الى حيز العمل غير توليه على صيدا واذ ذاك يسهل عليه الفتك بامراء ومشايخ البلاد ويخضعها للدولة بعد ان يرفع عنها سلطة الامراء الحالية ولما بلغت رسالة الجزار الى مسامع الدولة على يد ذلك المندوب من قبلها ارسلت لهُ فرمان ولاية صيدا

ولما رقي الجزار الى رتبة الولاية واصبح والياً على صيدا لقب بالوزارة والبشوية وولاية صيدا تضم نصف سوريا تقريباً واصبح سيدهُ الامير يوسف يصدع باوامره ويرهب بطشه

وكانت ولاية صيدا توجه حكومة الجبل الى الامير الذي تختاره من آل شهاب وترى فيه الكفاءة بعد ان تفرض عليه جزية مهرًا لاستقلاله الداخلي . وعلى جاري العادة وجه الجزار ولاية لبنان الى سيده الامير يوسف وكان بامكانه تعيين سواه ولكنه راعى في هذه المرة خاطر من كان السبب في ارتقائه فابقاه بوظيفتهِ بعد ان سلخ بيروت عن حكومة لبنان واصبحت تلك المدينة تحت سلطته

وبعد ان كان والي صيدا لا يحكم من الولاية غير صيدا وضواحيها فقط وما بقي من البلاد والقرى يحكمها الامراء والمشايخ اصبح والي صيدا على عهد الجزار يحكم بيروت علاوة عن ولايته المحدودة

فقبل الامير يوسف الولاية بالرغم عن كدره الشديد من اخراج بيروت عن حكمه وبدلاً من ان يقيم الاعتراض على الجزار ويناقشه الحساب ويرد له الكيل فيطردهُ عن صيدا ويريح لبنان منه ومن فساده ابدى شكره له وامتنانه من بقائهِ في منصبه

وانى لهُ مقاومة الجزار والتغلب عليه وامراء لبنان في ذلك الحين لاهون عن العموميات بالخصوصيات

وسيان عندهم عمرت البلاد او خربت . لذلك نلوم الامير يوسف على تقاعده

ونعذره في عدم اظهار مقاومته للجزار والسبب الذي يحملنا على ملامته هو ما اظهره من الجبانة في مقاومة خادمه واذا كان عذره عدم الالفة ومعاضدته من الرعية فوجوده حاكماً عليها يولد الالفة بين افرادها والمحبة في نصرته على العدو المازق — ونعذره لان الشعب كان لايفرق بين من حكمه في الامس ويحكمه في الغد لان الحكام كانوا يضربون على وتيرة واحدة وهي اذلال الشعب وتجسيم خسارته من يوم الى آخر

الفصل الرابع والعشرون

في الاستيلاء على عكا وقتل الشيخ ضاهر العمر

وبعد ان تربع الجزار في دست ايالة صيدا شرع في تنفيذ مآربه باهلها وكانت باكورة اعماله قرض سلطة المشايخ الداخلية وقد حدثته نفسه بالاستيلاء على عكا وقرض سلطة مشايخها آل ضاهر العمر

وكان صاحب الوجاهة والحكم على عكا له النفوذ عند الدولة لمناعة حصون المدينة وما نالته من الشهرة في حروبها القديمة . وحاكم عكا على الاطلاق وخصوصاً من وقعت على ايامه هذه الحوادث الشيخ ضاهر العمر كان له السلطة في عزل والي صيدا وتعيين سواه محله متى شاء فتنبه له الجزار واخذ يقدح فكرته في ايجاد واسطة يتوصل بها الى الفتك به والاستيلاء على منصبه

ولما كان الشيخ ضاهر ذا ثروة طائلة كان من السهل على الجزار ان يوقع به و يعلق مطامع الدولة في ماله الكثير فتبدده واذا رفض طلبها تبطش به . ولما حسن لديه هذا الرأي بعث الى الدولة فاخبرها عن تصرفات الشيخ وعظمته الفائقة وثروته الفادحة وفي الوقت ذاته اخلص له زمرة من الرجال وارسلهم الى عكا وسعي لهم لدى الشيخ ان يدخلهم في خدمته فاجاب الشيخ طلبه غافلاً عن غدر الجزار وما خبأت له الاقدار . فادخلهم حصن عكا واوكل بهم معدات الدفاع في وقت النزال

وماحسبه الجزار حدث تماماً فالدولة بعثت عمارة للتطواف وزيارة المدن الساحلية بقيادة حسن باشا وكانت اول مدينة رست العمارة في ميناها عكا فعرض حسن باشا للشيخ ضاهر العمر طلب الدولة وقدره نحو ستمائة الف غرش فرفض الشيخ الطلب

حيث داخله ريب في صدقه وكان الشيخ يعتمد على المعلم ابراهيم الصباغ فاستحضره وعرض له المعضلة فاشار عليه بعدم الدفع ولكن بعض مستشاري الشيخ خالفوا رأي المعلم ابراهيم واوجبوا على الشيخ تقديم الطلب للدولة من الخزينة وجمعه من الشعب بعد حين فقال المعلم مسكين الشعب يكفيه ماهو عليه من الفقر والمذلة . ثم قال ان الدولة طلبت الآن هذه القيمة فاذا قدمتها لها زادتك مثلها وطمعت بك ونظل تجدد الطلب الى ان تثق بفراغ يدك وعند ذاك ترغمك على ترك منصب الولاية وهناك البلية

وفضلاً عن ذلك كله انت تعلم ضعفها وعجزها عن مقاومة عكا فالافضل لك ان ترفض طلبها الجائر ولا تطمعها بمال رعيتك وان تحرشت بك فاسوار عكا تهزأ بمراكبها وقوتها

فارتأى الشيخ رأي الصباغ ورفض اجابة الدولة على طلبها وعده جائرًا

فعاد حسن باشا الى عمارته فانزل جيوشه وشرع يواصل قلعة عكا نارًا حامية ونهض الشيخ ليقابل القوة بالقوة و يصلي العمارة نارًا من مدافع القلعة المشهورة لكنه حظي بالفشل والحقارة من رجاله الذين هم صنيعة الجزار وسخروا به ولم يحفلوا بامره بل عطلوا المدافع وانضموا الى عسكر حسن باشا ولما نظر الشيخ ما وصل اليه امره مع رجاله وماحل بقاعدة دولته فر من عكا نجاة لنفسه لكن رجال الاتراك لحقوا به وقتلوه خارج السور ودفنوه هناك و بموته انتهت دولة مشايخ الزيادنة في عكا بعد ان حكموها اعواماً طوالاً ولما انتشر مقتل الشيخ في المدينة هان على حسن باشا الدخول اليها بجنوده وقد تم له فتح عكا في سنة ١٧٨٠ . و بعد المعركة قبض حسن باشا على اولاد الشيخ وابراهيم الصباغ وقبض اموالهم واملاكهم واطلق لرجاله التصرف في نهب المدينة فنهبوها . وفي عودة حسن باشا الى الاستانة اصطحب اسراه واموالهم بعد ان تصرف باملاكهم و بلغت ثروة الشيخ ضاهر التي دخلت خزينة السلطنة فقط ثلاثة وثمانين الف كيس فضلاً عن بعض امتعة ثمينة وكان نصيب اولاد الشيخ السجن . اما الصباغ فاطلق سراحه بعد اشهر مرت على وصوله . وقيل في سبب عفو الدولة عنه انه وصف دواء لعقيلة السلطان التي كانت مريضة وعجز الاطباء عن معرفة مرضها انما العلاج الذي وصفه لها الصباغ كان العامل الوحيد على ابلالها فكان جزاءه اخراجه من السجن ومنحه حريته فسعى جهده ليخرج اولاد الشيخ من السجن و يرجع بهم الى عكا فلم يفلح . وقبل ان ينوي على الرجوع دعاه حسن باشا الى وليمة اعدها على ظهر العمارة ولم يبلغ المسكين ظهر السفينة

حتى امر حسن باشا بشنقه فذهب الصباغ وذهبت امواله الوافرة

ونال الجزار بعد رجوع حسن باشا الى الاستانة انتقال مركز ولايته اليها وفي ذلك اضافها على ما اضافه الى ولايته قبلاً بيروت فامتدت سطوته واصبح نفوذه يخترق هضاب سوريا ولبنان

الفصل الخامس والعشرون

في مطامع الجزار

لما تربع الجزار في كرمي عكا شرع في ترميم حصونها وادخار المؤونة الحربية وقد تحدث في انتقاله الى عكا فانتحل لنفسه عذراً وذلك انهُ لما كان للشيخ ضاهر العمر واولاده احزاب يخشى من وجودها على الراحة العمومية اقتضت الحاجة خروجه اليها بنفسه لاخضاع تلك الاحزاب ولذلك اضطر الى نقل مركز الولاية . ولكن كثيرين كانوا على المعرفة الاكيدة من قصد الجزار من هذا الانتقال . وكان الجزار يستعد لانشاء دولة مستقلة عن دول الارض قاطبة . فرأى في حصون عكا عوناً كبيراً لتتميم مطامعه ولذلك كان يكثر عنده من رجال البشناق وطنه الاول والاكراد العتاة وقرب اليه المشايخ ليعضدوه في اعداد دولته العتيدة وكان بين المشايخ اقوام الشيخ طه الذي اشتهر بظلمه وجوره

الفصل السادس والعشرون

في ايقاد الفتنة بين مشايخ صعب وامراء لبنان

وبعد ان تمكن الجزار من عكا واخضع البلاد التي كانت تتولاها مشايخ الزيادنة وصفدنواحيها اضرم الفتنة بين الامير يوسف الشهابي وبين مشايخ صعب حكام بلاد بشاره والشقيف وقصده من ذلك اضعاف الفريقين ليستولي على بلادهما غنيمة باردة ويذل اهلها في الحروب الاهلية بدون ان ينفق عليها مالاً او رجالاً وكان يخشى اتحادهما عليه اذا تظاهر بعداوة فريق منهما

فاصبحت الحرب سجالاً بين الفريقين وطال امد اشتعالها حتى اسفرت عن انتصار اللبنانيين وفشل مشايخ آل صعب وعجزوا عن حفظ استقلالهم

الفصل السابع والعشرون

في خروج الجزار على آل صعب

ولما رأى الجزار فشل آل صعب الشيعيين انتهز الفرصة لاعمال سيفه في رقابهم فخرج عليهم بعسكره المؤلف من الاكراد والاتراك واعمل بهم السيف واستباح اعراضهم ونهب اموالهم بعد قتل عميدهم الشيخ ناصيف الضاهر وبدد رجاله وتضعضعت بقية المشايخ وفروا من امامه لا يلوون على شيء . فكان ذلك يوماً شديد الهول على الشيعيين المتاولة اشياع صهر النبي علي بن ابي طالب امام المسلمين العظيم . ولا بدع فهتك حرمة العرض واغتصاب العذارى من شيم اللئام واذا كانوا استحلوا هذه الاعمال الوحشية في اقرب الناس اليهم مذهباً فكيف يكون شأنهم مع قوم يختلفون عنهم مذهباً

الفصل الثامن والعشرون

في توجيه ابراهيم مشاقة حاكماً على بلاد بشاره والشقيف

ولما وضعت الحرب اوزارها واصبحت بلاد بشارة والشقيف تابعة لولاية الجزار مقيدة باوامره وارادته استحضر اليه ابراهيم مشاقة جد جامع حوادث كتابنا ووكل اليه ادارة الحكم على تلك المقاطعة مع معاون له من المسلمين . وكان ابراهيم على جانب عظيم من الذكاء صاحب ادارة وفضل وكان يتعاطى قبلاً تجارة التبغ مع اهل بلاد بشاره . لذلك رأى الجزار انهُ قد اصاب الغرض بتوليه عليها لانهُ الرجل الذي يريده لعظم ثقته به ولما عرفه عنه من الشيعيين سكان البلاد

فتوجه مشاقة الى ولايته وجعل مركزه في قلعة مارون وقد احسن الادارة وعامل الرعية بالقسط والعدل ونال ثقة الاهالي فضلاً عن ثقة الجزار وظل في منصبه الى آخر ايام حياته مكرماً ومعزز الخاطر . ومن اعماله المأثورة انه كان في اثناء تجوله في ولايته

يرى بعض العيال من النصارى مهضومة الحقوق ومحرومة من تأدية فروضها الدينية فكان يساء ا على نيل حقوقها المدنية والدينية وبنى للروم الكاثوليك كنيسة واحضر لها كاهناً

وهكذا كان شأنه مع بقية الطوائف والمذاهب وظلت فئة من المشايخ حاقدة على الجزار ومن لف لفه فكانت تعيث في البلاد فساداً وتسلب الامنية بالرغم عما احرز ابراهيم من الثقة في استقامته وانصافه . وكان الجزار يقتفي آثارهم ويفتك بمن لحق به وادركه حيًّا منهم . واتفق لابراهيم مشاقة وهو في زيارة الجزارانهُ شاهد في محل الاعدام خارج سور عكا مشهداً تصطك لهُ الركاب رأى ما ينيف على اربعين شخصاً من سكان ولايته مسافين للاعدام قصاصاً لما كانوا يقدمون عليه من سلب الراحة وفقد الامنية كما تقدم ولم يكد يبلغ المحلة الاّ وشاهد ستة وثلاثين منهم كان قد قضي عليهم واربعة منهم لا يزالون في انتظار فراغ المحل . وطريقة الاعدام في ايام الجزار متنوعة واغلبها على الخازوق فكانوا يجلسون المجرم على الخازوق جلوساً عادياً • او يلقونهُ على بطنه او جنبه وتدخل حربة الخازوق في جسمه من جانب وتخرج من الجانب الآخر . فتوسط ابراهيم للاربعة لدى رجال التنفيذ ريثما يقابل اميره الجزار بشأنهم وقد حصل على وعدهم في ان يوجلوا تنفيذ الحكم بهم ريثما يعود اليهم اما بالعفو عنهم او في بقاء الحكم على اعدامهم . . . ولما كان لابراهيم المنزلة الرفيعة عند الجزار وسمعه يخاطبه بشأن المجرمين عفى عنهم وسلمهم اليه فوعده ابراهيم بتقديم فدية عنهم فضلاً عن تعهده بان لا يعودوا الى اعمالهم السابقة . ولما درى الرجال بالعفو عنهم وبمن كان السبب في بقائهم احياء بعد ان شارفوا الموت تقدموا الى ابراهيم وقالوا له نحن الآن طوع بنانك . فطلب منهم الذهاب الى بيوتهم والاخلاد الى السكينة والسلام . فأبوا ان يتركوه وقالوا له لا نفارقك ايام حياتنا فقد اشتريت لنا الحياة بنفوذك ومالك فاصبحنا عبيداً لك ونريد ان نخدمك بارواحنا لانها منك وقد كنا من المعدمين كرفاقنا الذين ماتوا اشنع الميتات وافتديتنا دعنا نقيم على ابوابك الى ما شاء الله

فقبل دعوتهم وارجعهم معه الى ولايته . ومأثرة كهذه تشهر فاعلها اين كان ومهما كانت منزلته في قومه ولا مشاحة انها جعلت اسم مشاقة اشهر من نار على علم واجمعت قلوب رعيته على محبته والافتخار بشهامته وكان الاربعة المذكورون اصدق خدمته واكثرهم نشاطاً واخلصهم على مصالح فاديهم

الفصل التاسع والعشرون

في المؤامرة على قتل ابراهيم مشاقة

ولما كانت المتاولة اهالي بلاد بشاره والشقيف خاضعة للجزار خضوع المغلوب لبثت تترقب الفرص لارجاع استقلالها واعادة الحكم لرجالها فتفرد منهم عصابة وقر رأيهم على الغدر بالجزار وقتله وقتل ابراهيم مشاقة وطرد جنود الجزار من بلادهم

وفي ثاني الايام دخلوا على ابراهيم مشاقة وطلبوا مواجهته وبينما كان يخاطبهم بلطفه المعهود وثب عليه احدهم مشهرًا بيده خنجرًا يريد زرعه في صدره ولو لم يرم بنفسه رجل (وهو احد الاربعة المار ذكرهم) امام سيده ابراهيم ويتلقى بصدره الطعنة لكان قضي على مشاقة كما قضي على رجال الشهم الذي لفظ روحه بعد دقائق قليلة وقبل ان يلفظ تلك النفس الشريفة من صدره قال لسيده ابراهيم انني اشكر الصدفة التي ساعدتني على مكافئتك

وعند ذلك هجمت رجال مشاقة على العصابة وبددت قوامهم وفتكت ببعضهم وكان ابراهيم شجاعًا فابلى بهم بلاء حسنًا

وبعد هذه الحادثة بلغ مسامع ابراهيم عن ثقة ان المنهزمين سوف يعيدون عليه الكرة بعدد اوفر ولما لم يكن لديه حامية كافية طلب نجاتهم بجمع حاشيته وقام بها الى عكا حيث قص على الجزار ماحدث له وكيف جماعته لا يقل عددها عن الالف لحقت بهم ولما لم يظفروا بوطرهم نهبوا ما وجدوه في بيته وطلب منه ان يعفيه من الوظيفة

الفصل الثلاثون

في توجيه ابراهيم مشاقة حاكماً على بلاد بشاره والشقيف ثانية

ولم يكن ماسمعه الجزار من ابراهيم مشاقة بالامر السهل عليه فقام وقعد له وبالحال امر بتجهيز عسكر لاخضاع العصابات ولم يقبل طلب مشاقة من حيث اعفاؤه من الوظيفة بل طلب منه ان يعود الى تلك البلاد مع الحملة

وقامت الجنود ومعها قام ابراهيم مشاقة الى ولايته ليفتك بالعصابات ويرغمهم الى المسالمة وقد التقت الجنود بالعصابات على حدود البلاد المذكورة ودارت رحى الحرب بينهم

وبعد قتال شديد انجلت المعركة عن ثلثمائة قتيل من المتاولة وعدد وافر من الاسرى وانهزامهم · اما الاسرى فسيقوا الى عكا حيث جرى اعدامهم على الخازوق في حال وصولهم · وظلت الجنود تطاردهم وتتوغل في النهب والسلب الى ان اخلد المتاولة الى السكينة ودفع غرامة الحرب

ثم نشر الجزار امره بينهم وهو ان كل من اشتبه او سطا على ابناء السبيل واخلّ براحة البلاد وسكانها فصاصه الخازوق

وهذه الثوره كانت الاخيرة فاخلدوا للطاعة رغماً عن انوفهم

الفصل الحادي والثلاثون

في عزل امير لبنان

وبعد ان اذل الجزار الزيادنة والصعبيين وأمن على نفسه منهم عمد الى الاستيلاء على لبنان والضغط على سكانه

وكانت باكورة اعماله سلخ بيروت عن حكومة الجبل كما تقدم في حينه اما الآن فبعث يسأل الامير يوسف (سيده سابقاً) اجابته على مطاليب مستحيلة وارفق طلبه عدم قبوله عذرًا عن تاخيره وما ذلك الا ليجبره على شق عصا الطاعة ليكون له العذر في الهجوم عليه والتنكيل بمن صده

وفضلاً عن جسامة طلبه المالي سال الامير ان يرفع يده عن اقاليم الخروب والتفاح وجزين ·وكان من الامير يوسف انه اجاب مطالب الجزار وامتثل لاوامره الصارمة · وكان من الجزار تكرار مطالبه حيناً بعد الآخر حتى ابلغ الامير عجزه عن القيام بها واضطره الى الجلاء عن دير القمر مع حاشيته فقام الامير مع افراد عائلته و بعض اتباعه من دير القمر وتوغل في بعض قرى لبنان الداخلية خوفاً من بطش الجزار ولم يتخذ له مركزًا معروفًا فكان ينتقل من درروورت ومجدل معوش الى عبية وشحلال حتى لا يهتدي على محل اقامته جواسيس الجزار وكان الامير يوسف ظالماً عاتياً فظ الطباع كثير السيئة في اقرب الناس اليه وقد حدث له فقتل اخيه الامير افندي وسمل بصر اخيه السيد احمد والد الامير بن سليمان وفارس المتوفيان بقربة الحدث من عهد قصير وفتك

باحواله الامراء اسماعيل و بشير خوفاً من مزاحمتهما له في السيادة . واذا كانت اعماله تركت هذه الآثار في اهله فكم تكن تصرفاته البربرية في افراد رعيته

وكان عند الامير يوسف فتى شجاع وهو نسيبه الامير بشير الكبير بن الامير قاسم بن الامير عمر بن الامير حيدر الجد الجامع لعائلة الامراء الشهابيين وهذا من امراء حاصبيا ابن الامير موسى الذي حفر اسمه على جسر نهر حاصبيا ونسبه يلتقي بنسب الشهابيين في لبنان ونسب الامير سعد الدين امير حاصبيا الذي قتل في حادثة الستين

وهذا الامير تزوج بارملة الامير بشير خال الامير يوسف الذي غدر به الامير يوسف بعد استحضاره من ولاية حاصبيا ففي ذهاب الامير الفتى الى تلك الولاية وضبط متروكات خاله رأى ارملة المغدور به فاحبها وتزوج بها وكان لها اولاد من زوجها الاول الامير نسيم والاميرة خدوج

والارملة هي الامير شمس المدبد شقيقة الامير قعدان قاطن عبية وكانوا يتزوجون من بعضهم لا العقائد المذهبية ولا لحمة القرابة تمنعهم

وقد ولدت له ثلاثة اولاد الامراء امين وخليل وقاسم . ولما كان الامير بشير الكبير شب في بيت الامير يوسف نال ثقته واصبح من الذين يعتمد عليهم في كل شؤونه

الفصل الثاني الثلاثون

في تعيين الامير بشير الكبير حاكما على لبنان ونفي الامير يوسف

و بعد ان فرّ الامير يوسف برجاله من وجه الجزار كما تقدم فاوض الامير الفتى (الذي عرفنا ثقة الامير يوسف به من الفصل السابق وكيف كان معروفاً بالامير بشير الكبير) في الذهاب الى عكاومقابلة الجزار وكان قصد الامير يوسف ان يجعل الامير بشير الكبير حاكما على الجبل حيث يأمن جانبه و يوثق به اكثر من سواه

فرفض الامير بشير الذهاب ومقابلة الجزار في بادىء الامر وقال للامير يوسف : اخشى من الجزار ان يحملني على قتالك ولكن الامير الح عليه حتى اقنعه بالذهاب وتقديم واجب الطاعة للجزار مع الجزية بعد ان اشترط عليه اذا جعله الجزار حاكماً على لبنان وامره بمقاتلته وطرده من البلاد يركن الى الفرار وقد صمم ان يجعل بين رجاله ورجال الامير يوسف فسحة تمكنه ابلاغه في قدومه اليه وتمكن الامير يوسف من القيام في

وجهه . كل ذلك حتى لا يجعل هذا الامير الشهم سبيلاً الى رجال الجزار من الفتك باهل لبنان فقبل الامير يوسف هذا الشرط وقبل الامير بشير الكبير اذ ذاك القيام الى عكا فقام واصحب معه عددًا من وجوه القوم مثل ابراهيم الطرابلسي و يوسف عزيز وسواهما من البواسل



الامير بشير الشهابي الكبير

وفي طريقه مرَّ بصور ونزل ضيفاً كريماً على ابراهيم مشاقة الذي اكرم وفادته وانزله على الرحب والسعة ومن ذلك التاريخ اصبح ابراهيم مشاقة من المقربين الى الامير بشير وفي ثاني الايام قام الامير الى عكا فارفق ابراهيم مشاقة رجل ثقة مع الامير وحمله توصية الى الشيخ طاها كاتم اسرار الجزار و مستشارة واخرى الى اولاد السكروج اصحاب النفوذ عند الجزار وحضهم على مساعدة الامير . ولما وصل الامير الى عكا وقابل الجزار حصل على الاكرام اللائق وفي الحال عينه الجزار حاكماً على لبنان والبسه خلعة الولاية بعد ان استوثق منه على العهود النظامية وكان ذلك سنة ١٧٨٥

الفصل الثالث والثلاثون

في رجوع الامير بشير الى دير القمر وغدر الامير يوسف به

و بعد ان وجه الجزار ولاية لبنان الى الامير بشير الكبير امره على قيادة الحملة في

مقاتلة الامير يوسف واخراجه من لبنان · ولما الحملة اعدت استلم الامير بشير قيادتها وعاد بها الى دير القمر · وهنا لا بد لنا من ارسال كلمة نذكر بهـا القارىء ان الامير يوسف هو الذي احتفل بالجزار وادخله بخدمته وولاه على حكومة بيروت وخاطبه مخاطبة الصديق ووثق به وسعى في ترقيته

ولما وصل الامير بشير الى صور بعث امامه اعلام تعيينه الى الجبـل وانبأ الامير يوسف بالحملة التي يقودها للتنكيل بهِ وطلب منهُ ان يبر بوعده ويقوم من الجبـل ولا يفتح سبيلاً لحـدوث الفتن واهراق الدماء وافاده انهُ مأمور باخراجه وسوف يقوم من صور الى دير القمر بعد يومين من تاريخ الرسالة

وفي ثاني الايام عرج الامير فنزل صيدا ومنها قام الى دير القمر فلاقاه وفد من اعيان لبنان وهنأوه بعودته ظافرًا واخبره بعضهم عن قيام الامير يوسف عن طريق المتن

واخر الامير وصوله الى الدير يومًا اخرًا ليجعل للامير يوسف فرصـة وافية للفرار من وجه جنوده · و بعد وصوله لمركز الولاية بايام نهض الى مطاردة الامير يوسف الذي ظنهُ اعقل من ان يجعل سـببًا لسفك الدماء ولم يدر في خلده غير اعتقاده الشريف بقيام الامير بوعده شأن الحر المستقيم

اما الامير يوسف كان يضمر شرًا و ينوي فسادًا فقد وطد رأيه جماعة التفوا حوله وحسنوا لهُ الايقاع بالامير بشير غدرًا وتبديد رجاله فورًا فكمن مع عصابة لحملة الجزار في مضيق و بات يترقب قدوم فريسته اليه ليقبض عليها و يريح البلاد شرها من ولم يعلم انه اضاع الفرصة حين كان له ان يفتك بذلك البشناقي و يريح نفسه ووطنه منه وفضل الشخصيات على العموميات واشغل نفسه عنه بقتل اخونه واخواله وادلال اتباعه المخلصين وانى له الآن ان يقهر الجزار بعد ان امتدت شوكته وملك حصن عكا واصبح امنع من عقاب الجو

فلو لم يشهر العداوة لمشايخ آل صعب المتاولة بل سالمهم واتفق معهم وقتئذ على مقاتلة الجزار وطرده من الوطن واعفاء بنيه من ظلمه لو فعل ذلك لكان بالامكان ترجيح نصره اما الآن فيعد عمله تحرشًا وطيشًا

و بينما الامير بشير مع رجاله يعبرون مضيق كان قد كمن فيه الامير يوسف ورجاله اخذته الحيرة بغتة حيث رأى على حين فجأة الامير يوسف شاهرًا بوجهه الحسام ووراءه عصابة فتبين له اخلاف الامير وعده

وفي الحال امر رجاله بالهجوم عليهم وكان هو اول الهاجمين لانه اتصف بالشجاعة وكان قائداً محنكاً وخبيراً بفنون الحرب والشاهد انه في حروبه الكثيرة كان النصر دائماً رائده وبعد ساعات قليلة انجلت المعركة عن انهزام الامير يوسف وقتل عدد من رجاله

وظل الامير بشير يطارده الى ان اخرجه من حدود لبنان او بالاحرى ولايته التي امره الجزار عليها . واذ ذاك عاد عنه الى دير القمر وفي حال وصوله ارسل فاخبر الجزار بما جرى له مع الامير يوسف من الوقائع وكيف انه تغلب عليه فيها وابعده عن حدود لبنان حسب ارادته وتعليماته

فسرَّ الجزار من اخبار الامير بشير وما ناله على يده من المال الكثير الذي اضافه الى الخزينة

الفصل الرابع والثلاثون

في شنق الامير يوسف وعدد من اتباعه

وبعد خروج الامير يوسف من حدود لبنان ظلت امانيه تحدثه بالعودة اليه والتمتع بالسلطة عليه . وكان الشيخ غندور مستشاره يحيي مطامعه فقال له اذهب بنا الى الجزار وذكره بالايام التي صرفها بخدمتك وكيف كنت السبب في ترقيته الى آخر ما هنالك فلا شك انه يندم على معاملته اياك هذه المعاملة ويرجعك الى مركزك الاول فجاء كلام الشيخ مطابقاً لاماني الامير فعمل به فقصد عكا ومعه الشيخ وبعض اتباعه ولما دخل على واليها هش له الرجل بما عنده من المكر واحتفل باستقباله ومن معه وعين لهم محلاً فخيماً ولكن لم تطل اقامة الامير والشيخ في ذلك المحل طويلاً فامر الجزار بسجنهما مع المجرمين وكبلهما بالقيود والسلاسل القوية وكان عمل الجزار مع الامير محدث نعمته كاقراره بالفضل لصاحب الفضل عليه ولكن متى كان مثل هذا شهماً وقادراً حليماً وكان مع الامير ابراهيم غفار سجنه الجزار مع جملة اتباع الامير ورفض اطلاق سراحه ما لم يدفع الفدية عن نفسه مع ان ولده خليل غفار كان في ذلك الحين مستخدماً عند الجزار في تكنة الذخائر الحربية

وصدف في تلك الاثناء ان ثار على الجزار اهالي صفد وتوابعها وامتنعوا عليه فخرج اليهم بنفسه واصلاهم حرباً طاحنة وحاصرهم مدة بالقرب من قلعة واخيراً لما طال عليه الامد ولم ينل منها مأرباً الغم القلعة وكان من انفجار اللغم خسارة فادحة عليه وعلى

رجاله ولم يلحق بالقنعة ضررًا يذكر فظهر على الجزار الحيرة ولو لم تدركه النجدة وراء النجدة لادركه الفشل ولما رجع خليل غفار الى عكا كتب الى والده في السجن عن الواقعة وبشره بفشل الجزار وقرب انحلال دولته واراحه البلاد من جوره وظلمه

فتوصل الجزار الى الرسالة وعرف مضمونها فاوجس بالامير يوسف واتباعه ان يكون لهم يد بثورة صفد عليه فامر بشنق الامير والشيخ غندور وابراهيم غفار وولده خليل وتعلقت للحال المشنقة وسيق المجرمون في اعتقاد الجزار وهم ابرياء من السجن حيث صار تعليقهم فذهبوا ضحية الوهم

الفصل الخامس والثلاثون

في نكبة موسى رزق

وفي رجوع الجزار عن صفد منتصرًا وتنكيله بحدث نعمته طيشًا بدأ من ذلك الحين يعاقر الخمرة كأنه اراد ان يخدر خلايا ذا كرته ويتناسى عمله الفظيع امام الله والهيئة وكان ضعيف الاسلام متهمًا به فسخط عليه المسلمون سرًا

ومن غريب حسناته انه كان يعامل الرعية على السواء وظلمه ينال الكبير والصغير بالقسط فكان يسجن علماء ومشايخ المسلمين وكهنة الذميين وعقال الدروز وحاخام اليهود ولا يفرق عنده اختلاف مذهبهم وكان يعذبهم العذابات البربرية بلا ذنب ولا جرم كأنه يريد التمرين على عوائده الجائرة وتشغيل رجال التنفيذ عند ما يرام لاعمل لديهم ... لذلك كان في اغلب الاحيان يخترع من عنده الذنوب ويلقيها على من يعثر به اولاً . وكان يقيم بين الرعية جواسيس يتنسمون له الاخبار ولغط القوم عليه وكان الجاسوس يأتيه بالاخبار التي يشاء واذا عثر على مثري كان له بوجوده بشرى امام سيده . وكان الجزار يرسل يستحضر المشبوه بماله ويسأله كمية وافرة فاذا ابدى مماطلة او تردد في اجابة الطلب كان ذلك من اجل مقاصده فيأمر للحال بتعذيبه او شنقه

وقد بلغ الجزار خبرًا عن موسى رزق انه وقف على كنز من المال في حقله وهو يحرثه وانه مصر على عدم اعلام احد عن محله وقيل له ربما يكون لابراهيم مشاقة شركة معه ويعلم مقر الوديعة فاستحضر الرجل وهو من رعية ابراهيم مشاقة اليه ووعده ان يجزل له العطاء وينعم عليه بوظيفة اذا دله على محل المال — ولما رآه مصرًا على الكتمان امر

بتعذيبه فطال عذابه اياماً الى ان دخلت اليه عقيلته بامر الجزار ربما يخاص لها ويرشدها عن محل الكنز . وفي الوقت ذاته بعث معها جواسيس يلتقطون كلام الرجل وزوجته ومن حسن الطالع عادت الجواسيس واخبرت الجزار بما سمعته من الرجل يحدث امرأته ومن بعض ما نقلوه اليه ان المال وفرته لا توصف وان لا شريك له به ولا احد يعلم بوجوده لا ابراهيم مشاقة ولا احد من الناس سواه وانه لن يعلم الجزار به لانه يتمكن ان يناطح الدولة وتزداد شروره ويعم فسقه . ولما سمع الجزار ما قاله موسى رزق لزوجته تأكد براءة ابراهيم مشاقة وعمل على ايجاد المال فامر بتعذيبه مع حفظه حيا ولكن شفقة رجاله الاكراد ابت ان تخفف من الرحمة في صدرها . فقضى الرجل وهو بين يدها يتألم من الاوجاع ألوانًا بدون ان يهدي على مطمورة الذهب احدًا

الفصل السادس والثلاثون

في المائتين والثلاثين

ومن اعمال الجزار البالغة حد القساوة والظلم انه في ذات يوم امر بتحضير ارباب الحرف والصنائع اليه وكان تنفيذ هذا الامر سهلاً على من تعود الشنق ومشاهدة سفك الدماء فحضر اليه التاجر والفاعل والاسكاف والنجار وكل صاحب حرفة من المدينة وامر ان يدخلوا عليه فردًا فردًا وكان الداخل اليه يكشف عن رأسه ويتقدم من الجزار ليتوضح جليا في تكييف جمجمته وكان يطلق سراح البعض ويبقي على البعض الآخر وكان عدد الباقي عنده مائتين وثلاثين رجلاً على اختلاف نحلهم وحرفهم وعرفنا منهم روفايل قنواتي ومخايل الباشا

وفي موخر النهار امر بذبحهم ظهرياً عن شاطىء البحر وابقائهم طعاماً للوحوش الى ثاني الايام فيدفن فضلات الوحش فساقتهم رجاله الزبانية الى النقطة المعينة وبدات بذبح القطيع دفعة واحدة فما هو ذنب القطيع حتى استحق الذبح او ما هو جرمه لا احد يتعلم غير الجزار نفسه وقد يمكن انه هو لا يعلم ايضاً فتامل في شهداء الظلم والاستبداد وفي حكام تلك الايام كيف كانت تختلق الاعذار في تجريم الرعية ولا تحترم لها وجودًا ولا تريها انصافًا

الفصل السابع والثلاثون

في نجاة مخائيل الباشا عن يد مسلم

اتفق ان رجلاً مسلماً من اهل التقوى والشهامة اتى عكا لقضاء بعض الحاجات ورام الدخول اليها فوجد البوابة مقفلة وتخبل ان ينتظر بينما تعود الرجال من المجزرة وقد قص عليه خبرها وكيف ان الجزار امر الزبانية بذبح مائتين وثلاثين رجلاً ظلماً فتمرمر القروي من صدى الخبر وظل واقفاً الى ان رجع الجزارون عن القطيع وقد حدثته نفسه ان يمر بمحل المذبحة ولما فعل ذلك رأى بين المذبوحين رجلاً لم يزل يتحرك فاقترب منه وفي نيته اغاثته . لكن الجريح لما شعر بوطء اقدام اليه اخلد الى السكينة فنادى به القروي على مافي صدره من العواطف الايسة اني نظرتك ايها التعيس تتحرك فاقدمت لاسعافك لوجه الله فثق بي ولا تخشني ساعدني على الهداية اليك

فاجابه المذبوح بصوت متقطع نعم اني حي ولم امت بعد

فترجل القروي عن جواده وتفحص الجريح فرأى ان جرحه لا ينذر بالخطر لان الضربة كانت لحسن حظه خفيفة فلم تقطع شرايين الرقبة واوردتها فضمد له الجرح على قدر معرفته وانهضه الى ظهر جواده وسار به الى بيته وظل يستحضر له الادوية مراً الى ان عادت الى ذلك المذبوح مخايل الباشا حياته واستجوز على جانب عظيم من العافية فشكر القروي على معروفه وقام الى دمشق هرباً من الجزار فودعه القروي وساعده على القيام من مال ومتاع

الفصل الثامن والثلاثون

في قطرة من بحر فظائع الجزار

ومن افعال الجزار الذميمة المستقبحة وجوره في الرعايا التي ارسلته الدولة للذب عن حياضها ودفع المكروه عن ديارها وتأمينها على مالها وحياتها من عدو مداهم ونشر بها عوائد التمدن التركي — فبدلاً من ذلك كانت اعماله تناقض النظام وتختلف عن نصوصه تمام المخالفة

ففي سنة ١٧٩٧ م · توجه اولاد عطية اخوة خليل عطية المهندس المشهور في دير القمر بتجارة الى وادي النيل فاقاموا هناك سنة قدم الفرنساويون في نهايتها الى مصر بقيادة بطلهم العظيم اعظم قواد العالم حنكة وشهرة في الحرب وهو نابليون الاول بونابرت الشهير وتولوا السيادة على تلك الاقطار وطردوا منها الامراء المماليك فلجأ هؤلاء الى الدولة التركية التي اشهرت على نابليون الحرب طمعاً في اعادة مصر الى حظيرتها فحاصرت الموانئ البحرية المصرية واصبح الداخل لا يقوى على الخروج منها بتلك الظروف · ومن جملة من وجد في داخلية مصر في اثناء الحصار اخوة عطية المار ذكره وكاهن ماروني من عائلة قبالة قادم من مدرسة رومية الى الجبل

وفي احدى الطرق سافر الاخوة مع الكاهن وسبعة وثلاثون نفساً من السور بين الى سوريا عن طريق صيدا لكن الرياح قذفتهم الى عكا فقبض عليهم الجزار بعد وصولهم ببضع دقائق وقيدهم بالقيود الحديدية وعاملهم بفظاظته ولؤمه المشهورين · ولما بلغ الخبر الى دير القمر ودرى آل عطية بما حدث للاخوة نهض منهم اشجعهم واتى عكا ليقابل اخويه و بينما هو يقدم الى اخوته في السجن بعض الطعام نظره الجزار فسأل عنه ولما قيل له انه اخ لولدي عطية المسجونين امر بسجنه معهما و يقال انه لما تكاثر عدد المحابيس وضاقت بهم سجون عكا على رحبها ولم يعد للسجان قيد لمن يدخل اليه بعدهم امر الجزار ان القطيع الذي قدم من مصر حديثاً و بينه اولاد عطية يساق الى الذبح وكان عدد من جاء من مصر اربعين كما تقدم وزاد الجزار على كلامه الاول انه امر السجان بعد ان يلقي جثث الاربعين في قاع البحر يأخذ القيود التي كانت مطوقة ارجلهم واذا كان ذلك العدد من القيود لا يكفي فليأخذ القطيع الثاني المؤلف من مائة رجل و يفتك بهم كالاولين و يداوم على ذلك حتى يصير لديه عدد كاف من القيود فقام السجان و تصرف بمهمته كما شاء وكان يعدم السجين القديم اذا احتاج الى قيده ليضعه على السجين الجديد

الفصل التاسع والثلاثون

في نكبة السكروجيين

ومن اعمال الجزار — وهل لاعماله حد — نكبته عائلة السكروج صاحبة النفوذ عنده

في اول مـدة ولايته وكان افرادها مستلمين خزينة الولاية وكان ابراهيم مشاقة صديقهم الحميم وكأن الجزار شعر بثقاهم لطول مدتهم عنده فاحب ان يستبدلهم بسواهم فاظهر الريبة بمال الخزينة وعين عليهم مالاً تعويضاً فدفعوه اقساطاً ولما دفعوا آخر قسط جدد الطلب وضرب على ذات الوتر وظل يحتلب مالهم حتى استنفده وابقاهم صفر اليدين ومع ان الجزار علم ان لا مال بقي عندهم عاود الطلب

فارسلوا يستشيرون ابراهيم مشاقة صديقهم المخلص فجاوبهم ان يتعهدوا بالدفع ولا يعرضوا ارواحهم الى التهلكة وقال لهم اذا لم يكن لديكم مال فانا ابذل اخر بارة في سبيل نجاتكم ولكن النفس الابية اذا مسها ضيم فضلت الموت على الذل وازدادت عتواً وتوغلاً في الاباء

لذلك رفضوا ان يعملوا بوصية مشاقة ورفضوا ان يتعهدوا للجزار بدفع ما هو فوق طاقتهم فامر الجزار في الحال كانه منتظر هذه الكلمة لذبحهم وقطع دابرهم وضبط محلاتهم واملاكهم وامر بتحضير اوراقهم ومن جملة الاوراق التي عثر عليها بين اوراق اولئك التعساء رسالة مشاقة لهم

فاضمر له السوء

الفصل الاربعون

في وفاة ابراهيم مشاقة

وكان لانتشار خبر ما حل بآل سكروج وقع عظيم في قلوب معارفهم والم شديد في عواطفهم ومن الذين اثرت بهم الحادثة تأثيراً بالغاً ابراهيم مشاقة لانه كان كما مر صديقهم الحميم فكان اسفه عليهم شديداً كره لاجله الحياة وعول على الاقالة وربما كان اضطرابه لم يبلغ شدته لانه لم يكن له دخل معهم فلما علم باطلاع الجزار على رسالته تأكد ان دوره اصبح على الابواب ومن كثرة مخاوفه والافتكار بقساوة الجزار اصابته حمى شديدة اعتزل لاجلها مركز اشغاله فقدم الى صور للمعالجة وكأن الحمى ودت ان تكون الغالبة والسابقة في قطف زهرة حياته فلم يمهله الجزار الا فرصة يسيرة فاقبل رجاله على بيت ابراهيم مشاقة ليبلغوه امر سيده في الحضور اليه ولما كانت انفاس ذلك الرجل الذي بذل حياته في الخدمة الصادقة تودع مقرها وداعاً ابدياً

ولما عادت الرجال بالخبر الى الجزار امرهم بالعودة واحضار اكبر انجاله فعادوا الى صور وقبضوا على ولده الاكبر وهو جرجس وجاؤا به امام الجزار ولدى مقابلته طلب منهُ مبلغاً وافرًا ولما لم يكن في طاقة جرجس تقديم الطلب امر بسجنه وتصرف بمتروكات والده من كلي وجزئي ولم يترك لولده ما يعول عليه في قوته اليومي وعند ذلك عفى عنهُ واطلق سراحه — فخرج جرجس مشاقة من السجن بعد ان قص الجزار جناحيه وهكذا كانت اعماله وتصرفاته مع من يدري ان لديه مالاً وافرًا وكانت الضربة على عائلة مشاقة شديدة حتى التجأت الى الاشتغال كعامة الناس لتحصيل قوتها وسد جوعها وكان سقوطها سنة ١٧٩٠

الفصل الحادي والاربعون

في مدير خزينة الجزار الجديد

وبعد ان فتك الجزار بمدير خزينته السكروجي وآلهِ والحق بهم هتك حرمة مشاقة وانكار خدماتهِ النبيلة شعر بالحاجة الى رجل يشتغل مكان مديره الاول فانتخب لهذا المركز المعلم حاييم فارحي وسلمهُ زمام شؤون الخزينة وكان حاييم على جانب عظيم من العلوم التاريخية التلمودية وكانت اعماله التي ظهرت في ايام خدمتهِ المركز الذي دعاه اليه الجزار شاهداً اقوياً على حسن ادارته وسداد رأيه ولكنه مع ما كان عليه من النباهة واصالة الراي لم يعفه الجزار من ويلاته وشروره وكان يسومه العذاب الوانًا ويريه الموت اشكالاً فكان يامر بسجنه اياماً ويرجعهُ الى وظيفته بعد سجنه وقد شنع سحنته فجدع انفه وقطع اذنهُ ويقال انهُ رأى قذى في عينه مرة فقلعها له وكان حاييم اشبه بآلة بيد الجزار بل اطوع من الآلة عنده واتفق للجزار انهُ تردد في ارسال الجباية الى الدولة وشرع ينتحل الاعذار لنفسه وبعد ان سئمت الدولة من مماطلته بعثت اليه كلامها الآتي :

«اما بعد ولما كنت عاجزًا عن اخضاع لبنان وظهر ضعفك الى هذا الحد رأت الدولة ان ترسل وزيرًا يخلفك في الولاية على تلك الربوع يكون فيه النشاط والقوى الكافية لضم تلك البقاع الى مملكتها»

وفي الحال كتب الجزار الى الدولة بعد ايام قليلة يبلغها اذلاله لامراء الجبل وجعله من ايالاتها

وبعد بضعة ايام الحق برسالته المتقدمة هذا البلاغ الى الدولة « انه اخضع لبنان وقهر رجاله البالغ عددهم من النصارى ماية وعشرين الفاً ومن الدروز ستين الفاً ومن الشيعة المتاولة ثلاثين الفاً ومن المسلمين ثلاثين الفاً ولم يطل على جواب الدولة حتى بعثت تطلب منه الجزية عن النصارى .

فاشكل عليهِ الامر وكان حاييم مسجوناً فصدر امره باطلاقه واحضاره اليه ولما امتثل امامه طلب الجزار رأيه

فقال لهُ حاييم بعد الروية الافضل ان تدفع جزية النصارى من مالك الخاص هذه السنة وفي السنة القادمة تبلغ الدولة ان نصارى الجبل اعتنقوا مذهب الاسلام فتسقط عنهم او بالاحرى يرفع عنك تقديم هذا المال

فاستصوب الجزار راي حاييم وعمل بموجبه

الفصل الثاني والاربعون

في ذهاب الجزار الى مكة

ففي سنة ١٧٩٥ عزم الجزار على الحج ليظهر تقواه لمشايخ الاسلام و يطلع على الرعية ورعه وايمانه ولم يكن لديه رخصة قانونية للذهاب الى كعبة الدين الاسلامي فالتمس من الدولة ان تخوله الذهاب فورد اليــه الاذن مع الفرمان في ضم ولاية الشام واميرية الحج اليه ليذهب بالمحفل الى مكة تقديرًا لاعماله واقرارًا بفضله عليهامن تدويخ البلاد وضمها الى مملكتها

وبعد اتمام معدات السفر نهض الجزار بمحفل الحج الى مكة مخلفاً وراءه قواد جنده واخصهم سليم باشا حرساً على حريمه ونائباً عنه في شؤون المدينــة مسئولاً عن ايجاد الامن بين الرعية فقام سليم باشا وهو قائد المماليك بوظيفته كما قام سواه حق القيام فاكثر من التردد الى مسكن الجزار وسمح لبعض رجاله في مشارفة الحريم والمخالطة معهن وقد اكثرت الاهالي من الطعن على حريم الجزار مع المماليك واحتقروهن

ولما عاد الجزار لحظ اموراً غريبة في حريمه فغظ عليهن واضمر لهن وللماليك شراً

الفصل الثالث والاربعون

في قتل الجزار حريمه

ظل الجزار بعد رجوعه من مكة اياماً يقدح فكرته في استنباط طريقة للايقاع بحريمه والتخلص منهن ولم يكن ما يغل يده عنهن غير خوفه من المماليك وحقد الجند عليه فتظاهر لسليم باشا قائد المماليك واسماعيل الكردي قائد الجند الكردي بالمودة وحسن لهما منازلة امراء لبنان وضمه الى ولايته والجندي الشجاع متى سمع بالحرب وقرب نشوبها يتهلل وجهه بعلائم الطرب و يعود وهمه الوحيد في دنياه اصلاء وطيسها وخوض عبابها — ذلك ماحدث للقائدين عند ماطرح عليهما الجزار رأيه في مهاجمة لبنان وللحال جهز لهما مؤونة الحرب وامرهما بالقيام فقاما برجالهما ووجهة الحملة لبنان

وكان مع الحملة ابراهيم القالوش من الذميين الكاثوليك ربيب المشايخ الزيادنة وكان شجاعاً كريماً . وله نفوذ حسن عند مماليك الجزار وكان قائد اربعمائة فارس

ولما بعدت الحملة عن عكا عوّل الجزار على انجاز وعده في قرض حريمه فامر خصيانه ان توقد ناراً كبيرة في صحن الدار وتأتيه بحريمه واحدة واحدة . وذكروا ان الخصي كان يسوق الى الجزار نسوته افراداً والجزار يقبض عليها من عنقها و يطرحها في النار على وجهها و يدوس على ظهرها و يضغط على رأسها حتى يتم شيها وتلفظ روحها فيأمر الخصي برفعها واحضار سواها . قالوا وعلى هذه الصورة الشنيعة اعدم الجزار سبعة وثلاثين امرأة ولم تنج واحدة من حريمه غير فتاة في الثامنة من عمرها

و بعد ان اتم الجزار مهمته في ابعاد المماليك و بقية من ظنه من العصابات وقرض حريمه تظاهر بالعداوة ومجازاة من امتهن حرمته فبلغ سليم باشا وهو في صيدا مقاصد الجزار واضمار الشر عليه وعلى من لف لفه وكيف انه افنى حريمه وشواهن احياء

فعظم الامر على سليم باشا واطلع رجاله على فحوى الخبر فقام الجند وقعد وجاهر بصوت واحد بمقاتلة الجزار وقطع دابره وابادة قوته وللحال امر سليم باشا بالعودة الى عكا وعادت الحملة عن لبنان لوجود الخلل في رأسها وفي جسمها فرامت اصلاح شؤونها قبل ان تباشر معالجة مريض لاتنوجع لمرضه

ولما وصل سليم باشا برجاله الى صور وجد ابواب المدينة مقفلة بوجهه فادرك خطارة موقفه وعلم ان الجزار اصبح خصمه

الفصل الرابع والاربعون
في فتح صور وارغام اهاليها

وكان من حاكم صور انهُ بلغه الامر من الجزار ان يقفل ابواب المدينة بوجه سليم باشا وبقية الحملة و يمنع عنهم المدد فصدع بموجب الامر ولما رأى بوادر الحملة مقبلة بعث الى سليم باشا رسولاً و بلغه اوامر الجزار اليه وعند ذلك هجم سليم باشا برجاله وفتح المدينــة عنوة وارغم حاكمها واهاليها على امدادهم من عليق ومال وزاد واغتصبوا امتعة ثمينة فرضوا على اصحابها مالاً لقاءها وقد لحقت الجنود امتعة لعائلة مشاقة هي بحدذاتها تافهة لكنها كانت عزيزة على تلك العائلة بعد ان اناخ الدهر بكلكلهِ عليها واصبحت بحالة محزنة يرثى لها

و بعد ان قضت الحملة وطرها من صور تقدمت الى عكا وقلبها يتدفق حقداً على الجزار وهي واثقة بالنصر لها والبطش به

الفصل الخامس والاربعون
في فشل سليم باشا

ليست هذه المرة الاولى التي رجع عن حصون عكا محاصرها بالفشل والخيبة وحفظت لمقامها الهيبة والصولة فكانت ولم تزل تسخر بالقوة التي تريد ان تنزع منها تلك السيادة وسليم باشا وان كان معظم الجند معه لما حاصرها ورام اذلالها وليس في حصون عكا رجال اكفاء فان الجزار تغلب عليه بدهائه وشتت رجاله ولولا ذلك لتم له النصر ونال مبتغاه من مجازاة سيده ولكن الجزار لما رأى رجاله قليلين واغلبهم لا يصلحون للنزال امتال اليــه قائد الاكراد اسمعيل الكردي ونال وعده ولما دارت رحي الحرب لحظ سليم باشا انفصال الاكراد عنه واعمال سيوفها برجاله فدارت الدائرة عليه وعلى عصابة ظلت على عهودها معهُ الى ان تضعضعت قواه وطلب لنفسه مع رجاله النجاة ومنهم

القالوش الذي اتى الى الحصن ونزل على اولاد موسى الحنا حكام تلك المقاطعة فامنوه على حياته واقام بينهم مكرماً الى ان شعرالجزار بوجوده فارسل يستحضره اليه ولما لم يكن له نفوذ ولاسلطة على الحصن تعذر عليه تنفيذ امره في حكامها كان الدولة لم تعلن رسمياً تعيينه على ولاية الشام بعد

الفصل السادس والاربعون

في اعدام ابراهيم القالوش وآله

ولما فشل الجزار وعاد امره مدحوراً باالخيبة بعث الى الاستانة وفداً في طلب تعيينه رسمياً على ايالة الشام وتوابعها وما ذلك الا ليرغم حاكم الحصن على تسليمه القالوش و يفهمه ان امره لايستخف به فرجع اليـه الوفد مصحوباً بالفرمان القانوني فعزل عنها واليها واستحضر من الحصن ابراهيم القالوش وفي هذه المرة لم يكن بدٌّ من تسليمه ولكن رجال الجزار لما وصلوا بالقالوش الى حماة اخبروه ان الجزار يعفي عنه اذا اعتنق الاسلام واذا اصر على الرفض ارسلوا رأسه اليه .. فرفض القالوش وآثر موته على دين اجداده مسيحيًا من الحياة في الذل فقطعوا رأسـه وعادوا به الى الجزاره اما اولاده ففروا الى عكار حيث التجأوا الى بكواتها وكان لابراهيم اخ في بلاد صفد امر الجزار بشنقه الحاقاً بجريرة اخيه الشهم

الفصل السابع والاربعون

في القبض على الامير بشير

وبعد ان فرغ الجزار من ثورة المماليك وجه مطامعه نحو لبنان فارسل الى الامير بشير يطلب منه مطالب مستحيلة وجائرة ليكره الامير على العصيان ويكون له عذر بارسال حملة عليـه وكان الامير يماطله وفي ذات يوم مرّ الامير بساحل بيروت ومعه عدد قليل من رجاله فوثب عليه رجال الجزار الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة والقوا القبض عليه وارسلوه مكبلاً الى عكا فامر الجزار بسجنه مع رجاله وعين في محله

رجلاً اقتبل ان يدفع مطاليبه الفادحة

وكان الجزار يفعل ذلك كله ليضطر رجال الجبل على الثورة فيجعل له سبيلاً الى المداخلة في اخمادها ونشر علمه فوق ربوعه كما كان شأنه في ولاية المشايخ الصعبية وغيرهم وما كانت غاية الجزار الا حشد الاموال لا خلاف عنده بطريقة جمعها قانونية كانت او ظلماً

كل ذلك كان يجري على امراء لبنان والشعب يستجير من تقلب الاحكام وتلاعب السياسة وهم لاهون عن الاتحاد بالخصام والشقاق مفضلين الشخصيات على العموميات والعداء الاهلي على الاتحاد وطرح نير الذل

فقبل الامير الجديد بمطاليب الجزار المالية وجمعها له من الشعب المسكين وارسلها الى خزينة عكا غنيمة باردة

وظل الامير في سجن عكا عشرين شهراً افرج في نهايتها عنه الجزار واعاده الى وظيفته السابقة بعد ان استوثق منه بالوعود حسب امياله وحتى يجعل الامير يصدق في وعده ابقى ولده قاسما عنده في عكا ريثما يرسل اليه والده تمام طلبه فقبل الامير بشروط الجزار ورضي ان يبقى ولده في عكا وقام الى دير القمر مركزه القديم

الفصل الثامن والاربعون

في تعيين الشيخ بشير جنبلاط حاكماً على اقاليم الشوف وجزين والخروب والتفاح

وبعد اياب الامير بشير الى دير القمر حاكما على لبنان كما كان سابقاً — خرج من سجن عكا الشيخ بشير جنبلاط الدرزي وصار تعيينه حاكما على اقاليم التفاح والخروب وتوابعها وكان الشيخ جنبلاط فاضلاً ذا وجاهة وثروة طائلة ومن اخص اصدقاء الامير بشير الذين يعتمد عليهم عند الشدة وقد ذاق عذاب السجن الجزاري كما ذاقه الامير في الوقت ذاته فقام الشيخ بما عهد اليه حق قيام

وفي هذه الاثناء بعثت الدولة تستحث الجزار على فتح لبنان وضمه الى ايالته ... ولما لم يكن للجزار سبيل للمداخلة في شؤون لبنان وقتئذٍ ويعلم مناعة لبنان وشجاعة رجاله وحصافة اميره لم يشأ التحرش به رأساً انما ارسل من قبله عصابة لالقاء بذور

الفتن بين مشايخ الدروز و بين الامير بشير

الفصل التاسع والاربعون

في اسقاط مساعي الجزار الفاسدة

وكان غرض الجزار من اشعال نار الفتنة بين الدروز والنصارى واضحاً لا يحتاج الى تفصيل فكان ينتظر وقوع الحرب بينهما وعند شبوب الحرب الاهلية يراقب الحزب الاقوى فيسالمه والحزب الضعيف فيطمس آثاره

فانتشرت جواسيسه بين الدروز وحسنوا للمشايخ الفتك بالنصارى واغروهم بمواعيد الجزار بالمساعدة سواءٌ كان بالرجال او بالمال

فاجتمع مشايخ الدروز وعقدوا جلسة امضوا صكوكاً على نفوسهم في الاتحاد على التنكيل بالنصارى وقد رفض ان يوقع على هذه المعاهدة المجوموية الشيخ نجم العقيلي وهو اعقلهم وافطنهم في عاقبة الحرب

ولم يكتف بعدم توقيعه بل اظهر للمشايخ غلطهم وطيشهم وسوء مصيرهم وادعم اقواله في تبيين مقاصد الجزار الدنيئة وما زال يناضلهم حتى اقنعهم بالبرهان واقلع من قلوبهم بذور الشقاق ضد اخوانهم النصارى واسرع الى الامير وطلب مقابلته واسر اليه ما وصلت اليه اعمال الجزار في تغرير المشايخ وطلب منه ان يتخذ الاستعدادات الكافية لمنع نمو بذور الجزار في قلوب رجاله واجلى له ما وقع للمشايخ وكيف تغلب على اقناعهم واخلادهم الى السكينة وسأله ان يعفو عنهم لقاء طاعتهم له . . . فاجابه الامير الى طلبهِ وعفى عن مشايخ الدروز وعادت المياه الى مجاريها وكان نائب الامير الشيخ ابا خطار سلوم الدحداح الذي هو جد المطران نعمة الله الدحداح صاحب كرسي دمشق على الموارنة في ايامنا هذه

الفصل الخمسون

في وصف اقسام اهالي لبنان

وان تكن مساعي الجزار في ايغار صدور الدروز على النصارى فسدت ولم يقم لها قائمة

فاهالي الجبل منقسمة طبيعياً الى قسمين من مشايخ وامراء اي دروز ونصارى وتنتمي الى حزبين سياسيين عظيمين هما حزب جنبلاط وحزب يزبك الا ان الامير بشير كان ميالاً الى الحزب الجنبلاطي وافرغ قصارى جهده في التوفيق بين الحزبين فلم يفلح وسبب ذلك هو ان آل يزبك لم يكن لديهم ثروة عقارية تقوم بمصروفاتهم واودهم كما كان للجنبلاطيين فزاد حنقهم عليهم وميل الامير الى جنبلاط كان يزيد في حقد يزبك الذي كان من اتباع الامير يوسف . ومن هذه الاسباب وعدة غيرها لم يحسن الامير ظنهُ بهم وكان يحترس منهم

اما مشايخ آل نكد فكانوا يميلون مع من له الارجحية فتارة مع هؤلاء وتارة مع اولئك ولتعاسة الشعب كانت هذه الضغائن باعثة على الشقاء وجلبت لاهالي الجبل ويلات الحروب الاهلية على التتابع

ومداومة المشايخ على ايقاد الفتنة واشهار القتال وابتزاز اموال الرعية زادت الشعب تباعداً ونفوراً وجعلت الاتحاد الوطني ضرباً من المحال ومن جراء ذلك سهلت للدولة المداخلة بينهم وكان الجزار يضحك منهم ويغريهم بعضهم على بعض لان ذلك من مرامي نفسه الشريرة

الفصل الحادي والخمسون

في قدوم نابوليون الى سوريا وفتح غزة ويافا

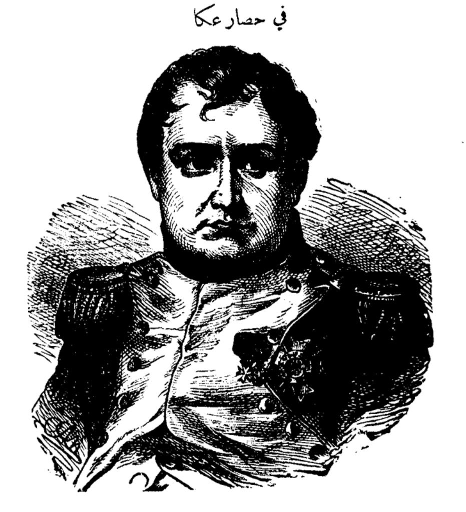
وبعد ان دوّخ نابوليون مصر شخص الى سوريا برّاً فاعترضته قلعة العريش عن المسير برهة لكنه واصل سيره بعد ان اضافها الى انتصاراته وعدها من توابع فتوحاته وبعد ان فرّق جموع الاتراك عن الحدود السورية ارسل كتاباً للجزار يعلمه بقدومه اليه وينصحه في المسالمة فلم يتنازل الجزار الى مجاوبته فعاد الرسول بلا جواب فارسل نابوليون رسولاً ثانياً واصحبه كتاباً آخر فكان نصيب هذا الرسول من الجزار القتل فحنق نابوليون على الجزار وتقدم برجاله البالغ عددهم عشرة آلاف مقاتل نحو غزة وهزم من رجال الجزار اربعة آلاف فارساً واستولى على محلات الذخيرة والادوات الحربية وواصل سيره الى يافا وهنا وقفت جنود الجزار امام الجنود الافرنج بضع ساعات في نهايتها اسفرت الواقعة على ثلاثة آلاف قتيل من الجنود التركية ودخلت

رجال نابوليون مدينة يافا وتصرفت بما عثرت عليه من مال ومتاع وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي سمح نابوليون لرجاله بالتصرف والتمتع بمال المغلوب واملاكه

وقبل ان يترك يافا و يقوم برجاله الى عكا امر بقتل الاسرى الذين وقعوا بين يديه ثلاثاً في العريش وفي غزة وفي يافا وكان يطلق سراحهم بعد ان يستوثقهم ان لا يقاتلوه ولما اسرهم هذه المرة وعددهم ينيف على ثلاثة الآف حنق عليهم وعلم انهم لا يراعون ذمة ولا يحترمون الشرف العسكري فامر جنوده برمايتهم ولم يواروهم التراب بل بقيت اجسادهم طعاماً للطيور وظلت رفاتهم مكشوفة فوق الخمسين سنة

الفصل الثاني والخمسون

في حصار عكا



نابوليون بونابرت

كان في مياه عكا مركبان حربيان انكليزيان للمدافعة عن عكا من هجمات بونابرت ارسلتهما الدولة البريطانية لما علمت بانتصارات نابوليون المتتابعة في مصر وان في نيته

اكتساح سوريا ونحن لا نتعرض لما حدث بين فرنسا وانكلترا من المزاحمة والمسابقة للمداخلة في الشؤون المصرية والسورية لان ذلك دوّن في حينه وانتشر للملأ بجلاء لايحتاج من بعده الى الزيادة

وكان نابوليون عارفاً بمناعة حصون عكا فطلب من مصر مدافع وذخرة كافية ليؤكد نصره وتقدم بجنده الى عكا وعند وصوله بلغه ان المراكب الانكليزية قبضت على المدافع وكل ما ارسل اليه من مصر فلم يبال بالامر كثيراً فشرع بحصار عكا في الثامن عشر من اذار ١٧٩٩ ومما يجدر بالذكر خطابه الذي القاه على جنوده حيث وقف وقال مشيراً الى عكا « هذه المدينة هي مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا عزائمكم على امتلاكها لان بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق فندخل القسطنطينية عاصمة قياصرة الرومان ونملك شرقي وشمالي اوربا فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم »

وبعد ان اتم كلامه الموجز المملوء حماسة ونشاطاً امرهم بالهجوم وتشديد الحصار وفي نهاية العشرة الايام تمكنوا من فتح الخنادق واخراب الدور وهجموا على حامية السور واعملوا فيها السيف الى ان ادخلوها داخل الحصن واقتفوا آثارها وما عتم ان ظهر الجزار بنفسه محرضاً جنوده على الثبات واخذ يفتك بكل من يركن الى الفرار منهم بالرصاص فعاد الى الحامية نشاطها وعمد الجند الفرنساوي الى الانسحاب بانتظام وهكذا ظلت الحال نحو شهرين قاسى بهما الجزار الاهوال ومع وفرة عدد جنده على الجنود الافرنسية فضلاً عن حصون المدينة كاد يلحق به الفشل لو لم ينسحب نابوليون برجاله عن عكا ويعود الى مصر . وذلك حدث بعد ان واصل عكا هجماته وضيق على اهاليها اشد الضيق واذ وردت اليه عن فرنسا اخبار غير مرضية فآثر الاهم على المهم وقفل راجعاً الى مصر

الفصل الثالث والخمسون

في اتهام الامير بشير بالخيانة

ولما رفع نابوليون الحصار عن عكا صوب الجزار نحو الامير بشير واتباعه تهمة الخيانة بمساعدة نابوليون وامداده بالمؤونة والذخيرة في اثناء حصاره عكا وقد تظاهر بحنقه وكدره الشديدين منه وظل يهدده ويتوعده الى ان اضطره على طلب الاقالة لنفسه فترك الامير دير القمر وقدم الحصن تصحبه حاشيته وجرجس مشاقة مدير خزينة الجبل

واتفق في تلك الاثناء ان بعض المراكب من العمارة الانكليزية كانت سابحة في بحر الروم تجاه الحصن وكان على ظهر مركب منها الصدر الاعظم ضيا باشا آتياً ليقود الجنود التركية في الحرب الواقعة بين الدولة وفرنسا

فكتب له الامير كتاباً ارسله مع قبطان المركب الذي كان عائداً من النزهة الى مزرعته وفحوى كتاب الامير شكواه من اعتساف الجزار واظهار عبوديته الى الدولة وكان من ضيا باشا بعد وقوفه على فحوى رسالة الامير بعث استحضره اليه وعند مقابلة الامير بضيا باشا على ظهر البحر رجع موعوداً منه على مساعدته

وبعد ايام قليلة بلغته اوامر الجزار برجوعه الى مركزه واستلام زمام حكم لبنان ففعل

الفصل الرابع والخمسون

ثورة ابناء الامير يوسف بتحريض الجزار

وبعد ان رجع الامير الى دير القمر لحظ حركة غير عادية على اولاد الامير يوسف ومن يميل الى حزبهم طلائعها عدائية وهي اقرب الى الحرب منها الى السلام وكان يترأس حزب اولاد الامير يوسف البطل المشهور الشيخ جرجي باز وكان الامير يستميل اليه مشايخ جنبلاط ولم تمض الايام عبثاً فدارت الحرب واشتد القتال بين الفريقين حتى قدر للامير في موقعة بالقرب من بيروت ان يطلع على الدافع باولاد الامير يوسف على عداوته . رأى رجال الجزار يمدونهم ويحرضونهم على مداومة القتال فكظم الامير غيظه وللحال بعث برسالة الى الشيخ باز عرض له بها ايقاف الحرب عند هذا الحد وما وقف عليه من مقاصد الجزار وكيف يجب عليهم ان لا يجعلوا للاتراك يداً في سلب راحة الاهالي وجلب الفتن وضياع الامنية في ربوع الجبل وطلب من الشيخ ان يتروى ولا يسبب للبلاد ما لا يحمد عقباه و يكون علة لخرابها ودمارها وكان الشيخ لا يقل عن الامير وطنية وغيرة على مصلحة البلاد فقبل اقتراح الامير انما طلب منه ان ينصف اولاد عمه ولا يفكر بسواهم وقد تنازل له عن حقوقه كرماً منه بحيث لو اشترط على الامير مبلغاً طائلا لكان اهون على الامير تنفيذه من ان يرى مقاصد الجزار سائرة الى

الامام ناجحة فيهم فقبل الامير بمطالب الشيخ العادلة ووعده ان يولي اولاد الامير يوسف جبيل وتوابعها — وعين اخاه نائبهم ومستشارهم وبذلك قطع الامير حبائل الجزار الفاسدة ورفرف السلام على لبنان مدة

الفصل الخامس والخمسون

في وفاة الجزار

اذا امعنا الفكرة باعمال الجزار ونظرنا الى نتائجها نظرًا عادلاً بما ادته من النفع والضرر للدولة والرعية على السواء وجدنا هذا الرجل لم يكن نائبًا عن اعمالها كما هو مألوف من حكام ذلك العصر

فقد كان داهية ذا باس وحنكة واسعة وقد سلمت اليه الدولة ادارة شؤون ايالتها وعولت عليه في اخضاع سور باوضمها تحت جناحها على طريقة الغدر والخداع ودس الفتنة والحروب الاهلية بين امراء البلاد والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والفسق ويسومونهم الذل انواعًا والظلم اشكالاً ولا يعتبرونهم ارقى من الرقيق فكانوا يتصرفون بمالهم وارواحهم كيف شاوا وكانت شريعة الرجل منهم ارادته السخيفة وكان الحاكم يشنق ويقتل ويشوه اخلاق الشعب كانه الحاكم المطلق على قطيع غنم ولا فرق عنده لتتميم اوامره الجائرة وكان ظروف الحال قيضت لهم رجلاً كالجزار لينتقم منهم ويكيل لهم الكيل كيلين

وكان هولاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الاهلية يكرهون العدل ويعشقون الظلم لا يرحمون ضعيفًا ولا قريبًا ولم يقم فيهم رجل قادر يلم شعثهم ويجمع قوام المتفرقة تحت لواء الوطنية ليقاتلوا عن الامة ويذبوا عن حقوقها ويتركوا الشخصيات جانبًا ويعملوا للعموميات ويطردوا الاجانب من وطنهم ويدافعوا عن استقلاله

ان معاملة الجزار للامير يوسف لم تكن اقسى من معاملة الامير لاخوته وانسبائه وان ما لحقه من الجزار هو غاية ما كان يستحقه وعدالة اليوم تطلب اجراءه وقس على الامير يوسف بقية المشايخ والامراء الذين كانوا يستبيحون مال وعرض الرعية في سبيل مصالحهم الذاتية

قد خدم الجزار الدولة والشعب وان ظلماً . وعادت خدماته على الدولة بالنفع فاخضع البلاد لشوكتها واصبحت تطيعها وتعمل باوامرها قانونياً بعد ان كانت ثانوياً ورد عنها في ثباته امام نابوليون خطرًا كان يهددها لو تم النصر للجنود الافرنسية في حصار عكا واقاد الرعية انهُ ازاح عنها ضغط المشايخ والامراء المستبدين بها ولا ذمة ولا حرمة لهم فكال لهم الوزنة وتكرم فاضاف على وزنتهم وزنة اخرى ورغماً عما اشاعته الالسنة وان القوم خرجوا من ذل الى ذل فما هو فضل الجزار الذي نطروه لاجله

فيقال في الجواب على ذلك القول : انه وان تكن حالة الشعب لم تختلف في ايام الجزار عما كانت عليه سابقًا فالجزار اعدها لذلك الاختلاف وعلى كل حال فقد كان الجزار اقل جورًا بالنسبة الى الامراء والمشايخ قبله ولما جاءهم وضع حدًّا لظلمهم وعسفهم وزعزع سلطتهم وارغم انوفهم واطلق الفلاح من عقالهم

ولا نريد الثناء على اعمال الجزار والاطناب بمآثره الوخيمة انما نحصر قولنا في ان الجزار عمل بما يطابق زمانه ورجال عصره

وقضى الجزار نحبه في سنة ١٠٨٤ عن اربعة وثمانين عامًا ولما انتشر خبر وفاته تهللت وجوه الشعب وافرج عن الذين كان غضبه يهددهم وعلى شفا الايقاع بهم

وبعثت الدولة راغب افندي وحجز على متروكاته من مال وعقار وتصرف بهِ بموجب ارادتها

الفصل السادس والخمسون

في تعيين سليم باشا واليًا على عكا

لا حاجة بنا الى الافاضة في كيفية تعيين خلف الجزار وكيف ان الدولة اهتدت الى الرجل المستوفي الشروط وانزلته في الفراغ الذي احدثه الجزار عند وفاته فاشغله وكان لائقًا به فسليم باشا قد عرفنا عنه الشيء النذر في الفصول المتقدمة فهو من اصل كرجي مسيحي خطف من اهله وهو حدبث السن وبيع للمسلمين ووصل اخيرًا الى الجزار حيث احتفظ بهِ واعلى منزلته لما رأى فيه من النباهة والنشاط

وقد اشتهرت سجاياه الحميدة بين الجنود حتى اجمع على محبته كل من عرفه

وقد اصابت الدولة في تعيينه واليًا خلفًا للجزار لما له في قلوب الشعب من الهيبة

والوقار وكان غيوراً على تاييد الشريعة والعدالة صادعاً باوامر الدولة عاملاً شفوقاً على الرعية معاملاً الجميع على السواء

وكان متساهلاً يحترم كافة الاديان وكان نائبه علي باشا ياله خلقا وخلقا وعين مديراً للخزينة حايم فارحي بعد ان رفض طلبه خوفاً من ان يحل به ما اصابه من الجزار فاصر عليه سليم باشا الى ان يقبل بالوظيفة واطلق يده وعقله في شؤون الولاية

والعقول الكبيرة اذا اطلقت تاتي بالعجائب ولما قبض حايم على زمام وظيفته وامن على اطلاق افكاره ونسر يحها في فضاء عكا اذهل معاصريه ونال ثقة مولاه فكان يفتش عن الرجل ذي الاستقامة و يوظفه وسعى فجعل لمشايخ آل صعب راتباً للتقاعد وتامينا على املاكهم وحياتهم ثم حمل سليم باشا على رحمة الرعية فلم يجمع من الاهالي مالاً جديداً

ورسم على الواردات الاجنبية رسوماً كان منه الدخل الوافي الى الخزينة

ثم اشار على سليم باشا ان يمنح الالقاب الى امراء الجبل في مخاطبته لهم واصبح يستهل كتابه فخر الامراء الكرام ولدنا المكرم الامير كذا . .

فساد الامان في مدة هذا الجوق النبيل على ولاية صيدا وتوابعها وشعرت الاهالي بارتقائها مادياً وادبياً

الفصل السابع والخمسون

في المؤامرة على آل نكد

في هذا الفصل وما يليه شواهد قاطعة على ان وفاة الجزار ورفع يده عن امراء الجبل ومشايخه واحزابه لم يحدث تغييراً مرضياً في جو لبنان وسياسته ومن الف المشاكسة واعتاد على التلاكم والخصام عبثاً يرتجى منه اصلاح

ففي هذه الاثناء عقد مشايخ جنبلاط وعماد المؤامرة على تدمير آل نكد حكام مقاطعة دير القمر و توابعها ونسبوا اليهم مواصلة الحروب الاهلية وواقع الحال كان ال نكد ينضمون مع الحزب الاقوى و ينصرون المنتصر ولا فرق عندهم غير الفرق الموجود بين قوي وضعيف اما بقية الاهالي وامراء ومشايخ فكانوا منقسمين الى قسمين قسم مع ال جنبلاط وقسم عمادي فنا صلت العداوة والحروب في قلوب هذين الحزبين القوبين

وطال امدها ولما لم يكن لدي الفريق ادلة واسباب واضحة لهذه المشاغب زعموا ان ال نكد علتها وسبب اشتعال جمرتها وقد اتفقا معاً على هذا الزعم وتآمرا على التنكيل بمن كان تعزى له هذه القلاقل وقد اطلعوا الامير على ما وطدوا عزمهم عليه فاظهر لهم الامير ارتياحه ووعدهم بالمساعدة على خصمهم وللامير عذر وهو رغما عن كون دير القمر مركز حكومة امراء شهاب لم يكن لهم غير السلطة الثانوية فيها وكانت السلطة المرهوبة الى آل نكد حكامها وكان اذا ارتكب احدهم جرماً امام بيت الامير وتمكن من اجتياز بضع خطوات عنه اصبح حرّاً من الامير ومقيدّا بسلطة ال نكد وكانوا ان شاوا تسليمه للحكومة كان لهم ذلك. ولا احد يعترضهم ان شاوا الخلاف لان لهم مقاطعة ولهم حق التصرف فيها بعد تقديم الجباية

وكان الامير يتمرمر منهم ويود الحط من نفوذهم ولذلك لما علم باتفاق مشايخ جنبلاط وعماد على سحقهم غدرًا سر واظهر ارتياحه

ولما توفرت معدات المؤامرة لدى اربابها أولموا وليمة دعوا اليها اهل الزعامة من آل نكد وقد وفقوا الى الفتك ببضعة منهم الشيخ قاسم واخيه احمد وكلهم ذو شدة و باس وبعد ان قتل لآل نكد زعامتهم فرّ من بقي منهم لا يلوون على شي وفي ذلك تخلص الامير من مزاحمه على السلطة في قلب حكومته

الفصل الثامن والخمسون

في المؤامرة على اولاد الامير يوسف

و بعد نكبة ال نكد وازاحتهم عن دير القمر خلا الجو للامير بشير فاراد ان يستقل بحكومته على الجبل فلم يفلح

والسبب كان نائبه وقتئذ الشيخ جرجس باز وكان هذا وصياً على اولاد الامير يوسف وكان له مقام وكلمة نافذة في الشعب كما مر بنا في الفصول المتقدمة

وظن الامير انه عثرته الوحيدة فاضمر له السوء ولكنه كان يخشى جانبه و يحترم شجاعته وقد اشتهر باز بعد جلاء آل نكد عن دير القمر بين الرعية وكاد يستاثر بالحكومة وحده وذلك مما دعا الامير الى تنفيذ غايته فتآمر مع مشايخ الدروز على الفتك به وارسل

رجالاً من قبله الى جبيل لتفتك باخيه عبد الاحد وفي الوقت المعين حضر اليه اولاد زين الدين وكمنوا في بيته ولما حضر الشيخ باز اجابة لدعوى الامير ودخل غرفة الاستقبال وهو اعزل فاطبق عليه اولاد زين الدين واماتوه خنقاً

وكان نصيب اخيه عبد الاحد مثل نصيبه غير ان الامير خاف على رجاله الفشل بمهمتهم فقام الى جبيل وهو في الطريق التقى بالرسول قادماً اليه ومعه رسالة تفيده عن قتل عبد الاحد باز والقاء القبض على اولاد الامير يوسف . وقبل ان يترك الامير عاصمته ارسل فقتل يوسف اغا الترك صديق الشيخ باز خوفاً من سطوته

واستطرد الامير مسيره الى ان وصل جبيل وفي حال وصوله امر بسمل بصر اولاد الامير يوسف بطريقة تخشى على شعور القاري من ايرادها والرجل الذي قام بهذه المهمة البربرية قاسم بن العرب فكان يحمي قضباناً حديدية و يوخز بها اعين اولاد الامير وداوم على ذلك ثلاثة ايام وهكذا كانت نهاية اولاد باز واولاد الامير يوسف وحدوث ما حدث لهم وقع في اب سنة ١٨٠٨

الفصل التاسع والخمسون

في جلاء آل عماد عن لبنان

وبعد قتل البازيين و نكد ضعفت شوكة العماديين وانحلت عصبيتهم واُغلت ايديهم وقد ادركوا غلطتهم في رفع يدهم عن الحكومة وما دبره لهم الامير واتباعه من تخضيد قوتهم فعولوا على التعدي وسلب راحة الاهالي وقد تكاثرت الشكاية عليهم للامير وكانوا ينوون الايقاع بالشيخ بشير جنبلاط ولكنهم لم يفلحوا لان الامير كان موكلاً على حراسته عصابة شديدة الحفظ على اوامره ولما تفاقم امرهم جند عليهم الامير حملة اخرجتهم من لبنان وساقتهم الى مصر فارتاحت البلاد من شرهم وعادت الى السكينة

الفصل الستون

في حملة الوهابيين على الشام

في سنة ١٨١٧ ام الشام جند من الحجاز ارسله محمد بن عبد الوهاب الذي

ادعى الخلافة و بايعه عدد غفير نصروه على طرد الاتراك من جزيرة العرب وبعد ان قطع طريق الحج على الاتراك ارسل رجاله الى المذبذبين في حوران تبشر برسالته وما يقصده من الفتح وامتداد السلطة وكتب الى اهل الشام يدعوهم الى الاسلام والطاعة ظنًّا منهُ ان الاتراك ومن ناصرهم من المشركين وكان والي دمشق يوسف باشا الكردي وكان مشهورًا بالفروسية عينته الدولة خلفًا لعبد الله باشا الذي حدث على عهده قطع الوهابيين الطريق على الحجاج

ولما عينته الدولة حرضته على قتال الوهابيين وفتح طريق الحج وقد خرج بعسكره على الوهابيين ولم ينل منهم مأربًا وكان يختلق للدولة الاعذار الفارغة و يدعي قلة عدد جنوده وطورًا وعورة الطريق اعاقته من اللحاق بهم

ولما لم يكن لهُ قوة كافية لفتح طريق الحج اخذ يشغل الشعب عن الحج بامور تافهة وكانت تصرفاته سافلة تدل على تخفف عقله ومنها انه امر المسلمين باطلاق لحاهم على السواء ومن خالف الامر جزاؤُه الاعدام . وامر النصارى ان ترتدي الاسود نساءً ورجالاً على السواء واليهود الاحمر نساءً ورجالاً على السواء مع ان الاسود كان شعار الدولة العباسية

الفصل الحادي الستون

في فرار يوسف باشا الى مصر

ولما سئمت الدولة من مواعيد يوسف باشا في ازالة الوهابيين عن طريق الحج وا كدت خموله وعدم اصلاحه ارسلت الى سليم باشا والي صيدا وامرته بمقاتلة الوهابيين وعزل يوسف باشا وتعيين من يرى بهِ الكفاءة بجمع رجاله وارسل للامير بشير ان يوافيه برجاله الى طبرية

فجمع الامير رجاله وقدم الى طبرية حيث التقى سليم باشا وانضم الجيشان المؤلفان من كافة النحل تحت قيادة الوزير سليم باشا وكان عدده وافيًا لم يسبق انضمامه تحت قيادة عامل تركي من قبل

وكانت وجهة هذا العسكر دمشق لنجدة يوسف باشا على الوهابيين وعند وصوله الى

القنيطرة التي تبعد عن دمشق ثلاثين ميلاً نزل بها للراحة ولما شعر يوسف باشا بقدوم والي عكا لنجدته ارسل له رسالة بلغته وهو في ذلك المكان يفيده بها عن عدم حاجته الى مساعدة على رد الوهابيين حيث محمد علي باشا سبقه على ابعادهم عن الشام واجلائهم عن طريق الحج

ولم يكن سليم باشا ممن يؤخذ بمثل هذه الحبائل فظل سائرًا بطريقه الى ان بلغ عطوز

وهناك خرج اليه يوسف باشا برجاله والتحم القتال بضع ساعات اسفرت عن قتل يوسف باشا والتجائه الى الفرار فقصد مصر ودخل في حمى محمد علي باشا

الفصل الثاني والستون

في امراء راشيا الشهابيين

وبعد انهزام يوسف باشا وتبديد رجاله دخل سليم باشا الى دمشق واعلن سلطته عليها وكان ذلك داعيًا لسرور الاهالي

ومن حسنات سليم باشا انهُ ضم اقليم البلان الى ولاية الشام بعد ان كان مستقلاً تحت لواء امراء راشيا الشهابيين ودعينا عمل الباشا هذا من حسناته لاسباب اولها كون حكام ذلك الاقليم مستبدين وكانت الاهالي تقاسي عذابًا وجورًا لا يطاقان وكان الامراء يدفعون عنهُ مالاً معلومًا لحفظ استقلالهم بهِ وبراشيا معًا وكانت الحكومة مشطورة مع الاهالي الى شطرين حزب يناصر الامير افندي وحزب يناصر الامير منصورًا

واصل العداوة بين الاميرين هي قتل الامير افندي شقيق الامير منصور فاستفحل الامر واشتدت المنازعة بينهما وكان الواحد منهما يراقب الآخر ويترصد الفرص ليفتك بهِ ومن جراء ذلك بالطبع كان الامير منهما يحتاج الى عصابة ومال وحاشية ليحفظ مركزه امام خصمه فكانت الاهالي مسؤولة عن لوازم زعيمها ومضطرة الى تضحية حياتها ومالها امامه على مذبح مطامعه الذاتية . وحدث لاهالي اقليم البلان انهم رفعوا شكواهم الى سليم باشا وعرضوا لهُ تصرف الامراء بهم وهي جرأة تعدّ لهم ونرغب ان نحفظها تقديرًا لحقوقهم ونودّ لو نقدم على الاقتداء بهم في اي زمان ومكان . وكان من سليم باشا انهُ

انصفهم واجاب دعوتهم وفي الحال رفع سلطة الامراء عن ذلك الاقليم واعلن ضمهُ الى ولاية الشام ولا مشاحة كان لاهالي البلاد فائدة شعروا بها وقدروها حق القدر

الفصل الثالث والستون

في سعاية الشيخ علي العماد

وبعد ان استتب الامن في ولاية الشام وتوابعها قدم سليم باشا برجاله الى مركزه والامير الى محل اقامته

واتفق لاهالي حلب انهم اضطهدوا دروز تلك البقاع وارغموهم على النزوح فاتوا لبنان وقصد وفد منهم دير القمر وطلب من الامير والشيخ بشير جنبلاط قبولهم في جوارهم وكان من الامير والشيخ ابداء كل حفاوة بهم ورحبا بنزولهم في بلادهما وكثر عددهم واكثر الشيخ من الاعتناء بهم وبمن دخل بخدمته منهم

وفي عصاري نهار دخل على الشيخ جنبلاط رجل منهم ورام البطش به وكاد يظفر بوطره لولم يعترضه كاهن ماروني اتفق وجوده عند الشيخ في ذلك الحين اسقط مسعاه ونجى الشيخ من شر الموت غدرًا بيده

وللحال بعد ان القي القبض على الدرزي صدر امر الشيخ باعدامه

ومما هو جدير بالذكر اقبال درزي يدعي سليمان الحكيم قدم من الغرب ليفتك بالامير وقد حاول اولاً ان يقضي على الشيخ ولم يفلح فدخل على الامير مرتين وعاد بالفشل والقى القبض عليه واجبره الامير على الاقرار وما الذي حمله على عمله وكان جوابه كي ينتقم لآل عماد منه ومن الشيخ جنبلاط وصرح انه رسول من قبل الشيخ علي العماد الذي فرَّ الى مصر والذي دفعه الى هذه المهمة

وبعد ذلك رأى الامير وجوب اعدامه فامر بشنقه

الفصل الرابع والستون

في اعتناق الشيخ بشير جنبلاط الاسلام

ففي سنة ١٨١٨ تظاهر الشيخ بشير جنبلاط باسلامه وتاييدًا لاعتناقه مذهب

الاسلام بنى جامعا امام قصره وليس هي المرة الاولى التي كان الدين متاعًا وسلعة فكثير قبل الشيخ وبعده ولم نزل نرى في ايامنا الحاضرة رجالاً ذوي وجاهة فرارًا من طارىء يحول دون مقاصدهم السياسية يخلعون دينهم العتيق ويلبسون دينًا آخر طمعًا ان ينالوا نعمة من اولي الامر على ذلك الدين والشيخ بشير بتركه دين اجداده واعتناقه دين الاسلام لم يكن الا لغايات في صدره يريد تنفيذها وكانت نفسه تطمح الى ولاية لبنان

وفي خلال هذه المدة قام الامير حسن ابن خال الامير بشير على والده وعمه وقتلهما بدعوى كونهما رفضا ان يكونا على مذهبه الذي اعتنقه حديثًا وجارى الشيخ جنبلاط به وقد ارسله الامير مكبلاً الى عكا ومن عكا ارسله سليم باشا الى الاستانة والقي في سجنها الى ان احضره عبد الله باشا منها وقتله الامير اسعد

الفصل الخامس والستون

في مؤامرة الشيخ بشير على الامير

وقد بلغ الامير ان الشيخ جنبلاط يدس عليه الدسائس طمعاً بالامارة على الجبل مكانه ولولا ذلك لم يعتنق دين الاسلام ولا تظاهر به والوشاية توقع الريب حتى بين اخلص الاصدقاء وان تكن وهماً فصدق الامير ما وقع على سمعه وحنق على الشيخ باطنًا وكان من الشيخ لما درى بحنق الامير عليه انه تظاهر بالاحتراس والتيقظ منه مما زاد اعتقاد الامير في صحة الوشاية واجتهد الشيخ ان يزيل شكوك الامير به ولم يفلح ومن الاشاعة ان الشيخ لم يكن يقصد الايقاع بالامير انما كان يبغي ابداله بامير اضعف منه يتسنى له التفوق عليه واظهار مقدرته

الا ان ذلك لم تظهر صحته الايام وفي مرافقة الشيخ الامير عند ما غضب عليه عبد الله باشا الى حوران حجة على فساد الاشاعة

الفصل السادس والستون

في وفاة سليم باشا وتعيين عبد الله باشا مكانه

وفي سنة ١٨١٩ توفي الى رحمة ربه سليم باشا بعد ان خدم الدولة والرعية خمسة

عشر عاما بالعدل والامانة وكان الاسف عليه عامًا حتى شعرت بفقده الدولة

وعينت الدولة خلفا له عبد الله باشا ومنحته لقب الوزارة والبشوية

ولم يحدث في ولايته لاول عهده تغيير يذكر فابقى ولاة الامور في مناصبهم

الا انه كان ضعيف النفس ميالاً الى معاشرة الفئة المسخطة وكان متعصبًا

فاخلص حايم فارحي النصيحة ونهاه عن اعماله المعيبة بمقامه ولم ينجح مع ان حايم كان العامل الاول لتعيينه خلفًا لسليم باشا

فحنق عليه عبد الله باشا وامر باعدامه وطرحه في البحر وبموت حايم تلك الموتة الشنيعة بعد ان عرف عنه الامانة والاستقامة حدث في الولاية اضطراب ورعب في قلوب الرعية وباتت اصحاب الوظائف في خوف من العزل والضغط كما حدث لارباب الرتب على ايام المرحوم مظفر باشا

الفصل السابع والستون

في اضطهاد الامير بشير

وكان الامير بشير اشد الناس غماً على حايم فارحي لما عرف به من العدالة وبعد النظر وصدق المودة وطيب العنصر وكأنهُ ادرك سلفًا ماذا يكون شأنهُ مع عبد الله باشا وكيف تنقلب دفة سياسته عليه وكان ظن الامير بمحله حيث لم يمض على اعدام حايم وقت يذكر الاّ وشرع عبد الله باشا في تحوير معاملته للامير وسواه من اهل الرتب والوظائف وبدأ يطالب الامير باموال خارجة عن المألوف وكان الامير طورًا يرسل طلبه وطورًا يعتذر لهُ وحينًا يبذل من ماء الوجه ويستعطف خاطره بالتجمل وغير ذلك من طرق المداهنة

واخيرًا بعث عبد الله باشا في طلب فائق الحد وفوق طاقة الامير . وفضلاً عن استفحال الطلب عرض لهُ ان يعتنق مذهب الاسلام نجاة لهُ من اضطهاده المتلاحق

وكان الدافع لعبد الله باشا على مقاومة الامير وشد الخناق عليه الى هذا الحد النميمة والوشاية

وعند ما بلغ الامير مطاليب الباشا الاخيرة وقع بحيرة شديدة لجنوحها عن العادة المألوفة لغرابتها فعقد مجلسًا بين رجاله واقرب الناس اليه واخذوا في المداولة وانتشر

في جو لبنان انقلاب عبد الله باشا ومضايقته للامير وبلغ اسكلة طرابلس واتصل بحاكمها مصطفى اغا بربر ولما كان بربر من خدمة شقيق الامير سابقاً اوجب على نفسه ان ينصح الامير ولكن الاشاعة كانت تنسب اليه وانه هو الذي كان يواصل عبد الله باشا باعلامه عن الامير وهو الذي حمله على ابدال معاملته السابقة

ومن الذين اخلصوا للامير النصيحة بطرس كرامة فاشار عليه اما بالرحيل عن لبنان واما ان يشهر عداوته للباشا ويكافحه

فاجابه الامير ان اشهار السيف بوجه مولاه من الامور التي يأباها

ولما اجتمع بالشيخ بشير جنبلاط وتفاوض واياه ملياً في حل المعضلة التي وقع بها قرَّرأيهما على ترك لبنان والذهاب الى الشام ريثما يرضى عبد الله باشا عليه

الفصل الثامن والستون

في ترك الامير مركزه

وبعد ان استصوب الراي في ترك دير القمر باكثر رجاله ارسل الامير الى جرجس مشاقة مدير الخزينه ان يعلمه قيمة ما لديه من المال فورده الجواب ان الخزينة تحتوي على الف ليرة فقط

ولما كانت القيمة لا تسد حاجات الامير العديدة ولا تقوم بنفقة قيامه اعلم الشيخ بشير جنبلاط فمده هذا بكمية وافرة

وعند ذاك امر الامير بالاستعداد لترك دير القمر بعد ثمانية ايام

وفي نهايتها نهض الامير بحاشيته ورجاله الذين بلغ عددهم ثلاثة الاف بين فارس وراجل وقام برفقته من الشهابيين الامير حيدر الاحمد من قرية شملان والامير عباس من مجدل معوش وجرجس مشاقه وعائلته قام بمعيته . ولما وصل الامير برجاله كفرنبرخ بلغه رسول عبد الله باشا الذي يجدد عليه الطلب ويلح عليه في اسراع تلبيته فجاوبه الامير باللطف وقال له لو كان بوسعي وبوسع الرعية تقديم مطاليبك مني لفعلت ذلك حبًا وكرامة انما عدم مقدرتي واصرار الوزير على طلبه اضطراني الى ترك دير القمر والجلاء عن لبنان على الوزير يعين له مكاني من يكون كفوءًا للقيام بمطاليبه . واقراري بالعجز

لا يحرمني ان اذكر الوزير في حلي وترحالي ءاله عليّ من الفضل وغمرني به من نعمته

واستطرد الامير المسير الى ان بلغ حماة فنزل فيها ليلة ومنها وصل الى قب الياس التابعة لولاية الشام ومنها سمح لجرجس مشاقه ان يبقى مع اولاده في الشام . وارسل الى عبد الله باشا رسالة اعلمه بها انه ينوي الشخوص الى حوران وداوم الامير مسيره الى ان بلغ جبل الدروز في حوران ومن هناك ارسل الامير رسالة الى عبد الله باشا اعلمه بها عن وصوله ونزوله في ذلك المكان

الفصل التاسع والستون

في خلف الامير

وقد حدث لعبد الله باشا بعد نزوح الامير عن دير القمر انه عين مكانه الامير حسن بن الامير علي والامير سليمان بن السيد احمد وكلاهما من وجوه ال شهاب بعدان سلخ عن الجبل اقاليم الخروب والتفاح وجزين وجبل الريحان وجبيل فرضي الاميران بقسمتهما ولم يظهرا اعتراضاً وتثبيتاً لرضاهما اعتنقا مذهب الاسلام لينالا نعمة بعين عبد الله باشا ورجع آل عماد لما عرفوا ان خصمهم رحل عن دير القمر وراقت الاحوال وساد السلام مدة

الفصل السبعون

في تعيين الامير حسن حاكماً على الجبل

وكان عبد الله باشا كثير الحركة قليل البركة فكان دابه العزل والبدل وحشد الاموال من ولاة المراتب ولما اتصل به خبر وصول الامير الى حوران استحضر من الاستانة الامير حسناً الذي عرفنا القاري به في غير هذا الباب وكيف انه قتل والده وحماه لرفضهما تغيير مذهبهما والاقتداء به وكيف ان سليم باشا امر في سجنه وارسله الى الاستانة تكفيرًا عما جنت يده الاثيمة ولكن للناس مشارب وغايات تضحي في تنفيذها اقدس الواجبات وتحلل المحرمات ولا تبالي . وفي احضار عبد الله باشا الامير حسن

ونعيينه حاكماً على الجبل شاهد على قولنا و بدلاً من ان يسعى في اعدامه قصاصاً لما اجترمه احضره وعفى عنه وجل قدره . لماذا ؟ لانه اعتنق مذهب الاسلام وهو ذو ثروة طائلة

الفصل الحادي والسبعون

هدية الامير بشير لدرويش باشا

في المدة التي دخل جرجس مشاقه باولاده الى الشام كان واليها معزولاً وكان الحاكم عليها وكيلاً اقامه درويش باشا يدعى درويش اغا بن جعفراغا ولما بلغه خبر قدوم جرجس مشاقه واولاده وكان يعلم مركز مشاقه عند الامير فظن انه نال بغيته وملأ جوفه من مال الامير فصدر امره بالقبض علي اولاد مشاقه اينما وجدوا

ولما شاع خبر قدوم درويش باشا الى الشام ليتربع في دست الولاية قدم له الامير هدية خمسة رؤوس من جياد الخيل فقبل درويش باشا الهدية ووعد الامير بالمساعدة

وعند ذلك افرج عن اولاد مشاقة وقدم الى دمشق من رجال الامير بطرس كرامه والشيخ منصور الدحداح ويوسف الخوري الشلفون وشاهدوا مع جامع حوادث كتابنا المقابلة التي جرت لدرويش باشا في دخوله الى مدينة الشام

وكانت العادة التي جرى عليها حكام ذلك العصر عند مايتولى احدهم منصب الولاية انه اول عمل يأتيه اعدام بضعة من المحابيس وتجريم البريء كي يوقع في الشعب رهبته ويريه قساوته وبدلاً من ان يطلق سراح المسجونين ويتظاهر بالدعة والحلم كما هي عادة حكام عصرنا يفتش عن المجرم او المتهم بجرم خفيف ويصدر امره باعدامه

ذلك ما كان من باكورة اعمال درويش باشا حين وصوله الى الشام وكان حظه اوفر من سواه حيث اتفق له وهو في طريقه الى مركز الولاية انه عثر على بضعة اشخاص في حماة وحمص فاحضرهم معه وكان يعدم الواحد بعد الآخر كل صباح يوم ارهاباً للرعية

وكان الشعب ينظر الى الحاكم نظر العبد الى سيده ولا يتجاسر على رفع نظره اليه

وكانت الاهالي تحتفل بحاكمها وتتظاهر بعبوديتها لهُ وتزيد من الاطناب بهِ قبل ان تعلم عنه شيئاً وتحرق لهُ بخوراً وتضيء له الشموع وتزين الشوارع كما هي العادة التي لم نزل نحترم نصوصها الى يومنا هذا

ومن جملة اهالي دمشق بطرك الروم وبقية خدمة الكنائس خرجوا لملاقاة درويش

باشا بالمزمار والقيثارة

وكان يتقدم الباشا مناد للصلاة على النبي واصحابه وقد حيته مدافع القلعة وبنادق الجنود وصدف في نهار دخوله كان عيد الفصح للروم فاغتنموا الفرصة واحرقوا من البارود اكواماً للفصح وللباشا معاً ما شاؤا

وكانت طريقة الاعدام في الشام خنقاً يجبرون اليهود او من صدف لهم في حينه من النصارى على تنفيذ الحكم بالمجرم

الفصل الثاني والسبعون

في استبداد سيروفيم بطريرك الروم

ومن الحوادث التي هي جديرة بالذكر والتي نشأت بسببها فتنة بين بطريرك الروم سيروفيم وبين طائفة الروم الكاثوليك وادت الى اضطهاد هؤلاء :

كان بطريرك الروم على عصر حوادث كتابنا لهُ السلطة على الكنيسة والطائفة الكاثوليكية رغماً عن انفصال هـذه عن كنيسته وكانت الدولة تعضده وتطلق ارادته في شؤونها

وكان لا يسمح لرجال الكنيسة من الطائفة المشار اليها بلبس القلانس السوداء ولا تقليد ملبوس كهنة الروم وقد اجبرهم على ان لا يختلف لباسهم عن لباس عامة الشعب . وكان يقيد ارادتهم في الجنائز والعمادات والاكاليل فكان اكليروس الروم مضطرًا في كل ذلك الى رخصة منه قبل مباشرة شيء منها وكان يقاص من يجترىء على مخالفة القاعدة . وفي سنة ١٨١٩ حدث خلاف بين كاثوليك حلب ومطران الروم جراسيموس التركمان ومع كون رعية المطران في حلب لا تزيد عن خمسين نفساً تصدر لارغام الطائفة الكاثوليك وعددها الف وخمسمائة نفس على التزام طاعته غير ان الكاثوليك رفضوا طاعته واصروا على مقاومته وطال الجدال بينهما واعقبه خصام وقتال اسفر عن قتل احدى عشر نفساً من الكاثوليك كان اعدامهم بامر الحكومة واستقالة المطران من وظيفته وارساله الى صيدا حيث اجتمع بالدكتور ميخائيل مشاقة

وتأصلت الضغاين بين الطائفتين لا سيما عقب ان فتك احد الرعاع ببطرك الكاثوليك اغناتيوس

ومما زاد الطين بلة والطنبور نغمة حنق بطريرك الروم على كاهن كاثوليكي وبدلاً من ان يعاقبهُ على الشروط الكنائسية كما هي العادة ارسلهُ الى السجن واهانهُ

فمضى بعض الوجوه من الكاثوليك وسعوا بامرهِ فاخرجوا الكاهن من السجن وكان خروجه نكاية بالبطريرك وكان من بعضهم انه تقدم الى البطركخانة وبيده عصا قد علق على طرفها حذاء عتيقاً وهو ينادي بصوته اذا كانت هذه راية ساروفيم وكانت عصابته تجاوبهُ سود الله وجهه

فاغتاظ البطريرك من هذه المظاهرة وعدها اهانة جسيمة وبلغ منه الغيظ حداً اخرجه عن حدود التعقل فامر جميع كهنة الكاثوليك وقسوسها بحلق لحاهم واستعمل نفوذه لدى الحكومة فساعدتهُ ونفتهم الى جزيرة ارواد عن طريق طرابلس

وقد شكى الكاثوليك معاملة سيروفيم الى عبدالله باشا فأمر بارجاعهم

ولم يكتف سيروفيم بما تقدم بل قدم شكواه الى الوزير واعلمه ان جانباً من الرعية تمرد عليه بمساعي الافرنج وجنح عن دينه وقد كذبته الطائفة الكاثوليكية فرجع بالفشل واخيراً اتهمهم بالمؤامرة على قتله وفي هذه المرة تمكن من جلدهم امام الجمهور وبعد ان سامهم من العذاب والاهانة الواناً اجبرهم على دفع مال واطلق سراحهم

وبعد ايام صدر امر الوزير بتحقير النصارى ومنعهم ان يرتدوا ثياباً حمراء ولا سيما الحذاء الاحمر وفي يوم صدور الامر كان في بيت مخائيل مشاقة بضعة من عيون لبنان احذيتها من النوع المحظور فخافوا ان يخرجوا خارج البيت قبل ان سودوها

الفصل الثالث والسبعون

في عودة الامير بشير من حوران

وبعد ان طال على الامير الامد في حوران يقاسي شظف العيش في تلك الفيافي القاحلة نفد منه المال واصبح بحالة من العسر حتى انهُ اضطر الى رهن بعض املاكه وسحب عليها لسد عوزه وهو في تلك الحال من الضنك والفقر ورد عليه امر درويش باشا بطلب كمية تبلغ نصف مليون

وعند ذلك ارسل الامير الى عبدالله باشا يستعطفه في كبح مطامع درويش باشا عنهُ ويبسط لهُ ضيق يده والحالة التي وصل اليها

فرثى عبد الله باشا لحاله وبعث يستحضره اليه بعد ان شعر بحاجته الى امثاله في تلك الاونة خصوصاً لما بلغهُ عصيان المورة وتعدي بحارة الاروام على السفن القادمة الى سوريا وطلب الباشا من الامير ان يأتي لمقابلته شفا عمرو للمفاوضة في شؤُون هامة

ولما بلغ الامير امر الباشا عول على القدوم اليه في ثاني الايام بالرغم عن تحذير الشيخ جنبلاط له من الشرع في الانقياد الى شفا عمرو واشار عليه في تظاهره بالدين الاسلامي فأمر الامير بمقابلة عبدالله باشا وثبوته على دينه

وفي ثاني الايام قصد شفا عمرو المكان الذي عينه له الباشا ومعه عشرون فارساً

ولما علم عبدالله باشا بوصوله بعث اليه يخبره بالمكان الذي يريد ان ينزل به فاختار الامير جزين المسلوخة عن الجبل وارسل يستقدم رجاله اليهِ وبعث فاستحضر جرجس مشاقة واولاده من الشام وبقي مخائيل ليتم دروسه فيها

وعقب وصول الامير الى جزين اقبل اهل زعامتها للسلام عليه ووعدوه بالطاعة ولم يمض على وصوله وقت يذكر حتى ورد اليهِ امر عبد الله باشا في تعيينه حاكماً على الجبل وضم الاقاليم التي كان سلخها عنه الا مدينة جبيل

وظل الامير اياماً في جزين يتأهب للرحيل الى مركزه ويعد الامور اللازمة لاستلام وظيفته

الفصل الرابع والسبعون

في ثورة الشعب ضد الامير

وقبل ان يقوم الامير من جزين طلب من الاهالي دفع الجزية والخراج كجاري العادة لكن بصورة غير صورتها الاولى مما جعل الشعب يستغربها واصر على رفض اجابة طلب الامير وحاول الامير ان يفهم الشعب ان القيمة هي ذاتها انما صورة لائحتها تختلف عن الماضية ولم ينجح فثار عليه نحو ثلاثة عشر الف نفس ولم يكن مع الامير فوق الثلثمائة ودارت رحى الحروب بينهم مع ان الامير نهاهم واخلص لهم النصيحة ولم ينتهوا فاعمل بهم سيفه وامر رجاله على قلتهم ان يقتدوا بهِ وقد انتصر الامير مع قلة عددهم على ذلك الجمهور وذهب من رجاله بضعة ومن الاهالي عدد غفير وانهزموا وفي

ساء ذلك النهار انهى عبد الله باشا الى الامير امر تعيينه على جبيل والجبل ورخص له
بالاقامة في جبيل

اما الشيخ بشير جنبلاط فجمع لديه الفي رجل من الاشداء وتوجه بهم قاصداً مركز الامير الجديد ليساعده على العصاة · وفي وصوله الى نهر الكلب التقى بشرذمة من العصاة كامنة لهُ تنوي الفتك بهِ وبمن معه واغلب العصاة من كسروان فقاتلهم الشيخ بمن معهُ من الرجال وشتت شملهم · وفي طريقه الى جبيل التقى بالكاهن ندرا وهو في العدة الكاملة للنزال يحرض القوم على اعادة الكرة والمواظبة على القتال الى ان يتم لهم النصر فقبض عليه الشيخ وقدمه ذبيحة للنار تكفيراً عن ذنوبه وداوم مسيره الى جبيل

وبعد ان هدأت الاحوال ولاذت الاهالي الى السكينة والطاعة ورد الى الامير رسالة من عبد الله باشا مفادها ان يقدم اليهِ جدعون الباحوط ليفاوضه بشؤون هامة ويعيده اليهِ بها ليقصها على مسامع الامير فصدع الامير بمفاد الرسالة وطلب الى جدعون الذي كان الامير يعتمد عليه في حل المعضلات ان يذهب الى عبد الله باشا

الفصل الخامس والسبعون

في قدوم الامير الى بيت الدين

ورأى الامير من الابقى لحفظ نظام الجبل ان يقوم الى مركز الولاية فقام الى بيت الدين وقبض على ازمة الاحكام بيده الحديدية وصدف في تلك الاثناء ان درويش باشا شخص الى مكة بمحفل الحج واقام مكانه فيضي باشا وعين فيضي باشا حسن اغا العبد نائباً له على البقاع ولم تستقر لحسن اغا الولاية حتى بدات تعدياته وكثر تشكي الاهالي منه للامير وكانت تعدياته متلاحقة واكثرها بين صيدا ولبنان حتى لم يعد للامير بدٌّ من جدع انف المتعدي فطلب من فيضي باشا ان يكف حسن اغا عن تعديه ويامره بارجاع ما سلبه من اهالي ولايته ولما لم يرد له جواباً جند له فرقة وامرها ان تلحق بحسن اغا العبد وتلقي القبض عليه وتسترجع ما سلبه من الرعية فقامت الفرقة ولم تبلغ البقاع حتى فر من وجهها حسن اغا الى الشام

فرجعت ومعها تعويضات عما الحقه الاغا بها من النهب والتعدي

وعين فيضي باشا امين بك مكان حسن اغا العبد ولما درى الامير بقدومه ارسل اليه الشيخ جنبلاط بشرذمة من الجند احضروه مكتوفاً الى الامير ولولم يشفع به مخايل مشافة لقضي عليه في سجن الامير

الفصل السادس والسبعون

في المؤامرة على عزل عبد الله باشا

اتفق لجدعون عائق صده عن الشخوص الى مواجهة عبد الله باشا وعند زواله صدع بامر الامير وذهب الى مقابلة الباشا في مركز ولايته ولما قابله عرض له الباشا ان جواسيسه في الاستانة افادته موخراً ان اليهود حانقة عليه لفتكه بحايم فارحي وانها بذلت مالاً لا يحصى عدده واقنعت الدولة بتعيين درويش باشا مكانه ولو لم يكن درويش باشا في طريقه الى مكة لاعلن اوامر الدولة وقدم اليه برجاله وموعد ذلك عودته من الحج ولذلك يرغب ان يقف على رأي الامير ويستكشف منه ما يرتأيه فاذا كان يعده بمقاتلة درويش باشا فلا يبالي اذ ذاك ان يرفض طلب الدولة عزله وتعيين درويش مكانه ومتى تحصل على وعد الامير الشفاهي يتأهب للمدافعة عن حقوقه ويجعل السيف صاحب الانصاف . فعاد جدعون الى الامير وانهى اليه بكلام عبدالله باشا المتقدم وزاد عليه ان عبد الله باشا يريد الوقوف على حقيقة افكارك فاذا كنت تقف بجانبه وتثبت معه الى النهاية يقدر على ارغام درويش باشا بالقوة واذا لم يأخذ منك وعداً فلا يرى لنفسه نجاحاً باشهار عصيانه على الدولة ولما حصل الامير على تعليمات مولاه ووقف على ما يقصده منه وطد النفس الى الثبات بجانبه وهمّ ان يقصد عكا لمقابلته غير ان ما حدث ونقصه عليك في الفصل الآتي اوقفه عن الشخوص واتمام قصده

الفصل السابع والسبعون

في واقعة راشيا

ولما رجع الامير والشيخ بشير جنبلاط الى الجبل نزح آل عماد عنه والتجاوا الى

درويش باشا وتوسطوا امامه في توجيه ولاية راشيا الى الامير منصور الشهابي لانه كان ميالاً لهم وعزل الامير افندي المتشيع للامير بشير

وكان من درويش باشا اجابة ملتمسهم فعين الامير منصورًا حاكماً على ولاية راشيا ووجه معه حملة مؤلفة من آل عماد ليخرجوا الامير افندي من المركز رغماً عنه . ولما درى بهم الامير افندي بعث فاعلم الامير بشيرًا بقدوم الحملة اليهِ وقص عليه العامل على ايجاد هذه الحركة

ولما كان الامر جللاً نهض الامير بنفسه في قيادة جنوده الاقوياء واخذ معه فرقة من جنود عبد الله باشا ووجهته راشيا فوصلها قبل الامير منصور بايام

وعند وصوله في قيادة الحملة هجم بها على راشيا وصده الامير برجاله واستعرت الحرب بينهم اياماً فانجلت عن انهزام الامير منصور ومن لف لفه وظل الامير ورجاله يضربون قفاها الى ان ادخلوها دمشق الشام مركز خروجها فعاد الامير برجاله منتصرًا محفوفاً بالتجلة والاكرام

الفصل الثامن والسبعون

في مقابلة الامير عبد الله باشا

وفي غضون سنة ١٨٢٠ او بعد حادثة راشيا بقليل ورد للامير رسالة من عبد الله باشا يحثه بها على مقابلته والشخوص اليه بالاقرب العاجل . ولما لم يكن لديه مانع يمنعه عن اخلاء مركزه قصد عكا اجابة لطلب عبد الله باشا لثاني مرة

وعند وصوله لم يشأ عبد الله باشا ان يستقبله في قاعة الاستقبال كما يستقبل بقية زائريه فرغب في ان يعزه ويظهر ثقته به فادخله دار الحريم مع ما في ذلك من خوارق العادة المتعارفة بين المسلمين والنصارى . ولما دخل الامير عليه استقبله الباشا واظهر له الحفاوة والاكرام وتقدمت اليه والدة الوزير وقبضت بيدها على حزامهِ واقعة عليه في مساعدة ولدها وقالت لهُ ان ولدي وان يكن مولاك من حيث وظيفته فهو ولدك لسنه وقد سبق لجهله وحداثته فاساء لك المعاملة في الماضي والآن يريد منك ان تغفر لهُ تصرفاته السابقة وتعضده على خصمه . فاليهود اجمعوا على الانتقام منه وحملوا الدولة واغروها بالمال على الحط من قدره وعزله من وظيفته على يد درويش باشا ولا غرابة ان ظفرت به

ان تعمل على اعدامه تشفياً لليهود اخذاً بثار رجلهم حاييم الذي ذهب ضحية الطياشة والجهل . اما الآن وقد سبق السيف العزل ارجو منك كامرأة ووالدة مولاك ان تثبت بجانبنا وتعزز مقاماً لنا على وشك الزوال

ولم يسع الامير في ذلك الموقف الا اجابة طلبها وقال اني اعترفت سابقاً واعترف الآن بعبوديتي الصادقة لمولاي وها انا مستعد لتضحيه النفس والنفيس في سبيل مرضاته ولا اضن بآخر قطرة من دمي ان كان في اهراقها فائدة لهُ فليأمرني بما يريد فيجدني ثابتاً على قولي محققاً امانيه بي

فقال له عبد الله باشا الذي اريده منك وابغيه ان تقوم برجالك ورجالي الاشداء وتوقع بدرويش باشا قبل ان تصله النجدات التي ارسلتها له الدولة بقيادة والي حلب واظنه متى فتكنا به وبسطنا يدنا على ولاية الشام يهون علينا ارضاء الدولة بالمال وفضلاً عن انها ترى بطشنا وشدة بأسنا فترهب جانبنا لاسيما ولي في الاستانة اخلص الاصدقاء يساعدوننا على نيل بغيتنا فاريد منك ان تجمع رجالك وتاتي بهم الى جسر بنات يعقوب حيث تلتقي بالجنود التي ارسلها الى هناك وتضم الجيشين تحت قيادتك وتقدم بالمقدمة الى الشام وتضايق على درويش باشا فيها الى ان تظفر به فترسله الي مكبلاً بالقيود . ولم يظهر الامير تردداً في اجابة الباشا على كلامه وما فاه به كان برهاناً على تثبيت وعده ومحققاً اماني الوزير به وهبَّ من ساعته يقرن قوله بالعمل ورجع الى مركزه وبدأ بجمع رجاله وحثهم على القتال اما عبد الله باشا فكان منهُ بعد مبارحة الامير انه حشد الجند وعد معداته وسيره الى جسر بنات يعقوب

الفصل التاسع والسبعون

في حصار دمشق الشام

ولما اجتمع حول الامير رجاله ومشايخ الجبل ورجالهم ركب في مقدمة القوم الذين بلغ عددهم اثنى عشر الفاً بين راجل وفارس الى النقطة المعينة حيث ضم الى عساكره الفرقة التي ارسلها عبد الله باشا وكانت بانتظاره ومن هناك استأنف الامير مسيره في مقدمة ستة عشر الف مقاتل

اما درويش باشا عند ما بلغه امر حملة عبد الله باشا بقيادة الامير بشير اوجس خيفة

من عددها وشدة باس رجال لبنان . فجمع اليه رجاله وكل من قدر على حمله على الحرب والنزال مع آل عماد النازحين عن لبنان و بعض امراء شهاب من اعداء الامير ومن انتمى لهم من الرجال و رتب معسكره خارج المدينة على بعد ثلاثة اميال في قرية المزة

وأعدّ المدافع وجعلها في المقدمة ووراء المدافع الفرسان وابقى بقية الجند وراء جدران المحلة وعند وصول الامير واشراف رجاله طليعة فرسان درويش باشا دوهمت برشاش من قنابل ورصاص واشتبك القتال مع الفرسان اصحاب الرماح واشتد سعير الحرب و تقدم الامير بنخبة من رجاله المشاة الى الامام فاخترق فرسان درويش ولم يبال بالرصاص الهاطل عليه وظل يغني رجاله و يدفعهم الى التقدم وهو امامهم كالطود الى ان اقترب من جدران القرية وهناك لاقى ممانعة عنيفة لكنه تغلب عليها وتسلق مع رجاله الجدار و دخل القرية واعمل برجال درويش السيف واصلاهم نارًا حامية حتى ارغمهم على الانسحاب منها و بعد انهزام خصمه من امامه امر رجاله بحرق القرية وظل يطارد درويش باشا ورجاله الى ان ادخلهم مدينة الشام وكثير منهم رموا بانفسهم في المستنقعات التي خارج المدينة فماتوا غرقًا

وعند ذلك رفع الامير السيف عنهم ولم يسمح لرجاله بدخول المدينة خوفًا من نهبها فعاد عنها الى قرية المزة و بلغ عدد قتلاه اربعين وقتلى درويش باشا الف ومايتين فضلا عن الاسرى ومنهم الشيخ حسين تلحوق

اما درويش باشا فاركن الى القلعة وتحصن بها ينتظر قدوم النجدة القادمة اليه بقيادة مصطفى باشا والي حلب

الفصل الثمانون

في وصول طلايع مصطفى باشا

ولما كان الباعث بنا الى انشاء ونشر هذا الكتاب تقدير رجال الفضل قدرهم وبث الحقيقة ونشر لوائها على مرتفع الفضيلة وقد راعتنا شجاعة الامير وهزت بنا معاقل تصوراتنا الى وضع كلمة في هذا الصدد فنقول :

ان شجاعة الامير ورجاله البواسل وحذقه بالقيادة وصدق خدمته حتى للاجانب نظير عبد الله باشا التركي ولا مصلحة له وطنية يرمي اليها سوى تثبيته على منصة الامارة

في لبنان وطنه وان نصرته هذه فضلاً عن انتصاراته العديدة لا تقل اهمية عن نصرة اعاظم قواد الحرب الذين حفظ لهم التاريخ وقائعهم واشهر براعتهم وهي شقيقة لنصرة نابليون الاول في ابي قير بمصر

ان هذه القوة اللبنانية والشجاعة النادرة كانت مصروفة في غيرما خلقت له وما ذلك الا لجهل زعمائها وتفضيلهم الفتن الاهلية والشخصيات على العموميات وموت روح الوطنية من صدورهم فلو صرفوا قواهم لحفظ اسنة لالهم والذود عن وطنهم واستبدلوا المشاكسة بالمحبة والوئام وخدموا وطنهم وطرحوا عنهم سلطة الاجانب وعززوا جانبهم .. لوكانوا فعلوا ذلك . لو قدر لذلك الشعب الملآن قوى ونشاطاً رجالٌ نزهاء يفضلون الصالح العام على المصالح الذاتية لكنا نظرنا على منصة حكومة لبنان خصوصاً وسوريا عموما حاكماً وطنياً من سلالة اولئك الذين دوخوا العالم ببضعة عشر عاماً وكنا تخلصنا من جور الاتراك وظلمهم وخمولهم وتعصبهم وكانت سوريا الان في مصاف الامم الحية والدول الراقية.

ياليتهم عقلوا واخلفوا لنا وريثاً لحكومة وطنهم الذي نرثيه الان ونبكيه بالدموع انما شاء ربك ان لا يعقلوا ...و بعد ان دونا العاطفة التي لا ريب من وجود مثلها في صدر كل لبناني فيه شرف المبدأ نرجع الى صدد كتابنا

بعد ان مضى على حصار الشام وقت قصير وردت الاخبار بوصول مصطفى باشا ومعه عدد غفير لنجدة درويش فتهللت وجوه وعبست وجوه

الفصل الحادي والثمانون

في رفع الحصار عن الشام

وكان من الامير لما علم بقدوم طلائع مصطفى باشا انه ارسل معتمداً من قبله الشيخ عز الدين وهو من عمال الدروز الى مصطفى باشا وانهى اليه هذا الكلام : ان درويش باشا محصور وان الامير منع رجاله من دخول المدينة احترازا من حدوث امر لا يرغب فيه ولولا ذلك لكان دخل المدينة وقبض على درويش باشا وساقه الى عكا لاسيما وقد سبق انه أساء معاملة الامير يوم نزل في جواره وعوضاً عن اجارة الملهوف ومساعدته

طلب منه تقديم مال طائل لقاء مرعي ماشيته وخيوله .. ولما كان عالماً بقدومك الى مساعدته رأى ان يقيم على حصاره الى ان تحل ركابك ارض الشام و يصل اليه امرك فيقوم مدحورًا من امامك ليزيد نفوذك عند الدولة و يخفض من نفوذ درويش باشا فتعزله الدولة وتعينك مكانه

وقد سر مصطفى باشا مما سمعه لانه كان خائفاً من الامير خوفاً شديداً — ولما وصل الى ضواحي الشام ارسل الى الامير يعلمه رسميًّا بوصوله من قبل الدولة ليعضد درويش باشا وامره برفع الحصار حسب وعده فصدع الامير بامره ورفع الحصار عن دمشق وصرف رجاله عنه ورجع الى مركزه وفي نيته امور تقتضي الروية و بعد النظر وبعد المداولة مع الشيخ بشيرجنبلاط في شؤونها قر رايه على الذهاب الى مصر لمقابلة محمد علي باشا وقد اخبر عبد الله باشا بذلك فوافقه على الذهاب

الفصل الثاني والثمانون

في قيام الامير الى مصر

وكان الامير سبق فكتب الى حنا البحري يطلب منه المساعدة على ايجاد صلة بينه و بين محمد علي باشا و كذا سبق من عبد الله باشا رسالة الى المشار اليه بها يسأله استعمال نفوذه لدى الدولة لتعفو عنه وتبقيه في مركزه

وفي نهاية معدات السفر اظهر للشيخ جنبلاط رغبته في تقديم الامير عباس ابن شقيقه لانه خاف من درويش ان يوجه حكومة الجبـل اذا فشل مسعاه في مصر الى امير معادٍ له

والامير عباس هو ابن الامير اسعد بن يوسف بن الامير حيدر الجد الاول لآل شهاب بلبنان الغربي

ومن ثم قام الامير بشير الى مصر ولما دخل على محمد علي باشا نال الحفاوة والاكرام منهُ وانزله محمد علي بالصعيد في قرية بني سويف احتراماً للدولة . وفي بضعة ايام ارسل محمد علي رسولاً من قبله الى الاستانة يلتمس العفو عن عبد الله باشا والامير معاً

الفصل الثالث والثمانون

في تعيين الامير عباس خلفاً للامير بشير

اما درويش باشا بعد ان رفع الامير الحصار عنه ووصول النجدة لهُ تمتع بالسلطة التي كاد ينزعها الامير منه وعبأ جنوده وتقدم الى البقاع فقدم الى مقابلته الامير عباس بعصابة من وجوه قومه واظهر لهُ عبوديته وصدق خدمته . فوجه درويش باشا اذ ذاك حكومة الجبل اليهِ واقامه مكان الامير بعد ان اخذ ميثاق الشيخ جنبلاط على تقديم مطاليب الجبل من جباية ورسوم اليهِ وكان في قرية قب الياس قلعة قديمة متهدمة فامر بهدم الباقي منها واقام عليها وكيلاً لينجز هدمها . ثم كتب الى الدولة عن انتصاره على الامير بشير وهدم قلاع لبنان وادخاله في دائرة حكمها

وعين الامير منصورًا حاكماً على راشيا وطرد الامير افندي منها ففرَّ بحاشيته ونزل بها على الامير عباس الذي اكرم وفادتهم

ثم وجه درويش باشا حكومة مرج عيون الى الشيخ علي العماد

وظلَّ في تبديل وتعيين الى ان اكمل رغبته في الجبل وامن عليه من العصاة وما بقي امامه الا عبد الله باشا فقصد عكا ورام ان يطلق آخر سهم في جعبته على سورها المنيع

الفصل الرابع والثمانون

في حصار عكا ثانية

ولما علم عبد الله باشا بقدوم درويش الى حصاره جمع رجاله من عرب واكراد فبلغ عددهم الفي رجل فوضع ثقته بهم على الدفاع عن سور المدينة وعبأ من المؤنة والذخيرة كل ما بلغت اليه يده

اما درويش باشا فنزل بعسكره في ابي عتبة على بعد ثلاثة اميال من عكا واشترك معه في الحصار مصطفى باشا والي حلب وبرهام باشا والي اطنة ومن اجتمع معهم من الرجال والفرسان

وكان المحاصرون في ذلك العصر لا يهجمون على المدينة ويقاتلون حاميتها بل كانوا

ينتظرون اخذها بدون عناء ولا مشقة فكانوا يلبثون على حصارها الى ان يفرغ زاد الحامية وتركن الى الفرار او التسليم

ولم يكن درويش باشا ليحترم هذه العادة المألوفة لو اكد لنفسه الغلبة ولكن الذي دعاه الى ذلك الاحترام مناعة عكا وقصر باعه عن الحاق الضرر باسوارها المشهورة

ولذلك ثبت مع مناصريه على حصار المدينة خمسة اشهر وهو لائذ الى السكينة ينتظر ان يفتح لهُ باب المدينة ليدخل بهِ ويتنعم بالسيادة عليها وكان جل ما يأتي بهِ اطلاق ثلاثة مدافع يومياً ويجاوبه بمثلها عبد الله باشا ولولا اعتقاده الديني لما تكلف الى طلق واحد فكان يطلق المدافع عند الغروب كما هي العادة الجارية عند حكام المسلمين الى يومنا الحاضر

وقد ملت الدولة فضلاً عن رجاله من تقاعده وعجزه الذي كان يظهر فيه يوماً عن يوم

الفصل الخامس والثمانون

في عزل درويش باشا

وبعد ان مضى على حصار عكا خمسة اشهر كما قدمنا ملت الدولة وسئمت من درويش باشا ومماطلته وربما كان الباعث على اظهار مللها منه نفوذ محمد علي باشا ورجال عبد الله باشا المخلصين له فارسلت وعزلت درويش باشا وعينت مكانه والياً على الشام مصطفى باشا الذي جاء لمساعدته وكان معه من المحاصرين لعكا ولما ورد الامر كان وقعه كالصاعقة على درويش باشا ورجاله وخصوصاً زعيم اليهود سلمون فارحي الذي هبطت مساعيه في الانتقام من عبد الله باشا ومات غمًّا على الاثر

ولما انتشر خبر تعيين مصطفى باشا والياً على عكا نزل اليهِ الامير عباس وهنأهُ بالولاية وفي الوقت ذاته التمس منهُ اصلاح الخلل الذي احدثه درويش باشا من تجزئة الجبل فوعده مصطفى باشا بارجاع حكومة الجبل الى ما كانت عليهِ قبلاً . ولما كان مصطفى باشا يعلم ان الامير عباساً ليس كفوءاً لضم شعث حكومة الجبل وليس عريقاً بالامارة اخبره انهُ ارسل يستحضر الامير بشيراً من مصر ليوليه حكومة الجبل كما كان عليها حاكماً قبل قيامه ظاناً ان الخبر يسره فكظم عباس غيظه وتظاهر بالسرور

واجتهد في اصلاح ذات البين بين امراء وادي التيم وقسم البلاد بينهم وعين النصف

منها للامير منصور والنصف الثاني عين حاكماً عليه الامير افندي وخطر على الامير افندي السكنى في عين عطا وسمح له اخيرًا ان يسكن في بكفيا وامر الامير منصورًا بالاقامة في راشيا ورتب للامراء الباقين معاشات على حسب رتبهم ومقدرتهم وكل ذلك على نفقة الشعب المسكين

اما الشيخ علي العماد الذي توجهت اليه حكومة مرج عيون فكان سيء التصرف ضعيف الادارة حتى ارغم مصطفى باشا على الحقد منه ومن تصرفه الفاسد واخيرًا لما رآه على ازدياد في تجرفه واستبداده وتصلفه امر بقتله وقيل ان السبب في قتلهِ هو عسره المالي وامساك يده عن رشوة الباشا كبقية الموظفين والله اعلم

الفصل السادس والثمانون

في رفع الحصار عن عكا

وظل مصطفى باشا محاصرًا لعكا بالعساكر الى ان مرَّ عليهِ اربعة اشهر علاوة عن المدة التي صرفها درويش باشا ولكن مرور هذه المدة على مصطفى باشا بدون جدوى لم تغضب عليه الدولة كما غضبت على درويش باشا بل كانت واثقة به . وفي نهاية الاربعة الشهور ورد من الدولة فرمان بالعفو عن عبدالله باشا وتجديد مدته واليًا على صيدا وامر لمصطفى ان يرفع الحصار عنه و يرجع الى ولاية حلب

وكان رسول الدولة بالفرمان والامر رسول محمد علي باشا الذي ارسله الى الاستانة فحضر بهِ الامير الى عكا حيث ناول الامر الى مصطفى باشا ورسول محمد علي نقل الفرمان الى عبد الله باشا

ولم يظهر من مصطفى باشا اقل ممانعة لدى ابلاغه امر الدولة في رفع الحصار عن عكا ورجوعه الى ولايته غير انه لم يكن لديه مال ليدفع رواتب الجنود فعرض للامير حاجته الى المال وكان من الامير انهُ بلغ عبد الله باشا ذلك وقدم له كمية وافرة سدد بهاعازته وعند ذلك تأهب مصطفي باشا للعودة الى مركزه و برح عكا في آخر اسبوع من الصيام الفصحي

الفصل السابع والثمانون

في رجوع الامير الى مركزه



الامير بشير الشهابي انكبير

وبعد قيام مصطفى باشا بايام معدودة امر عبدالله باشا الامير ان يرجع الى مركزه الاول ويقبض على ازمة حكومة الجبل

ولما كانت الدولة فرضت على عبد الله باشا غرامة الحرب واكلافها نصف مليون ليرة وقد سلخت عن ولايته اثناء الحصار طرابلس وغزة ويافا بعثت تطلب منه المال ووعدته في اعادة المدن الى ولايته اذا لم يطل عليه الوقت في تسديد طالبها

ولما كان الجبل خمس ولاية صيدا فرض عليه خمس الغرامة ولم يمهل الامير اياماً لوصوله حتى بعث يأمره بجمع المال وتوريده اليهِ وبين له رغبته في جمع القسط من الشيخ بشير جنبلاط اذا امكن وسبب ذلك ان الباشا لحظ على الشيخ المشار اليهِ ميله في اثناء الحصار الى درويش باشا

فجاوبه الامير باللطف وقال يكفي الشيخ جنبلاط دفع الثلث من الذي فرضته على الجبل وانعهد بتقديم الثلثين عند ما يتسنى لي جمعها من الاهالي

تأمل كيف يدفع الشعب المسكين نفقات الحروب حتى بين الاتراك انفسهم وما نفع الشعب من تنصيب هذا الوالي وعزل ذاك من الاتراك

فالشعب لم يشترك بالثورة على الدولة بل ظلّ يدفع الجزية والفيء ألا يكفيه ذلك حتى يغرم بدفع غرامة الحرب التي لا يد لهُ فيها ولا منزع كل ذلك كان يجري بفضل زعمائه الذين خيم الجهل على بصرهم وآثروا الضلالة على الهدى ودوس وطنيتهم على اعناق ذواتهم · ولو فضلوا الصالح العمومي على الخصوصي لاراحوا ذلك الشعب من اكلاف طائلة وكفلوا له استقلاله عن حكومة الاتراك

وعلى هذا النحو ارسل الامير الى الشيخ جنبلاط يطلب الف وخمسمائة كيس وامرَّ اليهِ اوامر عبد الله باشا وكيف انه اغفل اتعابه ومشقة سفره الى مصر لاجله واعلمه بما هو مطلوب منه · فقبل الشيخ وتظاهر بدفع القسط وشرع يورد منه الى الامير اقساطاً متتابعة

وكذلك الامير فكان عند ما يتوفر لديه قسط يرسله الى عبد الله باشا مع ميخائيل مشاقة

وكان عبد الله باشا يسأل ميخائيل مشاقة ان يفرز مال الشيخ جنبلاط عن بقية المال ويعلمه به فكان كل مرة يقدم الامير اليهِ قسطاً يسأل اولاً عن القسط المدفوع من الشيخ ويرسله الى دار الحريم ويجعله من مصروفه الخاص · وقد صرح لميخائيل مشاقة مرة انهُ حلل لنفسه صرف المال الوارد من الشيخ جنبلاط وحرم بقية الاموال لانها من ذميين مقبوضة منهم بوجه غير شرعي لا يجوز له التصرف بها · واعترضه مدير خزينتهِ الشيخ عباس ولكن عبد الله باشا دحض حجته واغلق عليه المسالك حيث قال له : هل يجب على الذمي شرعاً ان يدفع لنا غير مال الجزية فما بالنا نكلفه اشياء كثيرة سواها لا ناقة لهُ بها ولا جمل ألم يكن بالامس يقاتل معنا درويش باشا مجاناً الم يضح نفسه بخدمتنا ولاجل سعادتنا ألم يؤثر مصلحتنا على مصلحته وكان ساعدنا الاقوى في طرد الوهابيين من سوريا ويوسف باشا من دمشق بمدة ولاية عمنا الم يهلك منهُ عدد غفير في الحروب التي دارت رحاها لاجلنا · · وكل ذلك بدون ان يكون له دفع ضرٍ او جر مغنم · بيد ان الفرد منا لا يخدمنا باخلاص وصدق مالم يكن له منفعة شخصية وانت ايها الشيخ منهم اتريد ان نعاملهم بالقسط وعلى شريعة المشترع فتعود علينا الخسارة وعليهم النفع كما يتضح لذي بصيرة·

وكأن حصار عكا الاخير اثر باخلاق عبد الله باشا لان ما شاهده من رجال الجبل

من الخدمة وصدق المودة بعثاه على التساهل ودماثة الطباع · وحبذا لو علم رجال لبنان حقوقهم التي صرح بها الوزير امام واحد منهم وهو مخائيل مشاقة وهبوا من رقادهم وعززوها يداً واحدة

الفصل الثامن والثمانون

في ثورة الشيخ بشير جنبلاط

وبعد ان دفع الشيخ بشير آخر قسط من مال الضريبة التي وضعها عليه عبد الله باشا ارتحل الى راشيا والتجأ الى والي الشام لانه شعر بمقاصد عبد الله باشا وقد سأل والي دمشق ان يتوسط له ففعل وارسل له عبد الله باشا ميثاق الامان والصفح عنه وامره ان يرجع الى مركزه فرجع الشيخ الى محل اقامته يصحبه معتمد من قبل والي الشام عبد الله افندي وكان على جانب من الفصاحة وفي وصوله قدم الشيخ للسلام على الامير وكان من عادته ان يصحب معه في مثل هذه الظروف عدداً قليلاً من حاشيته · اما في هذه المرة فاصطحب معه ما ينيف عن الف رجل كأنه اصبح في ريب من الامير ولما رأى الامير هذا الاخلاف حنق عليه وعد ذلك اهانة لمنزلته وحطة في صدق مودته · ولما تظاهر الامير بما دعته اليه ظروف الحال تداخلت رجال الاديان بين الفريقين وكان شأنها ان توسع الخرق كما يقع لها في كل معضلة

وعقب ذلك ارسل الامير يطلب من الشيخ مبلغاً جسيماً من المال علاوة عن الذي دفعه فدفع الشيخ قسماً من هذا المبلغ وتوسط له مخائيل مشاقه في دفع الباقي اقساطاً وكانت الغاية التي رمى اليها الشيخ ان يجعل له فسحة يقوم بها من لبنان وهكذا كان لانه رحل في تلك الليلة عن دياره ولم يعلم به الامير الا في صباح الغد

ولم يكد الشيخ يتوارى عن لبنان حتى تتظاهر اخصامه بدعاويها العديدة واندفع للمدافعة عن حقوقه المحامي ابراهيم مشاقة وكان يدفع اكلاف الدعاوي من جيبه فضلاً عن اتعابه والوقت الذي تستغرقه

وتظاهر في هذه الاثناء الامير عباس بميله الى مناصرة الشيخ جنبلاط ولما درى به الامير ارسل مخائيل مشاقة يستطلع صحة الخبر فاكد له الامير عباس كذب الاشاعة ولكن الامير اصر على اعتقاده بصحتها وامره بجمع رجاله لمقاتلة الشيخ ان

شاء اعادة ثقة الامير به فتردد الامير عباس وكان عذره عجزهُ عن الشيخ جنبلاط ورجاله العديدين ولكن الامير لم ينثن عن عزمه فارسل فرقة من رجاله لمقاتلة الشيخ ففر هذا من امامها ولم يشاء مقاتلتها الى عكار . ونزل في هذه الاثناء على الامير مستجيرًا مصطفى اغا بربر من الدولة لانها طلبت اعدامه وارسال راسه لها. وفي اوائل سنة ١٨٢٦ وردت على الامير الاخبار عن اجتماع الامراء عباس وفارس وسلمان وحسن من آل شهاب مع مشايخ الدروز ال عماد وجنبلاط ينوون اشهار الحرب وكان اجتماع عقدهم في المختارة مركز الشيخ رئيس العصابة واجتمع لديهم من الرجال اثنا عشر الف مقاتل

فارسل الامير واعلم عبد الله باشا صديقه الحميم فامر للحال في اعداد فرقة لتبقى تحت اشارة الامير يقدمها له بقيادة ولده امين

اما عبد الله باشا فاعد فرقة وارسلها الى جسر الاولى تأتمر بامر الامير

ولم يسرع الشيخ بشير من عكار الى العصاة حذرا من ال عماد ان تغدر به

ولكن الامير أرسل ينهي العصاة عن الثورة و يحرضهم على العدول عنها الى السلام والالفة فلم يفلح غير ان بضعة من مشايخ الدروز مثل حموده وناصيف ابي نكد ومشايخ ال تلحوق انتبهوا له وحضروا الى بيت الدين وانضموا مع رجاله وانضم مصطفى اغا بربر مع رجاله وعددهم اربعون مقاتل وال حمادي من الدروز ورجالهم

ولكن العصاة ظلت تتكاثر من يوم الى اخر وانتقلوا من المختارة الى قرية السمقانية على بعد ميل واحد عن مركز الامير

ولما علم الامير باصرارهم على الثورة ارسل بشير القاسم واحضر جنود عبد الله باشا وكتب الشيخ ناصيف يستحضر خمسماية مقاتل من دير القمر وان يبقى بقية الجنود على حذر من ناحية الغرب من رجال مومي ارسلان جد الامير مصطفى ارسلان قائمقام الشوف الان

ولم تنتظر العصاة وصول الشيخ جنبلاط زعيمها فشرعت بالعداء وكانت الفاتحة سوء النزال فردهم الامير خليل بقيادة شرزمة قليلة من رجال الامير ثم تقهقر الى الوراء لما تكاثرت عليه العدد وعند ذلك امر الامير الشيخ ناصيف بالهجوم وهجم بقيادة الفرقة المؤلفة من رجال دير القمر واشتد القتال فتراجعت العصاة عن القرية الى الخلوة نصوين وتحصنوا بجدرانها ثم وصلت نجدة للامير من عبد الله باشا فدفعها الى ساحة القتال فابلت بلاء حسنًا واخيرًا ازاحوا العصاة الى المختارة بعد ان خلفوا قتلاهم وراءهم

واتفق وصول الشيخ جنبلاط الى المختارة واجتمع بهم واخذ بعد معدات الدفاع وفي ثاني الايام حضر الى الامير بضعة من مشايخ الدروز ورجالهم والتمسوا لانفسهم العفو فعفي عنهم وكان له بهم قوة عظيمة حتى انضم اليه من ال عماد وحدهم ما يربو على عشرة الاف مقاتل

وانضم اليه الامير حيدر برجاله وقد تعين هذا فيما بعد قائمقاماً على نصارى لبنان. وجاءه بضعة الاف من المتن والشوف والعرقوب والامير محمد الشهابي من قبل اخيه الامير سعد الدين حاكم حاصبيا وكانت غلاقة ما انضم اليه فرقة ارسلها عبد الله باشا مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل

الفصل التاسع والثمانون

في استفحال الامر

مضت ايام لم يحدث بخلالها تعدٍ او نزال كأن العصاة كانت تجمع شتاتها وتعد معداتها لوقعة رامت ان تجعلها الفاصلة ولما تيسر لها من العدد والعدد ماظننته وافيا لقهر الامير ارسلت فرقة بالف مقاتل الى قرية بعقلين ليداهموا بيت حمادي وقد سطوا على القرية تحت جنح الظلام والناس نيام واوقعوا بالاهالي على حين نجاة فعلا الصياح وتراكض اهل دير القمر انجدة بعقلين بقيادة الامير خليل وكان. العصاة قد علقوا النار ببعض البيوت وجدُّوا في اعمال قساوتهم بالاهالي ما استطاعوا لذلك سبيلاً ولكن لما وصل اهالي دير القمر البواسل وانضموا الى رجال الحماية والمدافعة تغلبوا على طرد العصاة ودحرهم

وفي صباح الغد خرجت رجال الدروز من المختارة بقيادة المشايخ الى سهل بقعاتا وظهر السمقانية فملأوا تلك البقاع على كثرة عددهم وشغلوا من الارض خمسة اميال لضم جوانبهم ولم يكن الامير من الذين يرهبون القتال او يبالون بكثرة العدد فقابلهم برجاله ولم يشأ ان يعاملهم بالقوة التي بيده حيث اشاروا عليه باستعمال المدافع تاكيداً لنصره على خصمه فابى وصرح ان في ذلك يذهب بانفس عديدة سوف يحاسب عليها امام الله وضميره ودارت رحى الحرب واشتد سعيرها من الفجر الى الغروب بدون

ان يكلل النصر فريقاً على الاخر وفي ثاني الايام صمم الامير على تبديد العصاة وتفريق قواهم ولو كلفه الامر اهراق دماء بضع مئات من رجالهم واصلاهم نارًا حامية لا تقل عن قنابل المدافع فعلاً وتأثيرًا وما زال يناضلهم ويحمل عليهم حملاته ورجاله تفتك بهم فتكاً ذريعاً الى اواخر النهار حيث هزمهم شر هزيمة وفرق جموعهم واستولى على قرية الجديدة وعبر نهر الباروك

الفصل التسعون

في تفصيل الواقعة ونتيجتها

في اوائل الواقعة ارسل الامير جنود عبد الله باشا على طريق الكحلونية الى الجديدة وتقدم جنود الجبل الى سهل بقعاتا على ظهر الجديدة اما الشيخ بشير جنبلاط رئيس العصاة فكان معسكرًا بالقرب من المختارة تجاه الجديدة في منخفض وبينه وبين الامير فاصل نهر الباروك

وفي ذلك النهار خرجت رجال دير القمر باجمعها حتى الحدث منها لم يقبل على نفسه الانزواء في الخدور عن القتال وكان شانهم مع العصاة رشقهم بالمقاليع ورميهم بالحجارة وكان يدربهم خليل عطية المهندس حتى ان اليهود شاركوا القوم وقاسموهم النصر

ومن هؤلاء الشجعان موسى شعبان واخوه ابو حسن وشمويل باروخ وهذا كان قائدًا على مائتي مقاتل ومن الذين ابلوا في العصاة بلاءً عجيباً مصطفى اغا بربر ورجاله فنالوا شكر الامير لهم والثناء على بسالتهم. والشيخ بشير ارسل فرقة من رجاله لمقابلة الحملة التي ارسلها الامير على طريق الكحلونية واشتبك بينهما القتال والمناضلة

وامر المشاة من رجاله ان تقابل مشاة الامير ولما كانت العصاة في منخفض امرهم الشيخ ان يتسلقوا الروابي حيث يلتقوا برجال الامير وما شرعوا بالصعود حتى امطرتهم حدثان دير القمر بالحجارة من المقاليع او تدحرجاً وكان ذلك النهار يوماً شديدًا على العصاة كما تقدم وانهزموا من امام الامير ورجاله . ولما شاهد الامير وهو يطاردهم النسوة الدروز لاحقة برجالها وهن بحالة محزنة تؤثر في الجوامد وعلم باخلاق جنود عبد الله باشا خشي عليهن منهم ولم يكن خوفه من رجال الجبل لانه اختبرهم وعرف شهامتهم حتى في اعراض اعدائهم فقد كانت لديهم ثمينة وعزيزة فأمر الجنود بالكف عن اللحاق

بالمنهزمين وهكذا حفظ حرمة العرض وحفظ له الاثر الحميد

وكان الامير يرسل الى عبد الله باشا رؤوس القتلى وهي عادة تقشعر منها الابدان لذلك لا نتوغل في تفصيلها على اننا نقول ان عدد القتلى بلغ المائة او ما يزيد عنها والله احصى لما في القلوب وهو اعلم

وفي ليلة الواقعة بعد انهزام العصاة قدم جماعة منهم الى الامير والتمسوا عفوه عنهم وكان الامير حليماً فعفى عنهم وامنهم على حياتهم

اما الشيخ بشير و باقي المشايخ والامراء فرحلوا عن لبنان في ذلك المساء وتفرقوا ايدي سبا

و بعد ذلك صرف الامير رجاله وارجع الجنود الى عكا وارسل لحجز على املاك آل جنبلاط واستغل حاصلاتها لان عبد الله باشا فرض عليها ثلثمائة وخمسين الف غرش كل سنة غرامة لبضع سنين وخمسين الف غرش سنوياً تقدم الى والدته وحرمه

ثم امر الوزير بهدم جامع المختارة الذي بناه الشيخ من جيبه لانه كان يرتاب باسلامه و يعده مذبذباً زنديقاً لادين له

وهدم قصره الذي انفق عليه اكثر من مليوني ريال عمودي

وهكذا اضعف اللبانيون بعضهم بعضاً وضحوا مالهم وارواحهم على مذابح الانانية ومهدوا للاجانب استعبادهم واذلالهم بينما اليونان بالمورة وجوارها تقاتل الدولة على حفظ وطنيتها واستقلالها عنها . . . وما منع اللبناني عن الاقتداء بها غير جهله وتعصب زعامته وحبذا الافادة من تكرار كلمة لو والتمني والتحسر ولو افادت لكررناها مراراً وابدينا عبارات التودد والتمني في اكثر مواقع كتابنا واستسمحنا القارئ في احتمالها و ربما كان اشد غيرة منا فاضاف الى ما اوردناه

الفصل الحادي والتسعون

في مجازاة زعماء العصاة

وكان من العصاة انهم اختاروا الشام ملجأً لهم فنزلوا في جوارها وكان واليها مصطفى باشا يراقب حوادثهم و يترصد زعيمهم . ولما بلغه حلولهم ضمن حكومته ارسل فالقي

القبض عليهم واحضروا الى مركز ولايته بعد ان تردد الشيخ بشير في التسليم ولكن الشيخ علي العماد اقنعه بالانقياد لامر مصطفى باشا وكان من جملة من القي عليهم القبض اولاد الشيخ بشير قاسم وحليم ومن آل عماد الشيخ علي وابن وسواهم ويقدمتهم الشيخ بشير . ولما مثلوا امام مصطفي باشا امر في حال وقوع نظره على الشيخ علي العماد باعدامه لحزازات بصدره قديمة فقطعته رجاله اربًا اربًا واودع الباقين السجن مثقلين بالقيود الى ان علم بهم عبد الله باشا فاستحضرهم اليه وامر بسجنهم وبعد ان مضى عليهم اشهر يقاسون مرارة السجن امر بشنق الشيخ بشير جنبلاط والشيخ امين العماد وبعد ان شنقوهما طرحوهما امام باب عكا عبرة وعظة

واولاد الشيخ قاسم وسليم بقيا مسجونين الى ان وفد الطاعون الى المدينة فماتا مطعونين

وعلم الامير بفر الامراء سليمان وفارس وعباس وحسن فقبض عليهم ووكل بعذابهم راهبًا مارونيًا فقطع السنتهم اولاً وسمل بصرهم ثانيًا . اما الشيخ علي العماد فرّ من سجن الامير ولكنه قضي عليه من اثر جراحه البالغة التي احدثها به رجال الامير وخصوصًا حضرة الراهب صاحب التقوى ولم ينج من زعماء الثورة غير الامير عباس — تلك كانت عاقبة من تمرد على مولاه جورًا والله صاحب القسط وله الحكم

وظلّ الامير يعدم كل من وقع بيده وكان له اصبع في الثورة فاعدم الامراء حسن وحسين بديعة واضطهد مشايخ آل شمس وآل قيس فتكبد اولئك عناء المدافعة عن براءتهم وهؤلاء لاذوا بالفرار لثبوت الجرم عليهم

الفصل الثاني التسعون

في ثورة نابلوس

وفي اواسط سنة ١٨٢٩ اعلنت الثورة في نابلوس التابعة لولاية الشام وعجز واليها عن اخضاع الثوار فرجع عنهم مخذولاً

ولما علمت الدولة بعجز والي الشام عن اطفاء جمرة الثوار في ولايته عهد الى عبدالله باشا بخضد شوكتهم فوجه عبدالله باشا فرقة من جنوده ومعها المدافع والمعدات الحربية المرهفة لمقاتلة الثائرين وعند ما التقت الجنود المنظمة بهم دارت رحي الحرب واشتد

القتال بضع ساعات كان النصر فيها للجنود فارغموا العصاة على تحصين القلعة فانسحبوا من ساحة الوغى وتحصنوا في قلعة صفد المشهورة التي كاد الجزار يعجز عن امتلاكها

وطال الحصار بدون جدوى حتى اظهر العصاة قوة وممانعة فائقتين وقتلوا من الجند عدداً كبيراً وتمكنوا من الاستيلاء على اعظم الذخائر وفتكوا بخفرائها مما استدعى انتباه عبد الله باشا الى التحذر وبدأ يفكر في ان العصاة ليسو ممن يستخف بهم

فارسل الى الامير بشير يستنجده على كبح شكيمة الثوارفقام الامير بالف وخمسمائة مقاتل وقام معه الشيخ ناصيف ابو نكد بالف واجتمع من الامراء والمشايخ لمعاضدة الامير ماينيف على خمسة الاف مقاتل بين فارس وراجل ولما وصل الامير الى قلعة صفد انضم الى عسكر عبد الله باشا وعهد اليه بقيادة الجيش

فكتب الامير الى رؤساء العصاة ونهاهم عن مداومة الكفاح وحذرهم وخامة العاقبة وضرب لهم موعداً للتسليم

وكان سبب هذه الثورة الضريبة التي فرضها والي الشام وامر بجمع مبلغها الفادح من الثائرين ولما عجز عن جمعها احيلت الى عبد الله باشا فتعهد للدولة بدفع الف كيس وامر بجمعها من اهل نابلوس ولما بلغتهم اوامر عبد الله باشا في توريد المال اجمعوا على الرفض وشقوا عصا الطاعة ولبث الامير ينتظر جواب رسالته الى ان فات وقت المجاوبة غير ان عدداً قليلاً منهم سلموا الى الامير ونالوا العفو اما جمهور الثوار فظلوا على عزمهم وتالب منهم عدد كبير حول معسكر الامير بضواحي قرية عجة ولم يشأ الامير قتالهم ظناً منه انهم ينتصحون بنصيحته ويعودون الى المسالمة

وحدث ان بضعة من رجال الامير قصدوا الاستقاء فخرج اليهم عصاة عجة وفتكوا بهم وكان من جملة هؤلاء التعساء اربعة من دير القمر من رجال الشيخ نكد ولما علم الشيخ بما حدث لرجاله استشاط غيظاً وامر بقية رجاله بالهجوم على العصاة وسحقهم ولم يقو على اتباع اوامر الامير واخذهم بالتي هي احسن فتقدم برجاله وصاح بهم دونكم واهل عجة الذين استخفوا بحرمتكم وبطشوا باخوانكم على غفلة وتمكن الشيخ من الدخول برجاله الى عجة وتفريق جموع العصاة غير ان العصاة كانوا اضعاف رجال الشيخ فتكاثروا ولموا شعثهم واستأنفوا القتال وكادوا ينتصرون ويخرجون رجال الشيخ من القرية لولم يقبل الامير برجاله ويعزز جانب الشيخ ويدحر العصاة الى الوراء . وعند وصول الامير حمل برجاله والفرقة التي ارسلها عبد الله باشا على العصاة وبددهم فولوا الادبار مخلفين عدداً

كبيرًا من قتلاهم واستباح عسكر الوزير النهب والسلب ولما علم الامير بذلك نهاهم عنه وكان من قتلى الامير ابن حمادي فارسل لوالده التعزية ورقاه الى المشيخة وبعد رجوع الامير عن عجة امر بضرب قلعة صفد بالمدافع والقنابل حتى استولى عليها وعفى عمن وجده حيًا من العصاة وجمع الفيء منهم وارسله الى عبد الله مع اعلام انتصاره

ثم عاد الى مركزه وصرف رجاله الامناء بعد ان اثنى عليهم ثناء جميلاً

الفصل الثالث والتسعون

في ثورة الدمشيقيين

في اوائل سنة ١٨٣١ وضع سليم باشا (خليفة مصطفى باشا) ضريبة جديدة على اهل دمشق المسلمين وكان مبلغها جسيماً نحو الفي كيس عن العقار فرفضوا طلب الوزير وشهروا عصانهم عليه . واذا كانت الضريبة عمومية وقرالراي العام على شدة وطأتها ولزوم ازالتها تعسر على الحاكم ارغام الشعب على قبولها فثار الدمشقيون على الوزير لما شعروا بالم الضريبة على السواء وارغموه على الالتجاء الى القلعة وقطعوا عنه الزاد اياماً سلم نفسه في اواخرها اليهم فسجنوه بغرفة واقاموا عليه الخفر وبعد ايام اوجسوا فيه ريبة لئلا يتآمر على زعمائهم سرًا فهجموا عليه يريدون اعدامه فدافع الوزير عن نفسه ولكن ماذا تفيده المدافعة وهو اعزل وحيد لانصير لهُ ولا حامية فاضرموا النار بجوانب الغرفة وقد فضلوا قتله حرقاً وظلوا يراقبون النار تاكل فريستها الى النهاية

ولبثوا بعد ذلك ينتظرون انتقام الدولة منهم لعلمهم بعملهم الفظيع

علم الدمشقيون ان عملهم جائروفظيع قبل ان يقد مواعليه وبعد ان فرغوا منه ولكنهم أثروا قتل الجور والاستبداد على الذل والسكينة ولم يرهبوا قوة الحاكم تجاه قوتهم والانسان العاقل عالي الهمة متى ادرك قوته واحس باثقال الضغط والذل نهض بكليته للتخلص من حبائلها فلا القيود تمنعهُ عن ابراز حقوقه ولا السلاسل تقدر على تقييده والضغط على افكاره

الفصل الرابع والتسعون

في تصلف عبد الله باشا

وفي اواخر سنة ١٨٣١ قدم جمهور كبير من فلاحي مصر الى سوريا هرباً من التجنيد والخدمة العسكرية واقاموا في غزة وضواحيها التابعة لولاية صيدا فاكرم عبد الله باشا وفادتهم وسهل لهم المعيشة فكتب اليه محمد علي باشا وطلب منه ان يرغم المهاجرين على العودة الى مصر

فلم يحفل عبد الله باشا بطلبه وجاوبه مستخفاً به فغضب محمد علي وكتب اليه رسالة يهدده اذ لم يجب طلبه و بالوقت ذاته بعث للامير واعلمه بقحة عبد الله باشا وكيف انه أنكر فضله عليه

فبعث الامير رسالة الى عبد الله باشا يرشده بها الى ملاطفة محمد علي واكد له سطوته وقوته

ولم يكن من عبد الله الا الاستخفاف والمظاهرة بمناعة عكا وكيف انها ردت قواد العالم خائبة واستشهد باسماء الذين حاصروها ورجعوا عنها بالفشل والخيبة فذكر درويش باشا ومصطفى و برهام واستطرد وقال : اذا كان نابليون الاول اعظم قواد العالم عجز عن امتلاكها فهل يقدر محمد علي باشا عليها ؟ هل هو اقوى من نابليون ؟ وغفل عبد الله باشا ان نابليون ما رجع عن عكا بالفشل انما دعته اسباب الى تركها فضلاً عن ان قوة الانكليز البحرية كانت العاملة على صد هجماته وحجرت عنه المدافع وجانباً عظيماً من الذخيرة

ولما وصل جواب عبد الله باشا الى محمد على باشا ازداد غضبه وامر بالتاهب واعداد الجنود لمحاربة عبد الله باشا واخضاع ولايته خصوصاً وسوريا عموماً . وكان محمد علي ينوي اكتساح الدولة التركية وانشاء دولة عربية فجاءت معاملة عبد الله باشا له معجلة لتحقيق غرضه

الفصل الخامس والتسعون

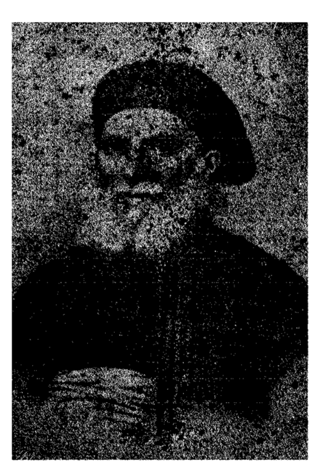
في قيام ابراهيم باشا

وبعد ايام قلائل خرجت الجنود المصرية من مصر بقيادة ابراهيم باشا بن محمد علي

باشا حتى وصلت غزة وظلت سائرة كان لم يحدث لها معترض فاستولت عليها واستطردت السير ولما علمت الدولة بقدوم الجنود المصرية الى سوريا طيرت اوامرها الى مأموريها وامرتهم بالتعاضد على طرد العدو من بلادهم واشهرت الحرب على محمد علي في سوريا

وهبّ عبد الله باشا بعدّ معدات الدفاع ويحث رجاله على الثبات والمدافعة عن شرفهم . اما الامير فاظهر ميله الى ابراهيم باشا ونصح للشيخ حسين الهادي حاكم نابلوس ان يرحب بابراهيم باشا ويظهر له الاكرام وبعث الامير سعد الدين رسالة الى الامير سأله رأيه فاشار عليه بالبقاء موالياً لوالي الشام الى ان ينفذ الامر بعكا

وقد انتشر خبر وصول الاسطول المصري وقدوم ابراهيم باشا بعساكره الى عكا بوقت واحد .



ابراهيم باشا

الفصل السادس والتسعون

في ضرب عكا بحرًا

وعند ما وصل ابراهيم باشا لصحراء عكا بعث الى الامير بشير فاستقدمه اليهِ مع رجاله ومن ناصره وتداول معه في كيفية الحصار

ولما وصل الاسطول المصري المؤلف من اثنين وعشرين سفينة حربية انقسم الى ثلاثة اقسام وشرع يهطل على القلعة قنابله

وكانت القلعة تقذف عليه نارًا آكلة ودامت الحال سحابة ذلك النهار وعند الغروب اقلع الاسطول من مياه عكا ولم يترك له اثرًا في قلعة المدينة غير ان قنابل القلعة احدثت بهِ تعطيلاً عظيماً لذلك كفَّ عن الحرب ورجع الى حيفا مخذولاً

الفصل السابع والتسعون

في حصار ابراهيم باشا عكا

ولم يكن انسحاب الاسطول من مياه عكا ليضعف همة المصريين او يزعزع اعتقادهم في الغلبة على اسوار عكا المنيعة ففي ثاني الايام بدأوا بحفر الخنادق واقاموا المتاريس نصبوا عليها المدافع و بطارية الحصار لقذف القنابل الحامية وا كملوا معداتهم كلها تحت جنح الظلام وقاية لانفسهم من نيران المدينة وعند الصباح اصلوا القلعة نارًا آكلة ولم تكن نار الحامية بأقل وطأة وواصلوا القتال ليلاً ونهارًا وكانت النجدات تصل الى ابراهيم باشا من مصر بالتتابع

وكان مع ابراهيم باشا قواد من اهل الدراية والخبرة و بينهم مهرة بالفنون الحربية الحديثة فضلاً عن المهندسين الذين يعلمون كيف تؤكل الكتف

وكانت حامية المدينة ثلاثة آلاف مقاتل قد حنكتهم الايام ودربتهم على الشجاعة والثبات

وكانوا يخرجون الى خارج السور ليحملوا الجنود المصرية على الهجوم عليهم والاقتراب من المدافع فلم يفلحوا لان قواد الجند المصري ادركوا هذه الالعوبة

وكان عدد الجيش المحاصر ثمانيـة عشر الف مقاتل واربعة آلاف فارس معهم اربعون مدفعاً وعدة بطاريات

وحدثت في احد الامساء صيحة في الجيش المصري سببها ثمانية رجال من اهل نابلوس اخترقوا صفوفه وقد اشهروا سيوفهم على الخفراء ومن اعترضهم ولم يشأ احد من الجند ان يرميهم خوفاً من ان يوقع العطب بسواهم لذلك تمكنوا من الدخول الى المدينة وعلا صراخهم

الفصل الثامن والتسعون

في قيام ابراهيم باشا الى طرابلس

ولما نزل الامير عكا وانضم الى ابراهيم باشا برجاله على حصارها لم يرَ ابراهيم باشا من الحكمة اخلاء مكانه بدون حامية تعززه مدة غياب الامير عنه فارسل يعقوب بك بفرقة من الجند الى دير القمر وامره بالمحافظة على الامن وراحة الاهالي

ورأت الدولة بعد حصار عكا بمدة قليلة ان ترسل والياً على طرابلس فارسلت عثمان باشا اللبيب حاكماً على تلك المقاطعة

ولما علم ابراهيم باشا بقدومه قصده وطرده من المدينة وعين مكانهُ حاكماً من قبله يصدع بامره ومن طرابلس قام الى حمص ومن حمص الى معلقة زحلة ومنها رجع منتصراً الى عكا واجتمع بمعسكره

ولما استقرَّ بالدولة المصرية المقام في سوريا ونشرت اعلامها على ربوعها ارتحل مشايخ نكد عن لبنان وانضموا الى الدولة

ولم يمض على حصار عكا زمان حتى ارسل محمد علي تفويضاً الى حنا البحري في سن النظامات لحكومة سوريا على النمط الحديث وكان حنا البحري على جانب عظيم من اصالة الرأي وله القدح المعلى في السياسة المدنية

فرتب مجالس الملكية والمدنية والعسكرية واقام لها مجالس شورى وغيرها من النظامات الحديثة ثم رتب المالية ووضع نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرعية امام القانون على السواء . وكان يعامل الرفيع والوضيع معاملة لا تفاوت فيها ويعطي لكل ذي حق حقه

وكان العدل والانصاف شأنهُ والنزاهة زمامه لا فرق عنده بين القوي المثري والضعيف الفقير او المسلم والذمي وكان يعاملهم بالقسط والعدل حسب وصية محمد علي باشا الذي كان عارفًا ان لا قيام للدولة الاَّ بالعدل والانصاف

وهذا النظام وان يكن عادلاً وشريفًا فقد كان باعثًا قويًّا على كره الامراء والمشايخ للمصريين حيث كف يدهم واوقف مطامعهم عند حد لا يمكنهم اجتيازه وامات استبدادهم بالشعب وجعلهم امام الشريعة سواء لا امتياز ولا فرق بينهم و بين افراد الرعية فحنقوا على الدولة المصرية وودوا ازالتها وارجاع الحكومة التركية

والانسان ابن مألوفه اذا الف عادة قبيحة كانت اوحسنة وأُرغم على تركها كدره ذلك ولو كان فيهِ فائدة لهُ محسوسة . قابل نظام هذه الحكومة بالنظام الذي كان دستورًا للعمل قبل فتوحها المذكور باول هذا الكتاب تعلم لماذا كان الحنق على المصريين شديدًا

الفصل التاسع والتسعون

في انتصار ابراهيم باشا على عكا

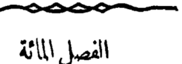
ولما علمت الدولة بما احدثه ابراهيم باشا في طرابلس من التبديل ارسلت فرقة كبيرة الى والي حلب انجه بيراقدار باشا وامرته ان يتقدم بها الى انقاذ عكا من الحصار فقام برجاله الى حمص ومنها الى تل بني مندو تحت قرية القصير بالقرب من حمص على شاطىء العاصي ولبث هناك ينتظر وصول الفرقة من الاستانة

ولما علم بهِ ابراهيم باشا ارسل فرقة كاملة كمنت لهُ في معاقة زحلة ولكن بيرقدار باشا رغب البقاء في مكانهُ ولم يخط خطوة الى الامام كأنه كان ينتظر قدوم مدينة عكا اليهِ ليدافع عنها

وفي اول جمادى الثانية ردم ابراهيم باشا خندق المدينة وهجم بجنده على اسوارها ولاقته الحامية وصدته في باديء الامر وكرر هجماته وحرض رجاله . وفي العشرين من ذلك الشهر خطب فيهم خطبًا حماسية ذكرهم بفتوحاتهم وانتصاراتهم العديدة ومقامهم بين جنود العالم واستخف بخصمهم الحاضر وقال لهم «ان رجوعكم عن حامية عكا الضعيفة يجلب

عليكم العار و يحط باسمكم الرفيع الى الحضيض وحاشا للجند المصري ان يوصم بهذه الوصمة بعد أن رافقه النصر في كل حروبه واثبت للعالم انه من انجح الجنود واقدرهم على الثبات في ساحة النزال فكيف يرجع عن عكا مخذولاً ويرضى بالاهانة والذل فهو لا يرضى ولن يرضى ان شاء الله ... دونكم ايها البواسل هذا السور المتداعي » وامرهم بالهجوم واحتدم القتال وفتحت جهنم ابوابها وكان اول من تسلق السور على ظهر جواده سليم بك او نز بير اميرالاي الطوبجية ولحقه ابراهيم اغا الرشماني من دير القمر مدرب فرسان لبنان ولكنه اصيب برصاصة جندلته . وكان ثالثهم ابراهيم باشا وعند ذلك تكاثرت الجنود على السور الاول الخارجي حيث لاقته الحامية على السور الداخلي واشتبك القتال ساعات اسفرت في زوالها عن نصر ابراهيم باشا فدخل عكا ولم يبق من الحامية غير ثلاثماية وخمسين مدافعاً . وقبض على عبدالله باشا وارسله الى مصر وكان عدد القتلى يفوق الحصر وزادت الوفيات بين الجنود بسببها

ولما وصل عبد الله باشا الى مصر اكرمه محمد على واحسن وفادته وسعى في ان يقضي بقية ايامه في الحجاز فذهب اليها ومات هناك



الفصل المائة

في قيام ابراهيم باشا الى الشام

تم لابراهيم باشا الاستيلاء على عكا وقد حفظ له التاريخ ذكرًا لا يزول على توالي الايام وبعد ان راقت له الاحوال امر بترميم ما تهدم من القلعة واصلاح ما احدثه الحصار على المدينة من التخريب واعاد اليها كل ما نقصها من المدافع واقام لها البواسل المشهود لهم بالقوة والشجاعة ولما اتم اصلاحاته جمع رجاله وقام بهم الى دمشق ولم يترك الامير بشيرًا وراءه فطلب منه ان يقوم معه فاستحضر الامير عددًا من رجاله واعلم امراء حاصبا وراشيا الشهابيين بشخوصه مع ابراهيم باشا الى الشام وطلب منهم ان يرافقوه اليها

وكانت الدولة عينت علو باشا واليًا على الشام خلفًا لواليها الاول الذي ذهب ضحية الجهل والقساوة فلما بلغه قدوم ابراهيم باشا اليه جمع عشرة آلاف مقاتل وخرج بمقدمتهم الى خارج المدينة ولبث ينتظر وصول ابراهيم باشا وعسكره

ولما اشرف عليهم ابراهيم باشا استكشف عددهم وقوتهم بالنظارة التي كان يستعين

بها في مثل تلك الظروف فاطلع على مركز الاكراد منهم ومركز رجال دمشق وامر فرسان العرب المناديين بمقاتلة الاكراد وبقية الجند حوله لمقاتلة رجال الشام وأوصاه ان لا يصيبهم بل يستعمل الطلق الارهاب . وعند اقتراب الجيشين دارت رحى الحرب وقد استغرب الدمشقيون سرعة الطلق وكان جديداً على سمعهم فوقع بقلوبهم الخوف وولوا الادبار

اما الاكراد فقاتلوا قتال الشجعان ولكنهم لم يقدروا على الثبات طويلاً حتى انهزموا واقتفى اثرهم الفرسان وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ولما رأى علو باشا ما حل بعسكره طلب النجاة لنفسه فالتجأ الى الفرار ودخل ابراهيم باشا المدينة ولم يسمح لعسكره بنهبها والتعدي على راحة اهاليها

وقبض على ازمة الاحكام مدة حتى راقت الاحوال وصفت الاكدار وعين والياً عليها احمد بك ربيب كورد يوسف باشا المتقدم ذكره في حينه وسال المعلم بطرس كرامة ان يؤلف مجلس شورى واصلاح ما يجده مخلاً في النظام القديم ونهض بعد ذلك في شهر صفر الى القطيفة وارسل الامير ومعه الامراء الى قرية عزار ومنها الى قرية الدرعطية وانتقل ابراهيم باشا للنبك وهنا توسط الامير بالعفو عن اعيان دمشق الهاربين في ابان المعركة وبعدها فعفى ابراهيم باشا عنهم وعادوا الى مساكنهم — ومن هناك قام الى حيثية فطريق القصير فتل بني مندو ولم يقابل عسكر الدولة فيها لانه رجع الى حمص عند ما بلغه فتح عكا وكان العسكر المصري مؤلفاً من المشاة احد عشر الفاً ومن الفرسان الفين ومن الفرسان المنادي ثلاثة آلاف وثلاثة واربعين مدفعاً وبطارية وكان معه عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا وابن اخت محمد علي احمد باشا فضلاً عن الامير بشير ورجالة الاشداء

الفصل الحادي والمائة

في شخوص ابراهيم باشا الى حمص

في وصول ابراهيم باشا ونزوله تجاه بني مندو وصلت اليه نجدة عن طريق معلقة زحلة وطرابلس الشام ونجدة من الجند المصري مؤلفة من ستة آلاف مقاتل واصبح عسكره يناهز العشرين الفاً والمتعارف ان جند الاتراك بحمص لا يزيد على سبعين

الف مقاتل فاجتمع ابراهيم باشا بقواده وتداول معهم في كيفية الهجوم

فارسل فرقة من الفرسان الهنادي فيمنتصف الليل لتتقدم الجيش وتستطلع مواقع العدو وقوته ما امكنها لذلك سبيلاً

وقسم المشاة الى ثلاثة اقسام جعل المسافة بين القسم والقسم ميلين وفي مقدمة القسم قائده تتقدمه ثلاثة صفوف من رجاله

وجعل الامير بشيرًا ورجاله بالقلب والخفر على الذخيرة في مؤخر الجيش واقام على الميمنة عباس باشا وعلى الميسرة احمد باشا

وعلى هذا الترتيب زحفت الرجال على ألحان الموسيقى وكان المنظر جميلاً شائقاً في تلك السهول الفسيحة · وعند منتصف النهار وصل الجيش الى قربة قطينة التي تبعد عن حمص ثلاثة اميال و بسط الجند جناحه لجهة نهر العاصي الشمالي الغربي وصعد ابراهيم باشا الى تل قطينة

وامر الامير ان يقوم برجاله الى الميرة فاحتل المكان ونزل به مع رجاله للراحة في ذلك النهار

ورجعت الفرسان التي تقدمت الجيش ومعها الاسرى ورؤوس القتلى و بلغ ابراهيم باشا ان العدو معسكر بالقرب من تل بابا عمر ومعه مدافع عديدة اقامها على قمة التل

ولما علم ابراهيم باشا على الوجه الاقرب قوة خصمه ومركزه اعد للنزال معداته

الفصل الثاني والمائة

دخول ابراهيم باشا مدينة حمص

اصطف الجيش المصري صفًا واحدًا وعلى طرفيه الفرسان والمدافع وعلى ألحان الموسيقى هجم على عسكر الاتراك المنظم الذي قيل انهُ مؤلف من سبعين الفًا وحمي سعير الحرب وابلت فرسان الهنادي بلاء حسناً فكانت تصول وتجول يمنة ويسرة وتجندل وتفتك بالاتراك فتكاً ذريعاً والجند المصري لا تفتر لهُ همة عن التقدم وارغام العدو على التقهقر وكلما تراجع عن مركزه تقدمت الفرسان و بقية الجند وتتبعته واعملت بقفاه وهجم الاتراك على ميمنة الجيش المصري فصدهُ عباس باشا بالقنابل واصلاهم نارًا حامية واضطرهم الى الرجوع والانسحاب · وظلت الحرب قائمة على اشدها

والجند المصري يطارد العسكر التركي الى ان دحره وفرق قوته فولى الادبار وخلف وراءه قتلاه الكثيرين واسرى لا يقلون عن القتلى عدداً

مع ان الاتراك اظهروا العجائب في ثباتهم وشدة شجاعتهم ولكن النصر اذا قدر لفريق ناله ولو بعد حين

ولما تقرر النصر لابراهيم باشا تقدم الى مدينة حمص وقبض على ازمة حكومتها وامن اهاليها

الفصل الثالث والمائة

في تعيين الامير بشير حاكماً على حمص

في صباح الاحد دخل ابراهيم باشا حمص وتولى حكومتها ولم يمكث فيها غير ذلك النهار لانهُ لم يقبض بعد على بيرقدار باشا وعزم على مطاردته واللحاق بمن كان معه من الوزراء وتمكنوا من الفرار قبل ان تصل يده اليهم وعين الامير بشيرًا واليًا على حمص وفوض اليه الحكومة وسأله الانصاف باعماله ومضى مجدًّا وراء ضالته

ولما تربع الامير في كرسي الولاية تفحص الاسرى فوجد بينهم ثمانماية ارمني فاطلق سراحهم وارسلهم الى مطران الروم وبقية الاسرى من العسكر التركي ارسلهم الى عكا بعهدة الشيخ حسن تلحوق

اما مجاريح الجيش فعهد بهم الى عناية الاطباء

وامر مدعي العموم ان يواري القتلى التراب بالاقرب الممكن لان الهواء الاصفر الذي كان ضاربًا اطنابه في تلك البلدة زادت وفياته كثيرًا

وعهد لمخائيل مشاقه ضبط متروكات الوزراء وكانوا قد هجروا خيامهم بفرشها واثاثها حتى ان كاتب الاسرار ترك دوانه وادوات الكتابة والورق مبعثرة على الارض مما يدل على انهم غادروها على غرة ووجد كثيرًا من الثياب الثمينة واقمشة فاخرة واغرب ما عثر عليه كمية كبيرة من البن الحجازي تكفي مدينة غاصة بالسكان اشهرًا

ولا مشاحة ان مدينة حمص جيدة التربة متسعة الاراضي معتدلة الهواء تكتنفها قرى كثيرة لكن اهمال اهاليها وعدم اكتراث حكامها جعلها متداعية الى الخراب وبعد الاصلاح فلما تزورها حيث كانت عرب البادية تتردد عليها وتسلب مايقع بايديها ،

و يبلغ عدد سكان مدينة حمص عشرين الف نفس ربعهم نصارى اكثرهم روم ارثوذكس وقليل منهم كاثوليك والبقية اسلام و يغلب عليهم السذاجة وقصر نظرهم في غور الامور ومما يدعم قولنا ما نقصه عليك بما يلي :

دخل بعضهم على الامير وساله ان ينظر في حالة بضعة اشخاص لم يزالوا بين كراديس القتلى فذهب مخائيل مشاقه اليهم مع احد المأمورين الى محلة بالقرب من تل باباعمر فوجد ثمانية رجال اربعة منهم جثث هامدة والاربعة الباقون مشخنون بالجراح فقصوا عليه سبب جراحهم وموت رفاقهم وانهم نظروا الى قنبلة وقعت بالقرب منهم فتقدموا اليها فرأوا فتيلتها لم تزل عالقة وكان منهم ان لمسوها بيدهم وصاروا يقلبونها من جانب الى آخر حتى دنا وقت انفجارها فانفجرت وجندلت اقربهم اليها وعطبت ابعدهم عنها وجرحته جروحاً بالغة تنذر بالخطر

الفصل الرابع والمائة

في وصول ابراهيم باشا الى حلب

استطرد ابراهيم باشا سيره وظل يتنسم اخبار المنهزمين و يطاردهم من مكان الى اخر وقبل ان يشرف على حلب التقى بحسن باشا في طريقه اليه ومعه جيش عظيم مؤلف من اربعين الف مقاتل ولكنه لم يقف عثرة كبيرة امامه لانه بعد معركة هائلة انهزم من وجه ابراهيم باشا فواصل ابراهيم مسيره حتى دخل مدينة حلب بدون معارض وبعد ان رتب احكامها وعين حاكماً عليها واقام والياً على ايالة اورفة تقدم الى الامام فاستولى على اطنة بدون محاربة كأن انتصاراته المتلاحقة اوقعت الرعب في قلوب الاتراك وقام من اطنة الى قونية ففر واليها من وجهه فدخلها و بسط حكمه على ربوعها ولما كثرت فتوحاته قلت رجاله لانه كان يخلف منهم عدداً في كل ولاية دخلها فضلاً عن ان الهواء الاصفر والحروب فتكت بقسم منهم وفي اواخر سنة ١٨٣٢ بقي معه من الجند اثنا عشر الف ومع ذلك ظلت نفسه تحدثه بالتوغل الى الامام ومطامعه تحسن له الاستيلاء على القسطنطينية كأن الانسان متى خدمه الزمان وذلل له الصعاب يتوسع بمطاليبه ولم يعد يهتدي الى السكينة ولا يطيب له البقاء على ما حصل ما عليه من المجد والابهة فيطلب الزيادة و يجدد طلبه كلما بلغ وطره وذلك طبع خلق فيه و يموت عليه والله الهادي

الفصل الخامس والمائة

في استيلاء ابراهيم باشا على كوتهيا

لا نسترسل في تفصيل ما حدث لابراهيم باشا في طريقه الى كوتهيا من المشاق بل نأتي بالالماع الموجز لما اعترضه من العوائق وكيف ذلل القوات المضادة له قام من قونية بعسكره واستطرد في المسير الى كوتهيا ولم يبعد عن قونية مسافة بعيدة حتى التقى بالصدر الاعظم وعساكره الجرارة وقيل ان عساكره ماية وخمسون الف محارب فاشتبك القتال بين الجيشين على ما بينهما من التفاوت بالكثرة وحمي وطيس الحرب سحابة ذلك النهار بدون ان ينتصر فريق على الاخر. وفي ثاني الايام عادت الفرسان الى الكفاح واستبسلت رجال ابراهيم باشا اي استبسال حتى تغلبت بعددها القليل على عساكر الاتراك وارغمتها على الانسحاب من ساحة الحرب فانهزم معظم الجيش ووقع الصدر الاعظم اسيرًا بيد ابراهيم باشا وتفرقت بقية رجاله وكان الصدر الاعظم شجاعًا محنكًا ولم تجده شجاعته نفعًا ولا ردت عنه مقدورًا امام اعظم قائد في الناشئة الاسلامية بعد خالد بن الوليد وكان مع الصدر الاعظم فون ملتك القائد الشهير فولى الادبار مع المنهزمين وايقن ان في الشرق رجالاً مثل نابليون الاول واعظم وابراهيم باشا نابليون العرب الاول في القرن التاسع عشر

ويقال ان ابراهيم باشا دخله الريب في قوته القليلة عند ما استطلع القوة التي تعضد الصدر الاعظم واكد لاول مرة في حياته فشله ولما لحظ ارتباكه سليمان باشا الفرنساوي الذي شاهد حروبًا كثيرة ورافقت نابليون با كثر فتوحاته تقدم منه ونزع من قلبه الخوف الذي كاد يستحوذ عليه واكد له الانتصار وذلك ما تم له

وعاد ابراهيم باشا الى كوتهيا بعد ان ارسل اسيره الصدر الاعظم الى مصر

وفي وصوله الى كوتهيا دخلها بدون معارضة لان خبر انتصاره بجيشه القليل على الصدر الاعظم اوقع في قلوب سكان المدينة وما يجاورها من المدن والقرى رعبًا عظيمًا فمكث ابراهيم باشا في كوتهيا اياماً معدودة للراحة له ولرجاله وقام عنها بعد ان خلف فيها حاكمًا ويمم الى الاستانة

الفصل السادس والمائة

في رجوع ابراهيم باشا الى سوريا

وبلغ ابراهيم باشا وهو على مقربة من دار الخلافة الاسلامية نداء الدول الاروبية وخصوصاً فرنسا وانكلترا يشرن عليه بالوقوف وعدم التقدم الى الامام ريثما يصله امر والده من مصر واوقفته على المخابرة الجارية بين والده والدولة العثمانية على تسوية الخلاف الحاصل بينهما

فلبث ابراهيم باشا مكانهُ ينتظر ورود الاخبار فلما وردت اليه اشاع وقوع الصلح وحدوث الاتفاق بين الدولتين وابقت الدولة بيده فتوحاته في بلاد الاتراك وسوريا وولاية اطنه فعاد ابراهيم باشا عن الاستانة الى سوريا رافلاً بحلل النصر وساد السلام على ربوع البلاد

الفصل السابع والمائة

في تعيين شريف باشا حاكماً على سوريا

انتخبت الدولة المصرية لمنصة الاحكام في سوريا شريف باشا وهو نسيب محمد علي باشا وقد اتصف بالاستقامة وحب الفضيلة فقدم الى دمشق وقبض على ازمة الاحكام

وشرع في ادارتها بالعدل والانصاف وانشاء دواوين ومجالس اقتداء بالدول الاوروبية وجرى على منوالها في كل ايام حكومته

وكان عادلاً مع صرامة وشدة حتى انهُ كان يعاقب المذنب باكثر ما يستحقه وكثيرون ماتوا تحت الضرب المبرح

وكانت اعمال المجالس وتقارير اصحاب الدعاوي تدون بكل دقة وضبط ليس كما هو جارٍ في سوريا الآن ولم يكن شريف باشا مطلق التصرف بالحكومة او مميزًا عن اعضاء مجلسه بل كان كواحد منهم وعين يوحنا بك البحري رئيساً ورقيباً اول لاعمال المجلس وكان الذي يوافق عليه البحري يعمل به والذي يعترض عليه يرجعه الى المجلس ينظر فيهِ ثانية .

وحكومة مثل هذه فيها خدمة امناء منزهون أظهرت العدالة واعطت مال قيصر لقيصر وعرفنا حنا البحري من الفصول المتقدمة وثقة عزيز مصر به وكيف انه اطلق له حرية القول والتحوير في بنود الحكومة

وقضت الدولة المصرية مدة لادخال الاصلاح الذي رسمته امامها الى سوريا للتفاوت الكائن بين ما تريد احداثه وما كانت عليه البلاد سابقاً ولا يخفى ان الدولة الفاتحة تعاني صعوبات جمة ببسط اعلامها وادخال عاداتها الى بلاد غريبة عنها ولا اعتراض على ذلك

وقد اضطرت الدولة المصرية ان تحدث ضرائب جديدة متباينة بتباين قوى الافراد المالية وجعلت اقلها خمسة عشر غرشاً واعظمها خمساية غرش على الفرد من الرعية وكان الريال العمود يساوي خمسة عشر غرشاً وأحدثت هذه الضريبة الفردية تشويشاً وقلقلة في جو سوريا وفضاها الواسع كما ترى في الفصل الآتي

الفصل الثامن والمائة

في ثورة الاهالي على اثر الضريبة

ابتسم وجه الضعيف للدولة المصرية لانه شعر برفع حمل ثقيل كان يئن انيناً محزناً تحته ولا مجير له منه واصبح صوت المستغيث المتقطع يبلغ اذان الحاكم ولو على مراحل عديدة بعد ان كاد يذهب بالفضاء ويتلاشي عنصره ولا اثر له وعاد نداء المظلوم والمهضوم وكل من لحقه من حيف او ضغط يجاب عليه ويعمل به وكان قبلاً منبوذاً محتقراً

واصبح القوي الذي جمع قواه بتفريق قوى الفقير مذلولاً ومجرداً من قوته والمستبد ارغم على التنازل عن عرشه وتساوت منزلته بمنزلة من كان يعتبره احط منه كل ذلك تغلبت الدولة المصرية على نشره وتاييده مع ما فيه من المشاق والمتاعب وقد قاومت العناصر المضادة اشد المقاومة واعطت لكل فرد ما يستحقه ومع ذلك فلما وضعت الضريبة الفردية قام الشعب عليها وقعد

ولا ريب ان الطلب كان صعباً جداً على المسلمين والنصارى على السواء خصوصاً سكان القرى الفقراء الذين يؤدون للدولة الجزية عن اعناقهم والخراج والفيء عن

عقاراتهم واملاكهم فتذمر المسلمون وحسبوا الدولة المصرية تكلفهم دفع الجزية كالذميين ولم يفقهوا ان الدولة المصرية دولة فاتحة خارجة من حرب شهرتها عليها الدولة العثمانية وكلفتها اموالاً طائلة فاصبحت باحتياج كلي الى المال ورد ما فقد منها وابوا ان يدفعوا ثمن العدالة والحرية والتمدن التي اخذت الدولة المصرية في ادخاله ونشر اعلامه بينهم قيمة زهيدة لا تفوق طاقة الفرد منهم وقد فضلوا الرجوع للهمجية والذل لرؤساوهم والاستعباد لهم على بذل دريهمات لاستقلالهم والتخلص من مضطهديهم وآثروا قرض الدولة العربية التي هب محمد علي باشا لانشائها واحياء تمدن العرب القديم واعادة الدولة والخلافة الى آل قريش عن مساعدتها وشد ازرها وهم اولى بعضدها فعمدوا للمؤامرة وخلع الطاعة والثورة عليها ورد سلطة الاتراك عليهم

ومن الذين لا طاقة لهم بدفع الفردية من الذميين سكان حاصبيا لانهم كانوا في فقر مدقع ولما ورد امر شريف باشا للامير سعدالدين امير حاصبيا بجمع الفردية من رعيته وقع في حيرة وتردد في كيفية المجاوبة عليه . كان يعلم ان طاعة اولياء الامور فرض مقدس واقدس منهُ احترام صالح رعيته . فامر ميخائيل مشاقة بالذهاب الى الشام واطلاع شريف باشا على حالة الشعب المالية وكيف انهُ يخشى اذا اجبرهم على دفع الفردية ان ينزعوا الى شق عصا الطاعة عليه بالرغم عن ولائهم وتفانيهم في خدمته

ولما حصل لميخائيل مشاقة مقابلة شريف باشا برسالة الامير تنازل عن طلبه الاول الى معدل ينوب الفرد ثلاثون غرشاً

ومثل ذلك كان للمعلم بطرس كرامه معتمد الامير بشير فتمكن لدى مقابلته شريف باشا من اسقاط الطلب عن ولاية الامير الى اربعة آلاف كيس واستثني من رجال لبنان خدمة الدين على اختلاف النحل ثم الامراء والمشايخ وجعل عدد الافراد اربعين الفاً فقط

اما الدمشقيون فلم يحسنوا الدفاع امام شريف باشا فوقع عليهم من الضريبة اعظمها حتى بلغ معدل الفردية مائة غرش وترتب عليهم غرامة سنوية قدرها اربعة آلاف كيس

وكان اكثرهم من العمال الفقراء لا يستطيعون دفع مثل هذه الرسوم الفاحشة فوقعوا في ضنك شديد وعمدوا الى المهاجرة فراراً من اثقال الديون على اعناقهم وفرض عليهم شريف باشا دفع جانب من نفقات الحرب كما كانوا يدفعون نفقات جنود

الاتراك ايام عبد الله باشا ودرويش باشا ومصطفى باشا وغيرهم ممن تقدمهم من اهل المطامع

ولو عقلوا واتحدوا عند ما سنحت لهم الفرص لتحرير وطنهم كما فعل اهل مصر والمورة لكانوا تخلصوا من كل هذه الضرائب التي وقعت عليهم الواحدة بعد الاخرى في مدة قرن كامل · ولكن اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون وعلى المتبصر الروية واعمال الفكرة

الفصل التاسع والمائة

في ثورة نابلوس

قدم ابراهيم باشا بنفسه الى اخضاع ثوار نابلوس وقد علم بشدة بأسهم وقوتهم وكان حسابه بمحله حيث لاقى منهم الاهوال واختبرهم بمواقع القتال ورأى فيهم اشد رجال سوريا عزماً واقداماً فقاتلوه وضايقوه · ولما علم محمد علي باشا بما حل بولده نهض لنجدته ولكنه لم يبلغ ساحة القتال لانه تغلب عليهم بالخداع وارغمهم على الاخلاد والسكينة وقد امر زعماءهم وفي رجوعه امر باعدامهم جزاءً لما كانوا عليه من الخبث والدهاء

الفصل العاشر والمائة

في نزع سلطة الامراء والمشايخ

في طلائع سنة ١٨٣٤ بدأ شريف باشا يتفحص بنفسه مقدرة امراء ومشايخ الجبل وسوريا وسلوكهم في وظائفهم فشرع بتنسيق حكومة الاقاليم وتحرير الشعب من سلطة الاستبداد وتعويده الخضوع للدولة رأساً وتدريبه في الاعتماد على نفسه والمطالبة بحقوقه امام الشريعة والعدالة

ولما شاهد الفساد ضارباً اطنابه في انحاء البلاد رأى من الحكمة وسداد الرأي ضبط اموال الخراج والفيء ورفع يد مأموريها من مشايخ وامراء عن مداومة هذه الوظيفة فمنع هذه الفئة المستبدة من معاطاة وظيفتها وقيد افرادها بالشريعة الحقة فاخرج من يدهم سلطتهم الاستبدادية القديمة التي كانوا يتمتعون بها في عصر الخمول

والانحطاط والاسترقاق ثم جعل لهم راتباً محدوداً من قبل الدولة يتقاضونه رأساً ورفع يدهم عن مدها الى اموال الشعب

وقد عزل بعضهم لسوء تصرفهم ولجهلهم الامور المدنية الحديثة وعين خلفاً لهم ممن توفرت فيهم الشروط اللائقة لاشغال مركز بالحكومة ولا فرق عنده بين الرعية

ولما كان الراتب الذي عينه للمشايخ والامراء المعزولين لا يوازي عشر ما كانوا ينالونه من الفلاح المسكين اضطروا ان يقتصروا على المعيشة البسيطة بعد ان كانوا يسرفون ويتظاهرون بالابهة والعظمة

وكان عمل شريف باشا هذا مع كل رؤساء العشائر في سوريا الا الامير بشيراً فانهُ لم يقو على التحرش بهِ لان الامير استحصل على استقلاله في حكومته من عزيز مصر وظلَّ يتصرف بلبنان كما كان قبلاً

على ان هذا الامتياز الذي تفرد بهِ الامير كان مجلباً لحنق شريف باشا عليه فبات شريف يترقب الفرص ليزيله عنه . وكانت باكورة اعماله نحو هذا المقصد في امراء الحرفوش حيث ثل سلطتهم وقرض دولتهم من بلاد بعلبك واقام مكانهم حاكماً من اهل الدربة وعين لهم راتباً يتقاضونه من الدولة ثم عزل امراء شهاب عن حكومة حاصبيا وراشيا وعين لهم معاشاً فازداد غيظ الامير منه

وحدث لامراء الحرفوش حكام بعلبك انهم ثاروا على شريف باشا لما لحقهم من الاهانة بواسطته واحدثوا قلاقل في البلاد وكان زعيمهم الامير جواد . ولم يكن شريف باشا بالمتغفل فبث الارصاد وارسل الجنود في اثره ولكن الامير جواداً جعل دأبه التنقل من مكان الى آخر ولم تظفر به الجنود واخيراً نزل على الامير بشير ومعه بضعة من رجاله وسأله ان يتوسط له لدى شريف باشا بالعفو عنهُ

ولما علم شريف باشا بوجوده عند الامير بشير ارسل يطلبه . ومما زاد الطين بلة ان الامير سلم من التجأ بهِ الى رجال الشريف بعد ان سألهُ العفو عنهم وكان من شريف باشا احتقار سؤال الامير فقتل الامير جواداً ورجاله حال وصولهم اليه

فعظم الامر بعين الامير واعتبر ذلك اهانة عظيمة لهُ . وبعد ان نفذ شريف باشا حكمه في الامير جواد واتباعه ارسل الى الامير بشير يعلمه ان لا شفيع عنده امام مصالح الدولة والشريعة تقضي على كل من يعبث بها بعقاب صارم وليس امام الشريعة امير ولا صعلوك فهي تعامل الجميع بالسواء لا سيما وان معه تفويضاً من ابراهيم باشا في

اجراء العدالة بلا محاباة وابراهيم باشا نفسه عاقب زعماء ثورة نابلوس بالقتل بعد ان تشفعت بهم اليه فلا ارى لك سبيلاً للملامة على منفذ الشريعة فكظم الامير غيظه ولم يحر جواباً

الفصل الحادي عشر والمائة

في ثورة النصيرية

ما فتئت الدولة المصرية تحدث في سوريا تغييرًا وتعمل على طرح عادات العشائر القديمة وتزيد الضرائب على الشعب شأن كل دولة في طور نشوءها حتى نفَّرت القلوب وودّ معظم الشعب لجهله اعادة الدولة التركية مكانها فانتشرت هذه الروح وبلغ طنينها مسامع الدولة العثمانية فسرها كثيرًا ورأت ان تغتنم الفرصة وكان اعظم الشعب نفورًا النصيرية وكان الباعث على تقوية هذه الروح في صدورهم ما يضربه عليهم المشايخ في كل مجتمع وناد ويكفي للشعب المسكين الذي اعتاد الطاعة لزعمائه سبباً لايغار صدره على الدولة المصرية التي كانت باذلة جهدها في ترقيته وتعزيز مقامه مع تضعيف سلطة المشايخ عليه ولو استعملت في سياستها المداهنة وابقت المشايخ وكل زعيم في مركزه الى ان امتلكت قلوب الشعب وامنت جانبه ونالت ثقته كما تجري عليه سياسة انكلترا وكل امة مرتقية فلما تستوثق من الشعب وتتأكد حبه لها تقلب ظهر المجن على الزعيم المستبد وتنبذه فلو اتخذت هذه السياسة لكانت العاقبة اسلم ولكنها طالما استولت على البلاد اخذت بقطع الرأس وابقت الجسد تحت المعالجة . وبما ان الشعب فطر على الطاعة العمياء لزعيمه فكان من اصعب الامور عليه ان يستقل بنفسه

وكانت الدولة التركية خبيرة باحوال الشعب اكثر من الدولة المصرية فبعثت تدس الدسائس الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة وكان هؤلاء يحضون الشعب على شق عصا الطاعة طمعاً بارجاع نفوذهم

واول من شهر عصيانه وامتنع عن دفع الرسوم الى الحكومة النصيرية فاضطرت الهيئة الحاكمة الى الاكثار من الجند في البلاد وخضد شوكة العصاة وارسل شريف باشا عصابة من لبنان لاخضاع الثائرين الذين اعتصموا بجبال اللاذقية وفازوا بالغلبة على رجال الحكومة

ولما علم شريف باشا بما حل برجاله جمع فرقة من الجيش المنظم وارسلها الى الثوار واكرههم علي الطاعة والسكينة

الفصل الثاني عشر والمائة

في ارغام الاهالي على الخدمة العسكرية

شعرت الدولة الحاكمة بحرج مركزها واكدت ان دولة بني عثمان لم تزل تطمع بالاستيلاء على سوريا فضلاً عن اثارة الشعب عليها فرأت نفوذها انما تحفظه القدرة المدافعة فسنت نظاماً على الاهالي في الخدمة العسكرية ولم تحدد مدة الخدمة وبدأت تجند من الشعب من تجده صالحاً للجندية ولم ترعَ حرمة الكبير ولا الصغير فساقت المثري قبل الفقير ورفضت ان تأخذ بدلاً عن الخدمة فازداد حنق الاهالي عليها لانهم ظنوا الخدمة تدوم ما داموا احياء فهاجروا التماساً لتخلص من هذا العبء الثقيل الا اهل لبنان لاستقلال اميرهم بحكومته ولم يكن يجبرهم على التجنيد بل كان التجنيد عندهم اختيارياً لمن يشاء فكان عدد من تجند منهم قليلاً بالنسبة الى سكان المدن كالشام وسواها اذ كانت الحكومة تدهمهم على حين غرة وتسوقهم الى الخدمة ولعمر الحق كيف كانت تنتظر تلك الحكومة ان تلاقي من الشعب المضطر الى خدمتها والمرغوم على طاعتها الاستبسال في تقوية مصالحها وتعزيز جانبها ؟ لا نعلم

الفصل الثالث عشر والمائة

في ثورة الدروز الكبرى

في سنة ١٨٣٦ انتشرت روح الثورة في جهات حوران واول من شق عصا الطاعة فيها الطائفة الدرزية وكانوا على جانب عظيم من القوة والبأس فاجتمع على توحيد كلمتهم كل درزي علم بثورتهم والاسباب التي دعتهم الى ذلك لم تكن تختلف عن الاسباب التي ذكرناها لسواهم من سكان البلاد فاستخف شريف باشا بهم لقلة عددهم المتراوح بين الف وخمسمائة الى الالفين وكان ابراهيم باشا متغيباً في شمال سوريا يراقب حركات الاتراك فارسل لقتالهم فرقة مؤلفة من اربعمائة وخمسين محارباً من

فرسان الهوارة وعند وصولهم الى محلة الدروز لبثوا ينتظرون مباشرة الثوار لقتالهم ولكن الدروز ظلوا في الكمين الى ان اسدل الظلام جناحه وقد نام الفرسان فخرجوا اليهم و باغتوهم واعملوا بهم السيف فقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا القليل واستولوا على خيولهم ومعداتهم وعند وصول الخبر لشريف باشا جند لقتالهم فرقة ثانية من الجند المنظم عددها ستة آلاف مقاتل وارسل معها المدافع و بقية معدات الحرب

وكان الدروز بعد ان فتكوا بفرسان الهوارة قد لجأوا الى عرب السلط وفي وصول الحملة و بعد قتال عنيف تغلبوا عليها وفرقوا شملها فاستولى الرعب على العسكر المصري وأحجم عن مقاتلتهم ولاسيما في اللجاه لانها عسرة المسالك واسعة الانحاء طولها عشرون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً كثيرة الصخور محتبكة المنافذ يصعب على الغريب التوغل فيها

ولما انتشر انتصارهم على الحملة الثانية تقاطر الى الاخذ بيدهم الى النهاية بقية الدروز المنتشرة في اقطار البلاد ثم استانف شريف باشا محاربتهم وارسال الجند الى اخضاعهم مرات عديدة وكانوا في كل مرة ينتصرون على الجيش و يبددون جمعه واكثر الجند كان يفر مرعوباً منهم لسوء تصرف قواده وعسارة مواقع القتال

فهب دروز حاصبيا و راشيا ولبنان لشد ازر اخوانهم باللجاه ومنهم الشيخ شبلي العريان الذي دخل في خدمة الدولة ونال لقب باشا وقبل مسير العريان لنجدة دروز حوران هجم الشيخ شبلي برجاله على حاكم راشيا المصري وقتله ثم تقدم الى حاصبيا ومعه اولاد الامير بديعة لياخذ بثار والدهم الامير سعد الدين الشهابي . وكان عند الامير سعد الدين الامير محمود حفيد الامير بشير ومعه بعض اتباعه ولما بلغ الامير سعد قدوم الشيخ شبلي لياخذ بثار الامير بديعة لاولاده جمع اليه الامراء وكل من عنده به الثقة وتقدم بهم ومعه اخوه الامير محمد الى مركز الحكومة وارسل الى الامير بشير يعلمهُ الخبر

ولما وفد العريان اشتبك القتال وحاولوا دخول السراي وكان الامير معززاً برجاله فصدهم عنها وارغمهم على الرجوع بعد ان قتل منهم عدداً كبيراً ولم يقتل من رجال الامير غير اخيه محمد قاتل الامير حسين بديعة

وفي ثاني الايام بلغ العريان قدوم الامير خليل لنجدة ولده الامير محمود فاركنوا

الى الفرار واعتصموا باللجاء ولما وصل الامير خليل الى حاصبيا وجد انه وصل متاخرًا فعاد بولده الى لبنان

الفصل الرابع عشر والمائة

في قيام شريف باشا ونجدة ابراهيم باشا له

ظل شريف باشا يجند لمحاربة الدروز الجنود ويرسلها وترجع اليه بالفشل والخيبة حتى عظم الامر لديه وبلغ فوق ما كان يتصوره ولما راى ان الثوار على تضاعف قوتهم وازدياد عددهم وان تعدياتهم امتدت وكثرت في البلاد عزم ان يقوم بنفسه الى خضد شوكتهم فجرد عليهم عسكرًا كبيرًا وتقدمه الى اللجاء

وكان من الدروز انهم اظهروا الانسحاب من ساحة القتال وتقهقروا الى الوراء من امام عسكر شريف باشا حتى اذا فازوا بحيلتهم عليه وقادوه الى المكان الذي عينوه اطبقوا عليه وبطشوا به وذبحوا منه رجالاً ذبح النعاج فتجدد الرعب في قلوب الجنود من بطش الدروز وتراجعوا عن قتالهم وكانت نجاة شريف باشا من ايديهم اعجوبة من العجائب الروحانية

وقد بلغ خبر فشل شريف باشا مسامع ابراهيم باشا فقدم الى الشام ومنها قام بعسكره الى اللجاء فضربهم من جهة معسكر شريف باشا فلم ينل منهم مأربًا لان الرعب استحوذ على قلوب الجيش فعمد على ضربهم من جهة سرخد بفرسان الاكراد ودارت رحى الحرب بينهم وتهارب الدروز من وجه ابراهيم باشا ورجاله الى ان قادوهم الى سهل رامة وهناك رجعوا عليهم وعملوا السيف بهم وفتكوا بمعظمهم وذهب تحريض ابراهيم باشا رجاله هباء منثورًا لانه كان ينادي ولا من مجيب ولما ادرك حالة رجاله وعلم انهم باتوا يخافون سطوة الدروز عمد الى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فارسل الى الدكتور كلوت بك يستحضر منه محلولاً قاتلاً وكان هذا ناظر الصحة في سوريا فرفض اجابة طلب ابراهيم باشا وحاول ان يمنعه من استعمال تلك الواسطة لما فيها من القساوة التي تشمل الحريم والاطفال معًا

اما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة اولاً والرعية ثانيًا ولما عجز عن اخضاع العصاة الزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليماني القاه بالمياه واتلم الدروز بذلك

ولما لم يكن للدروز ماء يستقون منه غير المستنقعات التي حوالي اللجاء اكرهوا على ترك

المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشاً وانوا الى جبال حاصبيا واقليم راشيا وحاصروا حاكمها الامير افندي واضطروه للتسليم والرجوع الى دمشق و بعد خروجه برجاله من راشيا لحقوهم بعضهم في الطريق على مقربة من قرية ظهر الاحمر وفتكوا بهم بدون معارضة تذكر لان الامير ورجاله كانوا بدون سلاح

ولما علم ابراهيم باشا بما حل بالامير افندي ورجاله ارسل يستقدم الامير بشيراً الى ملاقاته برجاله الى حاصبيا · وللحال جهز الامير فرقة من ثلاثة الاف مقاتل بقيادة ولده الامير خليل وقامت الى المحل المضروب تنتظر وصول الوزير

وجعل ابراهيم باشا طريقه على الديماس حيث التقى بالشيخ ناصر الدين بيكة ومعه عصابة الف محارب لنجدة الثوار فامر ابراهيم باشا رجاله بمقاتلة عصابة الشيخ وسحق جموعهم فدارت الحرب مدة قتل في خلالها الشيخ وعدد عظيم من رجاله والتجأ بعضهم الى تلة محاطة بالصخور العالية والاشجار الباسقة ولكن رجال ابراهيم باشا اقتفت آثارهم وحصرتهم ضمن نقطة صغيرة وظلت نضايقهم وتفني من عددهم ازواجا وافرادا حتى فتكت بهم جميعاً ولم ينجُ منهم غير رجل على رواية ابراهيم واربعين على رواية الدكتور مشاقة

ولما بلغ الدروز قدوم ابراهيم باشا وما حل بالشيخ ناصر قاموا من راشيا الى جنعم في حاصبيا بالقرب من قرية شعبة التي لا يسكنها غير اسلام ونصاري وارض جنعم محاطة بجبل الشيخ شرقاً وجبل الوسطاني غرباً وهذا الجبل عسر الصعود وهو يفصل حاصبيا و بعض قراياها عن ارض جنعم

الفصل الخامس عشر والمائة

في اخضاع الدروز

و بعد ان اضاف ابراهيم باشا انتصاراً على انتصاراته العديدة تقدم برجاله الى راشيا فوجد العصاة رحلوا عنها الى ارض جنعم حيث تكاثر عددهم والتف حولهم دروز سوريا والجبل فضلاً عن شبلي العريان ورجاله واولاد الامراء بديعة الشهابي فارسل ابراهيم باشا اعلم الامير خليلاً بقدومه وامره بملاقاته الى جنعم وكان من الامير خليل لدي

وصول الامر اليه انهُ قام برجاله الى المحل الذي عينه لهُ ابراهيم باشا وصعد برجاله جبلاً على لحفه قرية شويا حيث الدروز مجتمعون ومن كون الطريق كثيرة التنوات ضيقة الجوانب اقتضى لرجاله العبور فيها الى القرية افراداً لا ازواجاً فساعد ذلك الدروز على الفتك بهم وشاء الامير بعمله هذا ان يظهر مأثرة لهُ ولرجاله امام ابراهيم باشا فامر بالصعود وسحق جماهير الدروز قبل وصول الوزير ولكن الدروز لم يساعدوه على تحقيق امانيه فردوا رجاله وصدوهم عن الحاق الضرر بهم فرجع بالفشل الى حاصبيا وبات ينتظر وصول ابراهيم باشا ولم يمض الوقت الطويل حتى اقبل الباشا برجاله الي جنعم فعاد الامير برجاله الى ملاقاته ليساعده على اخضاع الثوار ولكن قبل وصوله كان تم لابراهيم باشا النصر وتبديد جماهير الدروز الكثيفة

فارسل الدروز الشيخ حسيناً البيطار من قبلهم ليطلب لهم الامان والعفو من ابراهيم باشا وكان ابراهيم حليماً فوعده بالعفو اذا قدموا له سلاحهم ورجع الشيخ ومعه فرمان العفو والتأمين على حياتهم ورجع معه من رجال الوزير بعض المأمورين لجمع السلاح

وخلف ابراهيم باشا الامير خليلاً في مركزه لجمع السلاح وتوريده الى الشام وقام برجاله الى تلك المدينة ورجعت عساكر الجبل وامراؤها الى مراكزها

الفصل السادس عشر والمائة

رجوع ابراهيم باشا الى الشام

رجع ابراهيم باشا الى الشام بعد ان أخضع لسلطته العصاة واجبرهم على احترام نظام الحكومة وتفرقت بقية الرجال ورجع الامير والشيخ الى مركزها وفي رجوع امراء شهاب الى مراكزهم سولت لهم انفسهم ان يفتكوا بأولاد الامير حسين بديعة فاقتفوا خطواتهم واوقعوا بهم ولما انتشر خبر قتلهم وبلغ مسامع ابراهيم باشا حنق على مقترف ذلك الجرم وهو اخوة الامير سعد الدين وعلى اثر ذلك صدر امره في توقيف الامير سعد الدين والقاء القبض على اخوته ثم تقدم بنفسه بفرقة الى اقليم البلان ليلقي القبض على شبلي العريان الذي حنث بوعده ولم يرع حرمة القسم ولما اقترب من المكان فرّ العريان من

امامه الى جدر بطلبك فتتبعه ابراهيم باشا برجاله الى هناك وعند ما شعر العريان ان لا مناص له ولا مهرب سلم نفسه اليه وطلب العفو عما صدر منه من الاساءة فقبل ابراهيم باشا عذره وارجعه معهُ الى الشام حيث اقامه قائدًا على فرقة من الفرسان

ثم ارسل ابراهيم آغا سويدان حاكماً على حاصبيا وهو من اصحاب العقول الراجحة والآراء السديدة وعلى جانب عظيم من العلم والتهذيب

اما الاميران خليل وبشير اخوا الامير سعد الدين فقد فرا من وجه الحكومة لانهما وقعا تحت جرم القتل وصارا يتنقلان من مكان الى آخر . وفي ذلك الوقت كانت الحكومة باثة الارصاد على حسين الطرابلسي من متاولة بلاد بشاره لما ذاع عنه من البطاش وعدم الاكتراث بأوامر الحكومة فصدف انهُ التقى بالامير خليل وهو خارج من الحولة بعد ان ارتكب بها جرماً هائلاً . ولما ادرك ان الامير خليل يريد القبض عليه اطلق عليه بضع طلقات فاخطأهُ وعند ذاك اطبق الامير عليه وبمساعدة خادمه تغلب عليه ونزع سلاحه واوثقه كتافاً وارسله مع خادمه الى ابراهيم اغا سويدان وعند وصوله الى حاصبيا استطرد سويدان اغا مسيره الى الشام فسرَّ ابراهيم باشا من وقوعه بالامر واثنى على الامير خليل الذي وهو تحت مراقبة الحكومة اتى عملاً مجيدًا وابدى خدمة ثمينة للحكومة . وعلى اثر ذلك صدر امره بالعفو عن الامير سعد الدين واخوته وارجاع ما كان لهم من الحقوق المرعية . ثم امر بشنق حسين الطرابلسي في حاصبيا على دولة امراء شهاب حكامها القدماء

الفصل السابع عشر والمائة

في الراهب الكبوشي

ان العداوة متأصلة منذ القدم بين الفئة اليهودية والفئة الكبوشية وينسبون اسبابها الى مراجع جمة لا محل الى تعدادها في هذا المقام . وفي اوائل سنة ١٨٣٨ كان الراهب الكبوشي الطلياني الاصل متجولاً في شوارع المدينة يمرض مريض الجسم والنفس وفي وصوله الى حارة اليهود كان ذلك النهار هو آخر نهار من حياته ومما تاكد للحكومة بعد عناء البحث والتفتيش ان اليهود فتكوا به وبخادمه فقبضت على عدد كبير

منهم والقت عليهم عذاباً مبرحاً ليطلعوها على المجرم فتقاصه والبريء فتطلق سراحه ولم تنجح لان اليهود مشهورون بالكتمان والمحالفة

واجتهد القنصل الفرنساوي في البحث عن الجاني والبس القضية حلة دينية ولم يكن من اليهود غير الافراط بالدفاع عن المتهمين ولما زادت الشبهة عليهم واشتد كدر الاهالي منهم وبدأوا يضطهدونهم اضطهاداً جارحاً وعادة اليهود مشهورة في تفانيهم على مساعدة المذنب منهم وتبرير ساحته . وبعد العذاب الصارم اقر احد المتهمين بالجريمة بعد ان اعتنق مذهب الاسلام احترازاً من ثورة اليهود عليه وصرح للحكومة كيف قتلوا الراهب واخذوا دمه فطلب شريف باشا تحضير الدم فانكروا وجوده معهم انما قالوا بوجوده عند موسى الحلاق وهذا اصر على النكران الى ان وصل الى الشام احد يهود الانكليز واشترى حرية المتهمين من محمد علي باشا بستين الف كيس

وشريف باشا لم يكتف بقرار المجرمين بل سار الى المكان وتكشف الصدق فيه عند ما شاهد آثار الراهب وذلك بعد اعتراف الحلاق بحدوث الجرم في بيت داود الهواري وكيف خادمه ارسل وراءه ليساعده على اخفاء الجثة وعهد بالدكتور ميخائيل مشاقة فحص الرفات وتحقيقها اذا كانت تطابق على الاصل

الفصل الثامن عشر والمائة

في فصل حلب عن الشام

في اواخر سنة ١٨٣٨ ارسلت الدولة المصرية اسمعيل بك حاكماً على حلب مستقلاً عن حكومة الشام وبذلك تصريح كاف بفصل حلب وما جاورها عن ولاية الشام والاسباب التي نرجحها في احداث هذا الانفصال هي قريبة لذهن القارىء اكثر مما نظن نعني الثورات التي حدثت في البلاد والقلاقل التي ذهبت براحة الاهالي والتعدي والحروب التي افنت معظم الرجال كانت كلها محصورة بادارة واحدة وهي الشام لذلك حصل للحاكم العام عثرات جمة في تنفيذ اوامره على جوانب البلاد بالرغم عن الابعاد الواقعة بينه وبين اطراف الاقاليم وحلب على كونها بعيدة عن الشام وسكانها مع سكان القرى المجاورة لها كثيرو العدد يحتاجون الى حكومة تدير شؤونهم وتوفر لهم اسباب الراحة والامن ارتأت الحكومة الرئيسية ان تفصلها عن ولاية الشام لتوفير السلام في قضائها

الفصل التاسع عشر والمائة

في قدوم الجنود التركية الى سوريا

وفي ذات السنة ارسل السلطان محمود فرقة متوفرة العدد والعدد لمحاربة الحكومة المصرية في سوريا واخراج البلاد من سلطتها وكأنهُ ادرك عجزه عن اخراج المصريين منها بطريقة أخري واذ رأى ان ابراهيم باشا دوخ البلاد واطفأ الثورات التي اضرمها في صدور الاهالي واخضع الثوار وارغمهم على طاعة الحكومة وانهُ كل يوم يزداد قوة وحكومته ثبوتاً وتقدماً واعتباراً حتى اصبحت الدولة المصرية بالمركز الاول بين دول الامم المرتقية

وخشي على دولته من مخالبها فرام التخلص منها واضعاف سلطتها لذلك ارسل فرقة عظيمة الشأن لتقضي على دولة محمد علي باشا في سوريا وليكن حال الاهالي بعد ذلك شر الحالات

وعند ما بلغ ابراهيم باشا قدوم الحملة الى سوريا جمع رجاله وامر الامير بشيراً ان يرسل فرقة صغيرة من رجاله الى الشام لتحافظ على الامن في اثناء غيابه عنها ولم يتهامل الامير في اجابة الطلب كما هو شأنه دائماً مع ابراهيم باشا فارسل الف وخمسماية محافظ بقيادة ولده الامير خليل الذي نزل بالمرج خارجاً عن دمشق

اما ابراهيم باشا فنهض بجنوده الى حلب فالى حدود سوريا وعسكر برجاله على حدود بلاد الاتراك وعزم ان يفاجيء الحملة التي كانت قادمة اليه قبل ان تدخل بلاده وكان ملتقى الجيشين في ارض نزب من اعمال اسيا الصغرى ودارت رحي الحرب واشتد القتال وكاد النصر يخفق فوق الجنود التركية الا ان شجاعة ابراهيم باشا وحذقه في الفنون الحربية ومقدرته على القيادة وتعوده خوض معامع الحرب اعواماً طوالا ابت الظروف الا ان تساعده وتكفل له النصر على خصمه المضاعف العدد لذلك اسفرت الواقعة عن فشل الجنود التركية وتفريقها ابدي سبا وغنم ابراهيم باشا الذخيرة ومعدات حربية لا سبيل لاحصائها وقبض على اوراق من جملتها فرمان من الدولة التركية الى علي اغا تعينه فيه حاكما على الشام

ولما اطلع ابراهيم باشا عليه ظن سوءاً في علي اغا وافتكر انه يتآمر على حكومته

فارسل الى اسمعيل بك والي حلب ان يقوم الى الشام و يبلغ شريف باشا ان يلقي القبض على علي اغا المشار اليه تحت تهمة المؤامرة وفي حال وصول اسمعيل بك وابلاغه شريف باشا اوامر ابراهيم باشا قبض على المتهم علي اغا وكان شريف باشا يحسد علي اغا على وجاهته ومقامه الرفيع عند ابراهيم باشا لذلك امر بمحاكمته بالمجلس العالي ليتمكن من اجراء غاياته فعقد بضع جلسات التي بها شريف باشا التهم المختلقة وعلي اغا يبرر ساحته و يدفع سهام الباشا عن اذيته والذي ساعد علي اغا في تبرير ساحته سمعته ونزاهته المشهورتان عند الخاص والعام. ولكن اذا كان الحاكم مدفوعاً الى تنفيذ غاية يظن وراءها منفعة لحكومته انفذها ولو كان في تنفيذها تذنيب البريء وكان شريف باشا فضلاً عن حبه في تنفيذ غاية ابراهيم باشا بالمتهم حاقداً عليه كما المعنا لذلك فاراد ان يعجل في محاكمة علي اغا و يسد الطرقات عليه ما امكنه القانون. وفي ثاني الايام لم يفسح المجلس لعلي اغا مجالاً للدفاع عن نفسه بل حكم عليه بالاعدام واعدموه قبل ان يسمع مدافعته فقطعوا راسه وتركوا جثته مطروحة على الطريق كل ذلك النهار وكان الاسف عليه كثيرًا لدى عموم سكان المدينة على اختلاف مذاهبهم ونحلهم لما كان له من المنزلة لنزاهته وشدة اخلاصه وصداقته للمصريين وخصوصاً ابراهيم باشا ووالده محمد علي باشا ولم تكن الاهالي تقدر له هذه الاخرة وهذا الموت على يد قوم اشتهرت صداقته لهم وعمت اطراف البلاد . ولكن قل ان هكذا صاحب السلطة متى شعر بنمو احد المقربين يعمل على قتله ولو كان اعز الناس عنده خوفاً منه على السلطة التي بيده وهذه الخلة موجودة بكل عقل بشري فالسلطان يبذل جهده ليحصر نفوذ وزيره ضمن دائرة صغيرة . كذلك الوزير يعامل من كان تحته منزلة واقرب منه مطمعا . وعلى هذا النحو يستبد القوي بالضعيف الى ان ينفرط عقد العصبية بينهم وتضعف حماة الدولة لما ينمو فيها من الشقاق والضغائن وتقبل الى الهرم تدريجاً . ومحبة الذات سليقة بالانسان والحيوان على السواء . وفي هذه الاثناء بعد رجوع ابراهيم باشا من محاربة الاتراك توفي السلطان محمود وخلفه ولده عبد المجيد على عرش الخلافة . ومن اعماله الاولية شان كل حاكم جديد انه جاهر بمعاملة الكبير والصغير الغنى والفقير بالسوية وتعزيز جانب الحق وزهق الباطل الى اخر ما هنالك من المواعيد المطلوبة من كل حاكم ينتصب جديداً . وكأن السلطان عبد المجيد ما غفل عن ان يعد في مداومة الخطة التي سار عليها والده وتركها له ليداوم سيره فيها الى ان يتم له الظفر و يعيد سلطته على سوريا كما كانت سابقا . ولذلك كنت ترى في رجوع ابراهيم

باشا الى الشام ان الدولة التركية ما فتئت تثير عليه الخواطر فلا يخمد ثورة حتى تقوم اخرى وهكذا قضى المصريون معظم ايام دولتهم في سوريا بالحروب والقلاقل

الفصل العشرون والمائة

في مآثر الحكومة المصرية

ان مآثر الدولة المصرية العربية كثيرة في سوريا ناتي على ذكر بعضها : منها الاصلاح التي ادخلته في المستنقعات التي كانت مجمع الاقذار وباعثاً قويًّا على تفشي الامراض الوبائة في دمشق وكانت الاقذار تتراكم في خندق وراء السور على جهة الباب الشرقي وتفوح منها رائحة قتالة تحدث اضرارًا بسكان تلك الناحية عظيمة . ولدى الفحص والتدقيق أصدرت الحكومة امرًا بفتح خليج يصرف به الاقذار على نفقتها ولم تقبل مساعدة الاهالي لما لاعتقادها وهو الاكيد ان الحكومة مطالبة بخدمة الشعب ومراعاة راحته والشعب مطالب بانصافها وهكذا تمت العمل واراحت الاهالي من تنسم الروائح الكريهة وخفت بذلك ذرائع الامراض . ومن مآثرها انها وضعت حدًّا لاسعار اللحوم فحطت من استبداد اصحاب الجذرة ثم عينت لجنة من قبلها وشرعت بذبح الاغنام وبيع لحمها باسعار متهاودة فارغمت بائعي اللحوم على الاقتداء بها ومن خالف القانون كانت تغرمه جزاء لاختراقه حرمة النظام . ومن ماثرها العدل والقسط بالرعية والمساواة بين طبقات القوم الرفيع والوضيع على اختلاف العقيدة كانت تعاملهم امام العدالة على السواء وكانت لا تكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه ولا كانت الذنوب تباع وتشرى ولا كان هناك مجلس بلدية تصرف حاصلاته على خصوصيات خدام الحكومة مثل شراء مفروشات لسكنى الوالي ومجالس الدعواي والادارة وبقية الدوائر البالغة خمسين محلاً وثمن الزيوت لانارة محلاتها ولا اكلاف وليمة يولمها الوالي او الحاكم لزاير عظيم الشان كما كانت تفعل على ايام دولة بني عثمان كل ذلك واكثر منه على مثاله احدثت دولة محمد علي باشا في البلاد ومع كل ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ويناقشها الحساب لانه اعتاد ان يكون محكوماً لا حاكم نفسه . عبدًا . لا حرًّا ...

الفصل الحادي والعشرون والمائة

في مراجع الدولة الانكليزية

دخلت سنة ١٨٣٩ والامور في سوريا على ما رويناه لك وبما ان دوام الحال من المحال شاء ربك تغييرا في البلاد فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية ونزل في كسروان وانتحل من المعاذير انه قدم ليتعلم لغة البلاد ونحن في مركز لا يخول لنا تكذيب الخبر او تصديقه فنرويه كما جاءنا وعلى القاري ان يحكم انفسه دخل الرجل الذي سميناه جاسوساً واسمه الحقيقي وود كان ترجماناً لقنصل دولته بالاستانة واصبح قنصلا في تونس بعدئذ

واظهر في بادي الامر ميلاً غريباً الى تعلم اللغة العربية وتغلب على امياله لدرس احوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقادة وشاحاً اعماها عن معرفة غرضه الرئيسي ولامشاحة ان دولة الانكليز اكثر الدول استعماراً او كأنها اوجست خيفة من الدولة المصرية التي مع حداثة نشأتها اصبحت في مصاف الدول المرتقية وكأنها لحظت ان محمد علي باشا يطمع بعد ضمّ البلاد الى مبايعته بالخلافة واحياء الدولة العربية القديمة وان ارجاع دولة اسلامية عربية هذا شانها في تنظيم احوال الرعية قامت على اساس العدل وجارت به الدول المتمدنة ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا نابليون مصر بل ذكرته وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة فخافت منها ان تكون مزاحمتها في الاستعمار وتقف بوجهها حاجزاً منيعاً لاضعاف الشرق الادنى فرامت مقاومتها قبل ان يقسو ضلعها وادركت عجز الدولة التركية عن ايقاف نموها وارتقائها فزادت ميلاً الى المداخلة ولذلك ارسلت رجلها الذي ذكرناه والذي اخذ له استاذاً لتعليم اللغة العربية الخوري ارسانيوس الفاخوري فكان يدرس عليه و يلقي بذور الشقاق في قلوب الاهالي و يوغر صدورهم على الحكومة الحالية بوقت واحد وجعل مركزه جبل كسروان ولم يمض الوقت على وصوله الا انتشر خبر اتفاق الدولة الانكليزية والنمساوية والتركية على الدولة المصرية وطردها من سوريا قبل ان تتأصل فروعها و ينمو ضلعها و يرغموها على قبول مصر بلاداً لحكومتها وقررت ارسال اسطول كبير الى مياه بيروت وابراز اتحادها الى العمل

الفصل الثاني والعشرون والمائة

في وصول الاسطول الى مياه بيروت

اما الدولة المصرية فلم تكن غافلة عن هذه الحركة العدائية بل كانت متربصة تراقبها بعين ساهرة وقد خدعتها فرنسا لانها وعدتها بالمساعدة الدفاعية واخلفت وعدها عندما سألتها الابرار به . ولو كانت البلاد باهلها على الوئام والسكينة ربما برزت بجحافلها وصدت الدول عن تنفيذ مأربهن ولذلك عندما وصل الاسطول العثماني الى مياه بيروت وصلت معه اساطيل الدول المتحدة وعرضن عليها شروطاً عقيمة تأنت في الجواب عليها والشروط التي اقترحتها الدول هي بقاء مصر لمحمد علي باشا وذريته وان يجعل له اسطولاً محدود القوة وجنداً محصور المدد لا يقبل الزيادة وان يدفع للدولة لقاء استقلاله بمصر ستين الف كيس سنوياً ويرجع لها شبه جزيرة العرب وغيرها من فتوحاته وان يبقى في سوريا مدة حياته فقط وكلها تشف عن اشهار الحرب اكثر من القاء الشروط وخصوصاً الدفع عن ثمن استقلال مصر الذي يرجع استقلاله الى اكثر من ربع قرن وارفقن هذه الشروط بموعد للمجاوبة عشرة ايام وان مضت المدة ولم يحر جواباً توخذ منه حتى مصر

فرفض محمد علي باشا مطالب الدول لاعتماده على دولة فرنسا وما درى مكيدة الانكليز اما ابراهيم باشا فعندما تحقق ما دبره عليه جواسيس الانكليز خصوصاً المستر وود وان اهل كسروان على وشك اشهار عصيانهم علم ان الامر جلل ووراء الاكمة ما وراءها فترك شريف باشا بدمشق وامره ان يقبض على قناصل الدول الموجودين في المدينة اذا حدثت الحرب وقدم الى لبنان ثم وجه يوحنا بك البحري الى الامير بشير يقيم عنده عيناً عليه وطلب من الامير ان يرسل له حفيده الامير مجيداً الباسل ليذهب معه لضرب عصاة كسروان وتقدم بطليعة اثني عشر الف مقاتل الى محل العصاة ودام القتال اياماً ولم يحصل على نتيجة مرضية بل تغلب العصاة على جنده مراراً وهي المرة الاولى التي ذاق بها ابراهيم باشا طعم الانكسار

وكان من قنصل الانكليز الدمشقي انه ارسل روفائيل مشاقة سراً للامير بشير يخبره بما قررت الدول عليه من اجبار المصريين على الجلاء عن سوريا عاجلاً ام آجلاً وينصح له ان يسلم او يلوذ لجانب الدولة التركية وكأنه يريد ان يفهم الامير وجوب

سحب قوته من قلب الحكومة المصرية — ولا مراء ان الانكليز اقوى الشعوب دهاء واكثرهم حيلة

وقدم وفدًا الى الامير من قبل قائد العمارة الانكليزية يطلب منهُ المواجهة فارسل اليه ابراهيم مشاقة سرًّا عن بحري بك

وعند ما قابله ارجعه الى الامير ومعه هذه الرسالة .. « اعلم يا امير لبنان ان سوريا كلها اصبحت تحت ارادتي والمصريون لابد من اخراجهم منها ولو كلفونا اموالاً ورجالاً تفوق الحصر فاخلص لك النصح ان تقف بجانبنا »

ولما كان الامير على جانب عظيم من الرزانة والتأني لم يحر جوابًا وظل يظهر ولاء لمحمد علي باشا محافظًا على مقامه عنده

الفصل الثالث والعشرون والمائة

في لغط القوم عن الحرب

لامشاحة ان وجود الاسطول الحربي في مياه بيروت احدث زعزعة عمومية في البلاد واضطرابًا في الشعب وارجف البلاد من اقصاها الى اقصاها وكثرت الاجتماعات وعقد المجالس في المدن والقرى واصبح الشعب ينام ويقوم ولا همَّ لهُ غير المباحثة في الحرب وتخمين نتيجتها ومع ان شريف باشا انتبه لقلقلة الشعب فحظر عليهِ التكلم وهدد بالقتل كل من تحدث بالحرب وكان الشعب يزداد اشتياقًا الى المفاوضة ومبادلة الآراء بصددها واعدم شريف باشا غير واحد اشتبه بخرقهِ النظام

وحدث ان قنصل دولة النمسا مرلاتو زار الدكتور مخائيل مشاقة في بيته ودار بينهما الحديث الآتي نرويه عن مشاقة

مشاقه — من الناس من يفضل اكل رأس السمكة قبل ذنبها ومنهم من يشرع في ذنبها حتى اذا وصل الى رأسها سهل عليه صحنه وتطيب باكله والذي اراه من الدول الراسية اساطيلها في مياه بيروت انهن يقصدن اخذ سوريا من الدولة المصرية من اضعف جانب فيها حتى اذا اجهزن عليه تحولن الى المكان الاقوى وبيروت لا تحسب مدينة دفاعية بالنسبة الى عكا فاذا امتلكتها اولاً وعكا ثانيًا ربما كان ذلك

افضل لهن وابقى

القنصل — وهل تفضل هذه الطريقة

مشاقة — وكثير من القوم يفضلون تفضيلي

القنصل — وماذا نظن تحتمل عكا نار الانكليز الآن كلة

مشاقة — ان ابراهيم باشا حاصرها سبعة اشهر قبل ان تمكن من الدخول اليها ولم تكن حاميتها وحصونها كما هما عليه الآن

القنصل — مسكينة هي الدولة التي تعادي الدولة الانكليزية

مشاقة — ولكن عكا اصبحت معروفة بمناعتها عند سائر الامم وكم رجع عنها بالفشل من القواد المشهورين وزد على ذلك فابراهيم باشا ضاعف قوة حاميتها ومناعة اسوارها

القنصل — وهل تظن الدول غافلة عن ذلك او احد منها يجهله ومع معرفتنا بما اضيف اليها ارجح لها الثبوت امامنا بضع ساعات

وعند ذلك لحظ مشاقه وجود نسيب لبحري بك قدم من لبنان الى الشام حديثا فامسك عن الخوض مع القنصل فارسله الى يوحنا البحري بما وقع له من الحديث مع القنصل . وفي ثاني الايام عاد الرسول اليه يطلب حضوره وعند ما قابله قص مشاقه عليه حديث القنصل فساله بحري ان يستكشف منه عزم الدول وهل يحاربن مع الاتراك ضد الحكومة المصرية

وفي ذلك المساء حضر القنصل الى بيت مشاقه كعادته ولم يمهله مشاقة طويلاً حتى كاشفه الحديث قائلا : لم ازل افكر في قولك عن ثبوت عكا بضع ساعات بالاكثر امام مدافع الدول واخصهن الانكليز فهل انت واثق ان الدول جاءت للدفاع عن مصالح قومها القائم بيننا ام لتساعد دولة بني عثمان على محمد علي باشا

القنصل ان دولة الانكليز ودولة النمسا دولتان محاربتان مع الدولة التركية انما فرنسا تلزم الحيادة كأنها قدمت لتشاهد فشل حليفتها وانكسارها

ولما انهى مخائيل مشاقه الى البحري كلام القنصل المتقدم ظهر عليه الكدر وقال ساخطاً على دولة فرنسا لالتزامها الحيادة ولولاها لما كان محمد علي باشا رفض مطاليب الدول واستطرد حديثه عن الحرب وما تجلبه من الويلات على البلاد . وكان مشاقه قد انس ارتياحه الى المحادثة فقال : ان بونابرت الذي فتح العالم وازعج ملوكه عجز عن عكا مع انها كانت بسور واحد وداخلها الجزار الذي بالكاد تضاهي قوته قوة فرقة من الجيش المصري

المعتاد على الحروب الهائلة وكيف الآن وقد اصبحت يحوطها سوران وداخلها جند ابراهيم باشا الباسل وليس جند الجزار الخامل

فاجابه بحري بك ان الذى اعجز نابليون عن فتح عكا ليس مناعة سورها ولا بسالة حاميتها بل قوة الانكليز التي صدته عن ارسال سهمه ذي الحد المرهف الى قلب حاميتها ثم انقلاب الجمهورية الافرنسية عليه وقطعها عنه المدد والنجدات وتمردها اهلاكه في هذه البلاد ولذلك اضطر للانسحاب عن سور عكا والرجوع الى بلاده قبل ان ينال اربه والا فما هي عكا ومناعة سورها امام قوات الدول الحية ٠٠ ولو كانت الدولة التركية خصمنا لما اكترث لها افندينا وقد سمعته مرارا يقول : ان نساء المورة تفوق الجنود التركية بسالة واقداما والانكى المهم انه يلزمنا قتال عدونا الداخلي قبل الخارجي ٠ وها ان موارنة شمال لبنان ثاروا علينا وجحدوا النعمة التي متعهم بها افندينا وانكروا على حكومتنا اتعابها عليهم وكيف انها ساوتهم بالمسلمين الذين كانوا يضطهدونهم ويسومونهم انواع الذل والخسف والعبودية ويستحلون المحرمات فقاموا علينا يريدون قتالنا ٠٠ وارجاع عبودية الاتراك على اعناقهم لتعود عليهم سلطة مشايخهم المستبدين وامرائهم الناقمين فيعملون على ذلهم واثارة الفتنة بينهم وترجع حالتهم الى شر مما كانت عليه من الضغط ٠ والحق يقال ان رجعت الدولة التركية الى سوريا سوف تزيد معاملتهم صرامة ويحل بهم الندم ولات ساعة مندم فقال له مشاقه : اتسمح لي ان ابدي رايي واصرح بافكاري في هذا الصدد

فقال له بحري : قل ما يجول بخاطرك بكل حرية واخلاص وخصوصا عن احوال لبنان لانه حصننا المنيع وله عندنا اهمية تفوق عكا وحراجة مركزها

فقال مشاقة : من المعقول والمنقول لنا عن السلف ان الدولة الفاتحة اذا لم تحسن سياستها في البلاد وتحافظ على عادات اهلها وتراعي نظامها ولا تحدث بها تغييراً فجأة لا بد ان تلاقي مقاومة عنيفة تضعف قوتها وتزيل سلطتها ٠ ان لبنان الذي كان يدفع للدولة الفين وثلثمائة كيس ثمن استقلاله اصبح وهو يدفع لحكومة مصر ستة آلاف وثلثمائة ٠ ولم تكتف الدولة المصرية بهذه المضاعفة بل شرعت بتجنيد عساكرها من رجاله الذين افنتهم الحروب حتى كادت تخلي بيوته من السكان فترملت معظم نسائه ونيتم جل اطفاله وعلاوة على ذلك كانوا يعتاضون عن هذه الضحايا الثمينة فقراً وجوعاً وعيالهم بكاء ونوحاً مدة غياب رجالها ٠ وكما لا يخفى ان اهالي الجبل افقر سكان سوريا قاطبة

وليس لهم من موارد الرزق سوى ما ينتظرونهُ من موسم الحرير لسد رمقهم · نعم ان موسم الحرير يبلغ الف وخمسمائة قنطار ولكن تسعين بالمائة منه يذهب الى الامراء والى المشايخ والرهبان و بعض سكان المدن الكبيرة مثل بيروت وخلافها · بين ان عدد الشعب ينيف على ثلثمائة الف لا يبقى له من الموسم الذي هو مورده الوحيد غير عشره فتأمل · وزد على ذلك ان ارض لبنان لا تصلح للحراثة كارض الشام وحمص وحماة لذلك ترى عدداً كبيرًا منهم يعولون على خدمة الامراء والاديرة لتحصيل معاشهم الضروري · ثم اي صاحب عشيرة ابقته الحكومة المصرية في منصبه حاكماً مستقلاً كما كان عليه قبل احتلالها ولم تهن شرفه او تنزع منهُ ولايته التي كان يحسبها ملكاً شرعيا ·· نعم ان الامير بشيرًا بقي في مركزه مستقلاً في حكومته قبل الاحتلال و بعده · ولكن الزيادة التي القتها عليه كانت تزيد على ثمن هذا الاستقلال · ومع ذلك فانها اهانته واسقطت من حرمته عند كافة سكان البلاد في قتلها من استجار به · واهالي سوريا ولبنان خصوصاً يقومون على طاعة رؤَسائهم انما يختلفون عن اهالي مصر انهم لا يخضعون الاَّ لامرائهم ومشايخهم ورجال الدين ولا يعرفون الطاعة للحكومة رأساً ·· وقد اسرعت الحكومة في استعبادهم وتجنيد افرادهم في خدمتها والانكى من ذلك انها لم تحدد لهذه الخدمة وقتاً معلوماً · كل هذه الامور وامثالها أوجبت بغض الاهالي للحكومة الحاضرة مع ان المتبصر يرى العدل بزغ نوره في جو سوريا منذ انتشر العلم المصري فوق ربوعها ولكن اذا كان الشعب قاصرًا عن ادراك الحقيقة فمن الافضل اصلاحه وتعويده على قبول الاصلاح تدريجاً

وسكان شمال لبنان كانوا يميلون الى مقاومة الامير بشير قبل الاحتلال وفي سنة ١٨٢١ اثاروا عليه فتنة كبيرة وكان رجال الدين سبب حدوثها وهي تعزى الى غبطة البطريرك لانه كان حانقاً عليه كما يقال

اما جنوب لبنان اذا لم يتدارك امره فسوف يقتدي بالشمال و يأْخذ العدوى منهُ وسكانهُ يقدرون بنصف الاهالي وهم على جانب عظيم من القوة وشدة البأْس يكفيه قوة ما تسعى وراءه المشايخ من ايجاد صلة ودادية بينه و بين الدروز آل جنبلاط وعماد ونكد المنفيين بمصر فاذا عاد هؤُلاء واستمالتهم الحكومة اليها كان لها في الجنوب قوة تضاهي قوة الشمال والله اعلم ··· ولم يحر بحرى بك جواباً لانهُ ادرك الصواب في كلام مشاقة هذا

الفصل الرابع والعشرون والمائة

في ضرب مدينة بيروت

ولما مرَّ الوقت المعين ولم يجاوب محمد علي باشا الدول المنتظرة قبول اقتراحها عليه الاَّ بالرفض اشهرت عليه الحرب و بدأت بضرب مدينة بيروت ولم تكن تلك المدينة دفاعية فاستولت عليها بوقت قصير ٠ وعند ما انتشر خبر ضرب مدينة بيروت ارسل ابراهيم باشا بأمر شريف باشا ان يمنع قناصل دولتي الانكليز والنمسا من المداخلة والمخالطة و يقيم عليهما الرقباء ولكن هذا الامر على ما فيهِ من المضايقة لم يات بالفائدة المطلوبه لان المخابرة كانت متواصلة مع دروز حوران والدول بواسطة ترجمان القنصل الذي وقف مخائيل مشاقة على اعماله ولم يشهره ٠ وكان لخبر اشهار الحرب على الحكومة المصرية وقع حسن في قلوب عصاة كسروان فتجددت قوتهم وتضاعفت عزيمتهم على مقاتلة ابراهيم باشا وتفريق عساكره وقد ارسلت لهم الدولة التركية سلاحاً ومدتهم بفرقة من جنودها عن مدينة جونيه وعند مضاعفة عددهم وعددهم دحروا الجند المصري وارغموه على الانسحاب ولم يفت ابراهيم باشا انه اصبح يقاتل الدول فضلاً عن العصاة لانهُ شاهد الجند المنظم واستطلع سلاحه فرأى الانسحاب اولى والذي غره بذلك ظنه ان العصاة يلحقون بهِ الى غربي البقاع حيث نزل بعسكره ولكن العصاة لم يبرحوا مكانهم

الفصل الخامس والعشرون والمائة

في نفي الامير بشير

و بعد ان استولت الدولة التركية على بيروت تقدمت الى صيدا واستولت عليها ومن هناك ارسلت في طلب الامير بشير لتجدد له ايامه على حكومة الجبل ٠ ولما وصل الامر لحاكم لبنان افتكر ان يستحضر الامير مجيدًا من عسكر ابراهيم باشا فارسل اليه علماً و بات ينتظر وصوله ليقدم واياه الى صيدا -- ثم امر اندرواس مشاقة مدير الخزينة باعداد ما توفر لديه من المال فوجد في الخزينة اربعة وستين الف ليرة فاخذ الامير منها بعضها وابقى البعض الآخر ليرسله الى البطريرك كانه علم بما سيصيبه فرغب في ان يستميل عضدًا كبيرًا

اما الامير مجيد فلم يتمكن من الحضور حالاً فاضطر الامير بشير ان يؤجل ميعاد قيامه الى صيدا لليوم التالي وعند ما حضر قام بحاشيته لمقابلة والي صيدا حسب اشارته فاحتفل خالد باشا بقدوم الامير ورحب به عند اول وصوله ولكنه انقلب فجاة من الترحيب الى المعاتبة وجعل له عذراً في تاجيل وصوله الى صيدا كما وعد اولاً فابدى الامير عذره الواضح وادعمه حجة دامغة ولم يفلح واخيراً عرض له خالد باشا ان يختار مكاناً ليس تحت سلطة حكومة مصر ليرسله اليه فيقضي بقية ايامه فيه فاختار الامير مالطة التابعة لدولة الانكليز وطلب مهلة لاعداد شؤون رحلته فامهله وارسل له البطريرك كاهناً لخدمته الخوري نقولا مراد او بالاحرى جاسوساً لاعالة في منفاه وبعد ايام قام الامير بحاشيته الى مالطة

وجدير بنا ان نبسط للقارىء اعمال رجل لبنان العظيم في مدة حكمه . ان الواقف على تاريخ لبنان لا بد ان يوقفه التمييز بين هذا وذاك لما يلاحظه على اعمالم المختلفة — والامير بشير الذي تولى حكومة الجبل من ١٧٨٥ الى ١٨٤٠ لا بد ان يعتري الباحث في اعماله العجب لانه كان يظهر القوة من حيث لا يحتاجها ويظهر الضعف في مواقع تلزمه القوة قد كان للامير احوال سهلت له ان ينشىء دولة مستقلة لو تروى اذ توفرت له القوة والوجاهة واجمعت القلوب على اهابته والاستبسال في مصالحه وكانت ولاة الامور تعتمد عليه في حل المعضلات اهالي سوريا عموماً والجبل خصوصاً تفتخر به وتتباهى ببسالته وكرم اصله

وكان شجاعاً مقداماً وقائداً محنكاً وسياسياً داهية خدم الجزار بكل امانة ونشاط . وخدم خلفه وحفيدة مثله وخدم الدولة التركية والدولة المصرية وكان يعطي لكل خدمة ودولة حقوقها وكان صادقاً اذا وعد اميناً على واجبه فعل كل ذلك ولكنه لم يخدم وطنه خدمة تذكر ولو صرف قواه في منفعة وطنه وتعزيز مقامه لحفظ له الاستقلال وتغلب بما فيه من القوة الفطرية على اخصامه . لو صرف ايامه وعزيمته وكرس حياته للدفاع عنه وعن استقلاله من عبث الاجانب به لما قام للجزار قائمة ولا لعبد الله باشا او سواه شكيمة . . لو فعل كل ذلك لكنا شاهدنا له من سلالته حاكماً على ربوع سوريا ولبنان كما ترى احفاد محمد علي باشا يتمتعون بالسلطة على وادي النيل اذ كانت له ذات الفرصة التي كانت لمحمد علي باشا لاشهار استقلال سوريا ومحاربة الاتراك وردهم عنهم كما ردهم محمد علي عن مصر ولكنه لم يقدم على مثل ذلك واطلق قواه في ديجور الخلافات الاهلية

وقبل ان يكون مستقلاً بحكومة لبنان ضمنًا وفضل الاستعباد لعدو وطنه لينتقم من اخيه بالوطنية ومزاحمه على الامارة . واشهارنا عليه الملامة لا تبعدنا عن الاقرار بفضله وعلو همته فهو يستحق فوق ذلك وربما كان له عذر نجهله ومهما يكن من امره فنعيب عليه استعباده لعدو وطنه

الفصل السادس والعشرون والمائة

في تعيين الامير بشير القاسم حاكماً على الجبل

لم يمض على وصول الامير بشير الى صيدا اكثر من بضعة ايام حتى عين خالد باشا الامير بشير القاسم حاكماً مكانه على الجبل . وكان الامير قاسم ضعيف العزيمة سيء الادارة جاهل لا يفقه مطاليب مركزه كانه جاء ليظهر مقدار الفرق بينه وبين الامير بشير سلفه ولكنه على ما فيه من الخبالة وفساد الراي نال رضى اصحاب المطامع من شيخ وكاهن وذي زعامة حيث اطلق لهم التصرف بحقوق الشعب وابتزاز ماله . ولما كانوا مغلولي الايدي على عهد الامير بشير بدأوا يمدحون الامير قاسماً ويثنون عليه ويمرحون ويأتون العجائب وشوهد عيانا ما وصلت اليه حالة لبنان على عهد الامير بشير قاسم ومع ترجيح الامير بشير عليه كان ولاة الامور تنعته بالقاتل لكل سلطة عاصرته وكانت اما مزاحمة له واما تريد الاستقلال بمصالح الشعب . واكثرت من تلقيبه فقالت انه سفاك لا رحمة عنده ولا حنان في قلبه ولكنهم لم يبرهنوا ذلك ولا قاسوا معاملة الافراد بل كانت دعوتهم من وجه اجمالي ولا توغلوا في البحث والاستقصاء في حالة لبنان عموماً وهل هي الآن افضل منها في عصره وهل الذين قتلهم وكان الحكم فيهم عدلاً اقل من الذين ذهبوا ضحية الجهل والاستبداد في سنة واحدة بعده فالمبتصر عديم الغرض لا يرى في ادعاء هؤلاء حقيقة

الفصل السابع والعشرون والمائة

في رجوع ابراهيم باشا الى الشام

بقي ابراهيم باشا مقيماً برجاله في البقاع برحلة الى ان قصد مقابلة بحري بك وكان

الذي قصه عليه البحري عجل قيامه من تلك النواحي الى مركز حكومته لجمع شعثها وضبط شوونها. ومن جملة ما وقف عليه وحدث في غيابه قدوم فردوس بك الى الشام ومقابلته بشريف باشا ليلاً وفردوس بك هو ابن علي اغا مملوك ناصيف باشا العظم الذي كان مع الصدر الاعظم بالحملة التركية التي قدمت لاخراج فرنسا من مصر سنة ١٨٠١ فتزوج علي اغا ابنته واقترن شريف باشا بابنة علي اغا من زوجته المشار اليها. وكيفية اتصال بحري بك بحدوث هذه المقابلة انه بث الارصاد لفردوس بك على ازاعة خبر قدومه وسال اولا مخابل مشافه ان يذهب الى بيت اخيه عا كف بك و يستطلع منه حقيقة الخبر لانه طبيب وقد تعود ان يزور عا كف واخوته. والحقيقة ان فردوس بك دخل الشام عن طريق حاصبيا بعد ان نزل على الامير سعد الدين فالبسه ثياب عادية واصحب معه الامير خايلاً الى ان اوصله الى ابواب المدينة ولما لم يرَ بحري بك ميلاً من الدكتور مشافه في تلبية طلبه اهتدى منه على طبيب البكوات وهو روفان صيدع فظن انه نال اربه. واخيرًا علم ان فردوس بك نزل على حافظ بك بن عبدالله باشا ولما كان يعلم صدق حافظ بك لابراهيم باشا تقدم منه وساله عن فردوس بك فقال له حافظ احضر الليلة وادخل بجانب القاعة في بيتي تقف على الذي تطلبه فذهب بحري بك الى بيت حافظ ودخل الغرفة التي اعدها له صاحب البيت وعند دخوله وجد غلاماً فساله عن فردوس بك فاجابه الغلام كان فردوس عندنا في هذا الاسبوع و برحنا في هذا الصباح فقال له بحري بك اذن لم يقابل شريف باشا فاجابه الغلام نعم قابله وصرف وقتًا طويلاً. ولم يخف البحري عن شريف باشا ما تأكده من خيانته فقابلهُ واطلعه على كل الذي اخبره بنفسه من مقابلته بفردوس بك ولما تحقق شريف افتضاح امره سال البحري ان يكتم الخبر عن ابراهيم باشا او يسألهُ العفو عنهُ فوعده انهُ يسعى بنيل العفو ومضى لساعته الى ابراهيم باشا وقص عليه الذي تقدم. ولما سمع ابراهيم باشا عن شريف باشا ذلك الخبر حنق عليه وتوعده ولكن بحري بك سأله التروي والعفو عن سقطته. وقام ابراهيم باشا في ثاني الايام الى الشام وترك ساحل البحر فاستولت عليه الدولة غنيمة باردة وعند وصوله لدمشق عقد مجلساً عسكرياً وحاكم شريف باشا فحكم المجلس عليه بالخيانة فقبض عليه وابقى وقت تنفيذ الحكم فيه ليقوم الى مصر

الفصل الثامن والعشرون والمائة

في ضرب عكا

أقلعت السفن الحربية من مياه بيروت ورست في مياه عكا وصوبت عليها مدافعها وامطرتها نارًا متواصلة ولم يمض عليها ثلاث ساعات حتى رأت حاميتها اخلت المدينة وفرت تطلب النجاة . والسبب الذي عجل امر فتحها واخلاء حاميتها هوانفجار البارود الذي وصل حديثًا وترك خارجًا فوقعت عليه قنبلة احدثت انفجاره وكانت نتيجته وخيمة فهدم جانب عظيم من السور وفتك بعدد كبير من الحامية ومن سلم من الانفجار طلب لنفسه الفرار من نار الاسطول فاستولت عليها الدولة وتفاءلت خيرًا . وبعد ايام وجه خالد باشا حكومة حاصبيا على الامير سعد الدين وارسل اليه سلاحًا واعد فرقة بقيادة احمد آغا اليوسف لطرد ابراهيم باشا من دمشق



الفصل التاسع والعشرون والمائة

في قيام ابراهيم باشا عن سوريا

تقدم احمد اغا اليوسف الجنود التي اعدها له خالد باشا لطرد ابراهيم باشا ولما اقترب من قرية سبع على مسافة عشرين ميلاً من دمشق خرج اليه ابراهيم باشا بجند قليل وهزمه شر هزيمة فرجع ابراهيم باشا بالغنائم والذخيرة الوافرة اما احمد اغا فنزل بعسكره بعيدًا عن الشام واقام ينتظر اخلاء ابراهيم باشا المدينة لان محمد علي باشا والده ارسل اليه واعلمه عن قبوله ترك سوريا واستقلال مصر فجمع ابراهيم باشا شتات عسكره من كل حدب ونادوهم سبعون الف رجل فقام بهم عن الشام الى مصر في سنة ١٨٤٠ وخرجت اهالي البلد لوداعه فخطب فيهم وحرضهم على الاخلاد الى الطاعة والسكينة . وعند نصف النهار اقبل احمد اغا برجاله وقبض على ازمة الاحكام وقبل وصوله قتل فتى نصراني من يد مسلم لان المدينة باتت بدون حاكم

ومن اوائل اعماله انه اعدم اثنين من الاكراد وكان يطوف في شوارع المدينة ليلاً يتنسم اخبارها بنفسه ولحظ ان النصارى عادوا الى العمائم السود بعد ان كانوا يتعممون

بالعمائم البيضاء خوفاً من تحرش المسلمين بهم فاعلن ان كل مسلم واي كان يبدو منهُ تعد على المتعمم العمامة البيضاء من الطائفة المسيحية ينال قصاصاً صارماً . وتقدم الى السلام عليه الدكتور مشاقة واخبره بوجود جرمانوس البحري في بيته ولم يقم مع اخيه يوحنا لعجزه وسأل له الامان فصدر امره بالعفو عنهُ وعن ولده . وبعد ايام ارسلت الدولة علو باشا الذي فرّ من وجه المصريين والياً على الشام فاقام بها اياماً ثم ارسل الى الحجاز ثم عينت نجيب باشا والياً على الشام وكان اشد الاتراك تعصباً

وكان المستر وود الانكليزي مفوضاً من الدولة التركية بمراقبة اعمال مأموريها وكان كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا فتعزله وتعيين ذاك فتعينه وكان كلامه مسموعاً لدى الدولة الى هذا الحد

واجمع السوريون على محبته على اختلاف نزعاتهم ونحلهم . وعين من قبل دولته قنصلاً في دمشق وجعل الدكتور مشاقة ترجماناً لهُ ثم حضر خليل باشا صهر السلطان بيروت لتنظيم احوال لبنان ولم يفلح فرجع عنها بالخيبة والسبب ليس قصوراً منهُ او تصلف الجبليين بل وجود الامير بشير بعيداً عنهم في مالطة ولا ذنب له فدبر على تقديم العرضحالات طعناً على آل شهاب

الفصل الثلاثون والمائة

في وفاة الامير بشير في منفاه

في رجوع خليل باشا الى الاستانة سعى فاستقدم الامير بشيراً وحاشيته اليها وكان قد لحق الامير الشيخ حمد ابي نكد وقبل ان يبرح زعفران بول توفي الامير قاسم اكبر انجاله ولما وصل الى الاستانة قدم اليها المعلم بطرس كرامه وسعى عند رجال الدولة بارجاع الامير او احد انجاله الى حكومة لبنان وكاد يفلح بسعيه وارسال الامير امين حاكماً على الجبل وبقاء والده في الاستانة بينما تستطلع الدولة تصرفاته بالحكومة فان ظهر منه ما تريد تسمح للامير بالعودة الى وطنه . وقبل ان الخوري نقولا اعلم سيده البطريرك بما ينوي الامير على اتيانه فارسل غبطته للدولة رسالة ملأها قدحاً بالامير امين واكد لها ان الجبل يصبح ملعباً للشقاق والفساد في دولته لانه اظلم من والده وكثرت العرضحالات تترى على الدولة من المشايخ والامراء ورجال الدين يسترحمونها

بعدم ارسال الامير امين حاكماً عليهم وكانت الدولة سبق لها وعينت الامير اميناً وذهب لوزير الصدارة رشيد باشا يستلم الامر الاخير قبل مبارحته الاستانة وبدلاً من ان يناوله الباشا الامر في تعيينه دفع لهُ عرضحالاً من البطريرك الماروني وبقية رؤساء العشائر وقال لهُ نحن قبلنا بك حاكماً على لبنان ولكن رجال دينك رفضوك فخرج من عنده قانطاً

ثم بعد مدة قليلة اعتنق الاسلام وقال انهُ من الغلط التدين بمذهب هذا حال رؤسائه ثم اقتدى به الامير مجيد والامير مسعود اولاد اخيه الامير قاسم والامير خليل ولكنه توفي على الاثر كئيباً . وبعد اربعة اشهر توفي الامير امين مسلماً وهكذا والده لشدة اسفه على ولده وضيق ذات يده توفي فجأة عن اربعة وثمانين عاماً وقد احتفلت الدولة بمأتمه ودفنته بكنيسة الارمن الكاثوليك وهكذا على هذه الصورة كانت نهاية حياة بطل لبنان وبعد مدة رجعت عائلته الى سوريا وتوفي الامير مجيد مارونيًّا والامير مسعود مسلماً . وباعت ارملة الامير الكبير سراي بيت الدين الى الحكومة اللبنانية واصبحت مركزًا للمتصرفية وبذلك انتهت دولة الشهابيين في لبنان بعد ان حكمت ١ عواماً

الفصل الحادي والثلاثون والمائة

في اكاذيب عمال الاتراك بسوريا

قلنا في الفصل السابق ان العرائض كانت تتوارد الى الاستانة طعنًا على آل شهاب وكان يقال ان الباعث على كثرة تلك العرضحالات كره رجال الدين المسيحي بسوريا لهم وخصوصاً المسيحيون ورجال الدين منهم مع المشايخ والاعيان

وتحرير الخبر ليس كما كانت الدولة تشيعه من ان اللبنانيين حانقون على امرائهم آل شهاب بل كانت الدولة تخدع اللبنانيين تارة وتمليقهم اخرى وآونة تهددهم ليكتبوا لها العرضحالات طعناً على آل شهاب لتظهر للدول الاوروبية ان شعب لبنان المسيحي غير راضٍ عن تصرف امرائه آل شهاب ولذلك فهو يطلب من المراحم التركية ارسال والٍ تركي من طرف الدولة عليه بدلاً من آل شهاب

وكان الاتراك يحرضون المشايخ الغاضبين على آل شهاب وخصوصاً الدروز الذين

ضايقهم الامير بشير الكبير وارغمهم على احترام القانون وكانوا يثيرون عليهم كل ذي ضغينة على آل شهاب استعداداً لضم لبنان الى مملكتهم ونزع استقلالهِ الاهلي

ولم يكتف عامل الاتراك اذ ذاك مصطفى باشا بتفريق العرضحالات على النصارى والدروز بالجبل وامرهم بختمها بل فرق منها عدداً على مشايخ الاسلام بسوريا كلها وارسل منها جانباً الى اشياخ المتاولة وامرهم بختمها وكلها طعن على امراء شهاب وثناء على عدل الدولة الشهير الذي علمت حالته باول الكتاب وكيف كان امره قبل استيلاء الدولة المصرية على سوريا مما سردناه بحينه

وقد كتب لشعب تلك الايام بالجهل والغباوة اللذين اوصلاه الى احط منزلة من الرق حتى كان العوبة بيد عمال الاتراك بفضل رجال زعامته الذين اثبتوا عدم اهليتهم لاشغال مراكزهم مما كان يحملهم على ختمه من العرضحالات رجال الدولة واخصهم مصطفى باشا

وهاك صورة كتاب ارسله هذا الرجل الى زعيم من مشايخ المتاولة وضمنه عرضحالاً يطلب به ليس ان يختمه فقط بل ان يسعى بختمه من كل شيخ وعامي يقدر على التزين له ليحفر ختمه ويضعه به طعنا على آل شهاب ليبرهنوا للدول الاوربية ان الشعب غير راض عن آل شهاب ليس ضمن الجبل بل بسوريا كلها :

« جناب افتخار الاماجد الكرام اخينا المكرم حمد البيك حفظه الله تعالى

« غب ابلاغ التحية والسوال عن خاطركم بكل خير وعافية المبدي لخوتكم انه بحسب الاعتماد على صداقتكم واستقامتكم الاكيدة والآن توجه اليكم من عربي كاتبي الخواجا جبرائل العورة فبوصوله ليدكم تعتمدوا ما له وتظهروا همتكم المعهودة باتمام العمل طبق تعريفه لكم وتهتموا بنجازه وارساله الينا مع الجواب لطرفنا بالجبل بحيث مرسالكم يلحقنا اينما كنا ان كان في المتن او في زحلة او في بلاد جبيل وحسب عهدنا الوثيق بصداقتكم باقرب وقت تتمموا المصلحة طبق التعريف ودمتم »

الختم	كاتم الاسرار
مصطفى	علي بك
باشا	حدينة

وهذه صورة تحرير مرفوع من جبرائيل العورة الى الزعيم المذكور حمد البيك

« سني الهمم سلطانم

« غب تقديم الدعا بدوام بقاكم نعرفكم الآن واصل طية فرخين ورق كبيرعلى بياض وصورة عرض محضر الى حد الورق البياض فيه الكتابة وعلامة محلات الاسماء والاختام فالقصد بذلك ان بحال وصوله تحرروا العرض محضر وتنهضوا الغيرة التامة بتختيمه من مشايخ المتاولة جميعهم ومن مشايخ القرايا الاسلام والنصارى في مقاطعة تبنين وساحل معركة وهونين وساحل قانا ومرج عيون والشقيف وجباع . غير ان لا تدعوا احد من مشايخ المشاير وشيوخ القرايا اسلام ونصارى الا وتختموه منه و بالخصوص تجتهدوا علي تكثير اسماء النصارى والذى ليس له ختم تدعوه بالحال على عمل ختم وتختموه منه،

« واتخذوا كل الفنون والنباهة المعهودة منكم لما به البولتكه (السياسة) والتنازل لكاين من كان بحيث لاتخلوا احد من وضع اسمه وختمه وهذه تعد لجنابكم عند دولتهما (مصطفى باشا وعلي بك) من اعظم الخدمات المقبولة وتحوزوا الرضى الوافر فوق ما نؤملونه وهذا وقت اكتساب الفرصة » (محل الختم)

وهذه صورة العرض حال الذي كان الاتراك يرغبون من القوم ختمه على الصورة الموضحة في ما تقدم :

« انه كما مشهور وصار مشاهد بالعيان ومحقق من وجود ادارة الدولة العلية في حكومة لبنان قد حصلت اهالي الجبل المذكور عموماً على غاية الامنية والراحة والرفاهية والعدل والانصاف بنوع انهم من حينما تخلصوا من ادارة الامير بشير الشهابي واولاده واقاربه خصوصاً الامير امين والامير بشير القاسم وابناء عمهم وانسابهم واعوانهم واتباعهم الذين املوا الجبل شروراً وجواراته نظير بلادنا وغيرنا من البلاد المجاورة لهم من التعديات والمظالم المتنوعة فقد خرجت الاهالي والسكان بوجود ادارة الدولة العلية من العتم الى النور ومن دهر الظلم والجور الى ساحة العدل والامان . فنظراً الى عدالة الدولة العلية وانصافها الذي عم العالم باسره فيقتضي عدالتها وانصافها المرحمة بحق عبيدها ورعاياها بدوامهم في ادارة احكامها وعدم اعادة احكام الشهابيون بوجه الاطلاق ... بل ولا واحد من اهالي الجبل لا اسلام ولا عيسويون عملاً بمرضاة الباري تعالى جل جلاله لرحمة عبيدها ودوام استخلاصهم لعتقهم من احكام الشهابين ومظالمهم المتنوعة واتباعاً للحديث الشريف كلهم راعي ومسئول عن رعيته

« وحيث انوجدنا نحن المجاورون للجبل ولنا الاطلاع التام على احواله واخذناوعطانا مع الجبل وفي الجبل المذكور كثير فان ذات ادارة احكام الدولة العلية في جبل لبنان

يعمنا جميعاً من الامان والراحة . وان لا سمح الله تعالى بتغير ذلك بضده فنحصل على الاتعاب والمشقات لاجل ذلك بسطنا الآن عرض عبوديتنا هذه ونسترحم بها من الاحسان الملوكانية والمراحم الشاهانية النظر لعبيد ورعايا الدولة العلية بعين المراحم الاشفاق وابقاء احكام الدولة العلية في جبل لبنان وعدم النظر والالتفات الى الحركات من المفسدين الذين يسعون بسلب الراحة وامنية عموم الاهالي والفقراء ويدبرون عرضحالات التزوير بالتماس ارجاع احكام الشهابيون لان ذلك موافق غاياتهم الرديئة ومغاير انصاف عدالة الدولة العلية وحشاها ان تهمل دوام راحة رعاياها وعبيدها وتنظر لتزوير ونفاق هؤلاء . . . والامر لمن له الامر افندم »

« انتهى بحرفهِ عن كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام »

هذه هي العرضحالات التي كانت تتوارد على مركز الخلافة طعناً بالامراء الشهابيين وبعضها اراه الصدر الاعظم الى الامير امين الذي قدم اليه ليستلم مأموريته واودى به الى الموت كئيباً واعتناق الاسلام وليس تهمات الدولة من ان رجال الدين كانوا يسعوا بآل شهاب

وهذه نقطة من بحر مما كان الاتراك يغرون القوم ويهددونهم على كتبه وختمه لهم دون ان يعلموا مغزاه ويعقلوا مؤداه . وهنا نمسك القلم ونترك للقارىء ان يتصور حالة ذلك الشعب التعيس الذي ابلاه ربه بحكم الاوغاد اهل الخداع والمكر والدهاء والغدر وهكذا تعمل دولة الاتراك دايما بسياسة الغدر هذه وقس على ما مرَّ بك ما اوقعته وتوقعه علي رعاياها من يوم الى يوم تلك الدولة المنعوتة بالعادلة بتلك العرضحالات عفوًا

ومما اشكل علينا به ورود اسماء الشعب مقسوما الى قسمين عبيد ورعايا ونظن ان القارىء ادرك مثلنا ما يريدون بالعبيد وما يعنون بالرعايا ونحن نظن ان العبيد هم اولئك الذين كانت تلزمهم الدولة بحمل كيس الحاجة وتجعل ذلك عليهم قانونا للعمل وتكدهم على التسخير للمسلمين . . . والرعايا يراد بهم عامة الاسلام لانهم على دين الدولة التركية وهكذا كانت تعتبر المسيحي عبدًا وليس حرًّا وكانت تحث الرعايا على معاملته كذلك رغما عن كونه كان صاحب البلاد وحرًّا في بدء الاسلام ان اعملنا الفكرة قليلاً هان علينا تصديق ما سنورده من فظائع هذه الدولة مع اولئك العبيد الذين جاء اسمهم مرارًا وتكرارًا منعوتين بالعبيد الذين يعرفون بالارقاء او الرقيق

وكانت حالة اولئك العبيد احط حتى من الرق ولا تفرق عن حالته الا ان الاخير يباع و يشري ويلتزم مولاه بتقديم حاجيات الحياة ورعاية الجانب لانه متاعاً له ينظر اليه كمال ينفعه في دنياه

اما الاولون (العبيد) او نصارى لبنان خصوصاً وسوريا عموماً فكانوا ارقاء لعامة الرعايا (المسلمين) وعليهم شرعا الاسترقاق لهم بكل مايطلب هولاء منهم بكل مابكلمة الاسترقاق من المعنى وعليهم ان يقوموا بقوت انفسهم وعيالهم معامن شغل ايديهم وهكذا كانت حياتهم المرة بظل ظليل اسيادهم الاتراك الاحرار وزعم الاغبياء الذين خيم الجهل والتعصب فوق عيونهم والمنازعات الشخصية على عقولهم ففضلوا الشخصيات على العموميات توصلا لمآربهم الدنيئة بدلاً من هز الحسام لقوم ظلموهم واذلوهم واذاقوهم العذاب الوانا

وكانت هذه العرضحالات تكتب وتختم في اوايل سنة ١٨٤٢ عقب حوادث السنة التي قبلها حيث كانت الدولة ترغب في تعيين وال تركي على لبنان كما فعلت وعينت عمر باشا كما سيجيء

الفصل الثاني والثلاثون والمائة

في مآثر الدولة المصرية بسوريا

ان اعمال الدولة المصرية في سوريا ومآثرها التي تذكر فتشكر عليها كثيرة منها العدل والمساواة ورفع ظلم المشايخ عن الشعب واعطاء كل ذي حق حقه على احدث طريقة جارية عليها الدول المتمدنة ورغماً عن احداثهم على الرعية ضرايب عديدة واثارة هؤلاء عليهم فهم قدنفعوا السوريين نفعاً عظيماً واشهر هذا النفع رفع يد الامراء والمشايخ عن استرقاق الاهالي والتمتع بمالهم ومتاعهم واستباحة عرضهم الى اخر ما هنالك من المحرمات والمنكرات ولا يعاب عليها الا امر واحد وهو عظيم وكان داعياً الى سقوطها في سوريا واضعاف قوتها بمصروذلك عدم اشهار استقلالها عن الدولة التركية وارغامها على الاعتراف به مع انه كان لهامن اسهل الامور بعدان اكتسحت البلاد واستولت على اكثر ايالاتها وعدم تسميتها عزيز مصر وزيراً عاملاً بامر السلطان لانه كان يعترف له



جند محمد علي

بالسلطة المعنوية فقط تلك السلطة سهلت للدولة التركية استجارتها بالدول كما تقدم فلو اشهر محمد علي باشا نفسه ملكاً مستقلاً وارسل من قبله السفراء لعواصم الدول الاجنبية وعقد معها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك بالرغم عن مقاومة دولة بني عثمان له او لو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية عقب حادثة قونية لاجبرتها على الاعتراف بسيادته لانه استحال عليها اخراج جنوده من سوريا او صد هجمات ابراهيم باشا وتقدمه الى قلب عاصمتها

انما تهاونه قادها الى عدّ دولته فرعاً منها والحق يخول لها قطع ذلك الفرع اذا اعتراه فساد باعتقادها وعلى هذا المبدأ تغلبت على استمالة الدول الى جانبها واجلت دولة مصر عن سوريا ووضعت حدًّا لنموها واجبرتها على الاعتراف انها فرع منهـا وهذه السقطة وحدها كانت الباعث لسقوطها في سوريا ومصر معاً اذ اصبحت فرعاً من دولة الاتراك مقيدة بادارتها تدفع لها مالا معلوماً ثمن استقلالها الداخلي ولا علاقة لها بالدول الاجنبية الا بواسطتها وهذا ما جعل الدول الاوربية تنظر اليها بعين الاستخفاف لا تعتبرها كدولة مستقلة ولها الحق بذلك لانها لا تعلم عن استقلالها شيئاً

فلو تلافى محمد علي باشا هذا النقص لما كان من المستحيل ان نرى دولة عربيـة

تجاري الدول المتمدنة نموًّا وارتقاء وكنا رأينا على اريكة الخلافة العربية رجلاً من سلالته فليعتبر القوم ويتعظ الخلف من اغلاط السلف ويعقلوا ويعلموا ان تحاسد الدول وحده وان يكن بحد ذاته عظيماً انما لم يكن وحده كافياً لسقوط الدولة المصرية بل الباعث الوحيد عدم اشهار استقلالها عن الدولة التركية كما تقدم وبسطناه آنفاً — ولا نعلم كيف تهيب محمد علي وتقاعد عن اشهار استقلال دولته وارغام الاتراك على الاعتراف بها بيد انه لم يتهيب من تدويخ البلاد وخضد شوكة السلطنة التركية عن يد ولده الذي كاد يستولي على اكثر ولاياتها

وياليته انتبه الى ضرورية الامر وسعي وراءه وياليته عمل ذلك واراح بلاده وخلفاءه من مداخلة الاتراك بشؤون دولته وقد قدر الله له رجلاً شجاعاً وقائداً حاذقاً يضاهي اعظم قواد العالم شهرة وخبرة بفنون الحرب وذلك الرجل هو ابراهيم باشا الباسل صاحب الاقدام والهمة العالية يذلل له الصعاب ويحقق له امانيه

الفصل الثالث والثلاثون والمائة

في رجوع المشايخ المنفيين

كان من محمد علي بعد انسحاب سلطته عن سوريا انه سمح للمشايخ جنبلاط وعماد ونكد الذين حكم عليهم بسكنى مصر بالرجوع الى وطنهم بعد ان أنعم على بعضهم بالالقاب السامية وفي وصولهم حصل لهم ماقى زاهر ونزل احدهم ناصيف الذي تلقب بالبيك في بيت مشاقة لان داره اندثرت آثارها بامر الحكومة اما الشيخ سعيد جنبلاط الذي كان موظفاً بالجندية المصرية تمكن من المجيء ووضع يده على املاك آل جنبلاط قبل مبارحة ابراهيم باشا البلاد وصار يدفع عنها الخراج الى الدولة كجاري العادة وشرعت الدولة بتحصيل الخراج من الاهالي كما كانوا يدفعون الى الامير بشير فالدروز لم يعترضوا على مطاليبها انما النصارى اعترضوا وادغموا اعتراضهم بالبراهين المعقولة واخذوا يعقدون الجلسات خصوصاً اهالي كسراون ومن جاورهم اكثروا من الشكوى وادعوا الفقر والعوز ومحل الارض واستشهدوا بفقراء لبنان المنتشرين بمدن

سوريا وقراباها وان ثلاثة ارباع الاراضي بملك المشايخ والامراء والاديرة وتسعون بالمائة من هذه الاملاك معفية من الخراج وبلغت القحة والجهالة منهم الى تهديد الدولة بالعصيان . ومن قولهم الذي رفعوه الى خالد باشا ليقدمه الى الاستانة ان الجزية توءخذ من القوم الذين يكلفون الدولة حمايتهم وليس من الذين يقدرون على حماية انفسهم الى غير ذلك من قوارص الكلام وقد نصح لهم خالد باشا بعدم تقديم شكواهم على هذا الاسلوب الخشن ولم ينتصحوا

وامتناع اللبنانيين عن دفع الجزية سوف يجلب عليهم نكبات كثيرة واغترارهم بمقدرتهم في مقاومة الدولة تدل على قصر باعهم في سبر غور الامور واصبحت الدولة بعد مجاهرتهم علناً بعزمهم على شق عصا الطاعة عليها لا تأمن جانبهم خصوصاً تصريحهم انهم يلتجئون الى دولة اجنبية اذا لم تأخذ بيدهم على رفع الجزية عنهم التي عدوها ظلماً . ومما جعل لهذه الحركة وقعاً سيئاً سوء تدبير الامير قاسم وعدم اهليته للمركز الذي يشغله وكان كثير الهزل سفيه الكلام مع مشايخ الدروز الذين تأبى طباعهم وآدابهم السفاهة لا سيما وقد اعتادوا الرزانة وحرمة الجانب من الامير بشير فباتوا ينظرون اليهم شزراً ومسرهم انقلاب الدولة عليهم . وقائل يقول ان الدولة اوغرت صدورهم على النصارى واتخذتهم آلة لتنفيذ سهمها في من خرقوا حرمتها واظهروا مقدرتهم عليها وهم غافلون عما تدبره لهم من الاحن والكروب والمذابح الاهلية والله اعلم بما تكنه الصدور

الفصل الرابع والثلاثون والمائة

في ايقاد نار الفتنة بين الدروز والنصارى

اقبلت سنة ١٨٤١ على اهالي الجبل والناس في قلقلة ونفور ورائد الطرف يحكم لنفسه ان حركة القوم غير عادية واذا توغل في الاستقصاء يتجلى له استفحال الامر وجسامة الخطب ويشاهد فريقاً على تأهب واستعداد كأنه مدفوع الى الكفاح وفريقاً لاهياً كأنه امن حوادث الزمان وكروب الايام وكانت الدولة قد نضجت مساعيها ونفخت في صدور الدروز روحها السامة فملأتها وما عاد ينقصها عن الانفجار الا سبب طفيف يساعدها على ذلك . ومن الصدف ان رجلاً ديرانياً من النصارى ذهب يوماً لصيد الطير الى ناحية بعقلين المأهولة بالدروز فتصدى له درزي دفعه عن غرضه فاعترض

عليه واشتد الجدال بينهما وادى الى خصام عنيف واخيرًا الجأهما الخصام الى السلاح وكان ذلك في ١٤ ايلول سنة ١٨٤١ عقب خروج المصريين بقليل . فترا كفت اهالي بعقلين للدفاع عن ابن بلدتهم ودير القمر عن ابن مذهبهم ودار القتال بين الفريقين فقتل من اهالي دير القمر ثلاثة رجال ذلك مما دعى الى توسيع الخرق فركبت مشايخ آل نكد وقصدت محل الحادثة لفصل بين المتقاتلين ولكن لدى وصولهم رأوا غير ما كانوا يظنونه شاهدوا عددًا كبيرًا من قرية بعقلين تقاتل بضعة من رجالهم وقد اثخنوهم بالجراح وفتكوا ببعضهم عند ذلك هجموا عليهم وفرقوهم وارجعوهم الى داخل القرية وشددوا الحصار عليهم واسفرت هذه الحادثة عن اثنين وثلاثين قتيلاً من الدروز واربعة من النصارى . وبعد ان كانت اهالي بعقلين اصدقاء لسكان دير القمر اصبحت من ألد اعدائهم وتحرك الدروز للفتك بهم وحرضهم على ذلك مشايخهم آل جنبلاط وعماد وباتوا يتأهبون لاخذ الثار ورفع العار عنهم

الفصل الخامس والثلاثون والمائة

في ارسال الدولة سلاحاً الى الدروز

انتشر الخبر عن حادثة بعقلين وبلغ الشام وكان الدكتور مشاقة يتردد على سليمان افندي امين وكالة الحج باشغال تتعلق بامراء آل شهاب فسأله سليمان عن الحادثة فاخبره مشاقة بما حدث بايجاز وقد خفي عليه ان والي الشام وولاة الامور مطلعون على حذافيرها وهم ساعون لتنفيذ غاية الدولة بالنصارى عن الدروز . وبعد ايام تكاثر عدد الدروز في الشام واستمر وفودهم اليها من اطراف لبنان . وصدف للدكتور مشاقه انه سمع سليمان افندي يكلم وجيهاً درزياً في شؤون هامة وشاهد الشيخ قاسم القاضي قادماً من دير القمر فاقام بالشام اياماً وقفل راجعاً الى حيث اتى وقد اصحبه نجيب باشا والي الشام بكمية كبيرة من الرصاص والبارود ليوزعها على رجاله الدروز وكان مشاقه نظره مع بعض من حضر من الدروز في بيت سليمان المار ذكره ومن هذه القرائن ادلة قاطعة على دسيسة الدولة وقيام رجالها في تتميمها . وقد تأكد ان مشايخ آل نكد لا يسمحون لاخوانهم الدروز ان يفتكوا بنصارى الدير لانهم متمون لهم وهم قوتهم وسبب بقاء وجاهتهم وان الشيخ قاسم القاضي نسيب للمشايخ وبالطبع يحافظ جهده على كرامتهم

وتعزيز قوتهم

وكان بدمشق عدد كبير من مهاجري دير القمر يشتغلون فيها فجمعهم الدكتور مشاقه وقص عليهم ما وقف عليه بطريق الصدفة وتداول واياهم في الشؤون الحاضرة وفض عقدهم على اعلان نصارى دير القمر وتحذيرهم من الدروز واقترح عليهم ان يتلافوا الامر بالتي هي احسن ولكن اذا كتب لقوم الشقاء ومنوا بجاهل عبثاً تحاول الافراد منه رد مكروه واطفاء ثورة وخصوصاً اذا كان هو الدافع والمتحد ضدها كما كان عمال الدولة بذاك العصر

الفصل السادس والثلاثون والمائة

في حادثة دير القمر الثانية

مرت الايام على حادثة بعقلين والدروز في خلالها في حركة وذهاب واياب وعقد مجتمعات وتأهب بخلاف نصارى دير القمر الذين ناموا الى معاقل آل نكد وظنوا انفسهم في مأمن منيع من طوارق الحدثان وكانوا يذهبون من مكان الى آخر بدون تحذر و يشاهدون قدوم الدروز وتكاثر عددهم من يوم الى آخر ولم يفطنوا الى مغبة غفلتهم واقبل دروز اقليم المناصف الى الدير ليلاً و باتوا عند اخوانهم بدون ان يشعر بقدومهم احد من النصارى او شعروا ولم يكترثوا بهم لانهم كانوا على ثقة وهمية في اخلاص جيرانهم ومشايخهم آل نكد لهم . و بينما هم على ذلك واكثرهم متغيب عن البلدة في مدن سوريا ونواحيها غير عالمين بما تولده الليالي اذ هجم عليهم دروز المناصف فافاقوا من رقادهم على صوت البارود وقرقعة السلاح

وعند ذاك تراكضوا الى سلاحهم والتحم القتال ودافعوا دفاع الابطال عن منزلتهم وشرف بسالتهم ولكن عددهم كان قليلاً بالنسبة الى عدد الدروز الذين ظهروا عليهم فجأة واحاطوا بالمدينة باقل من وقت يذكر فاشتدعليهم القتال وحصرهم الدروز في بيوتهم ولكنهم قاتلوا قتال الاشداء وردوا عنهم غارات الدروز المتواصلة

والتجأ بعض سكان حارة الدروز الى مشايخ آل نكد وطلبوا منهم الحماية ومراعاة حقوق الجار فلم ينالوا جواباً غير لقاء حتفهم من ايدي الذين كانوا يحاربون عنهم غير ان الشيخ حموداً تقدم الى ابراهيم مشاقة وقال له كن على ثقة لا يقترب احد الى بيتك ولا

يمسك ضررٌ من رجالنا

ولما علمت نساء الحي بتأمين بيت مشاقة اقبلن اليه مستغيثات . وحدث ان ابراهيم مشاقة تفقد ولده فلم يجده في البيت فخرج يفتش عنهُ و بعد خروجه بمدة قصيرة هجم على البيت سبعون من الدروز يتقدمهم احد اتباع الشيخ حمود وكان في البيت اندراوس مشاقة ورجل آخر فدافعا عن الحريم جهدهما الى ان صرعا وعند ذلك لما لم يعد من يدافع عن الدخول الى البيت دخلوه واغتصبوا باب غرفة الحريم بخلاف عادتهم وغرضهم ليس الفحشاء بل النهب وعلت الضوضاء وملأ صراخ النساء الفضاء وكادوا يظفرون بار بهم لانهم قتلوا خادم الغرفة وهو وراء الباب لو لم يقبل ابراهيم مشاقة ومعه اربعة بواسل ويهزمهم بعد عراك طال مدة وقتل فيه واحد من الاربعة . وبعد ذلك نقل النساء الى سراي الامير حيث كانت الرجال تدافع عنهم بكثرة و بسالة ودامت الحرب قائمة سحابة ذلك النهار ونصارى الدير يزدادون نشاطًا على الفتك بالدروز وقد ابلوا بهم بلاءً حسنًا وردوا كيدهم في نحرهم . . . مضى ذلك النهار ولم يقدر الدروز على امتلاك البلدة ولا اخراج اهلها منها الا انهم استولوا على قسم من الجانب القريب من مساكنهم بيوته متفرقة واغلب رجاله غائبون

وهجم الشيخ عباس بن ناصيف بك ابي نكد على محلة الكنائس لعلمه ان العادة في حدوث الفتنة ان يتراكض الاهالي باموالهم الى الكنائس ورام مع رجاله ان يغتصب بابها ولكن النصارى اصلوه نارًا حامية واصابوا منهُ مقتلاً فوقع عن جواده قتيلاً وفرَّ رجاله من امام النصارى الذين ظلوا يعملون بهم الى ان ارجعوهم الى مراكزهم

وفي ثاني الايام هجم ثلثمائة درزي على كنيسة مار الياس للروم الكاثوليك وتصدى لردهم عنها ثمانية وافلحوا ومن هؤلاء روفائيل مشاقة ونقولا جبور صوصة الذي قيل انه القاتل للشيخ عباس في حادثة الامس وسواهم من اهل المحلة فتقدم الثمانية بقلب واحد واصلوا الفرقة الهاجمة نارًا اكالة حتى ارغموهم على التقهقر وخرجوا في اثرهم الى الجبانة وهناك اصيب نقولا جبور بطلق من الوراء ومثله اصيب روفائيل مشاقة و بعد وصول جبور الى بيته قضى نحبهُ والطالق عليهم كان في بيت بالقرب من الجبانة من دروز بعقلين عند ما شاهد انهزام فرقة كبيرة العدد من وجه بضعة من الرجال هزتهُ الحمية فرمى نقولا جبور واصاب منهُ مقتلاً ولحق بروفائيل مشاقة العطب ولكنه شفي من جراحه

وهجم الشيخ قاسم القاضي برجاله على احدى الكنائس والقي نحبه وذهب عدد كبير

من رجاله طعاماً لنار حماتها البواسل

وكان شأن الدروز عند ما ينتهبون بيتاً و يستولون على موجوداته انهم يلقون به النار فاحرقوا بيوتاً عديدة وكان اكثر النصارى نكبة بيت مشاقة لما اشتهر عنه ان فيه مالاً طائلاً وموجودات ثمينة فتردد اليه الدروز وسلبوا ما وصلت اليه ايديهم ولما ايقنوا بخلوه من المتاع احرقوه

وكان من قواد الدروز انهم قبل الهجوم اوقفوا رجالاً على الطرقات ليقطعوا المواصلة بين اهالي الدير و بين من تدفعه الحمية الى نجدتهم وقد افلحوا بذلك لان نصارى الباروك اقبلوا الى نجدة اخوانهم وعند ما وصلوا الى بيت الدين وشاهدوا حامية الدروز محيطة بالمدينة رجعوا على اعقابهم بالرغم عن تحريض قائدهم الشجاع ابراهيم صقر لهم وحثهم على الهجوم ولما لم يرَ منهم اقداماً تركهم وشأنهم وتقدم الى الامام ومعه اولاد عمه فاخترق صفوف الرجال وكانت الدروز تطلق عليه النار من الخارج واهالي الدير من الداخل ظناً منهم انه خصمهم . وظل هاجماً واحدث ضجة عظيمة ولم يثنه عن التقدم مالاقاه من العقبات ولما اقترب من الديرانيين رفع لهم علامة عرفوه منها فحولوا رصاصهم عنه وصوّبوه على خصمهم وتم له ودخل المدينة مع اولاد عمه وكلهم سالمون

وقبل وصوله كان الشيخ حمود قد استولى على حارة الصيادنة وتركها ملعباً للنار وتقدم منها الى بيت بطرس الجاويش . وكان داخل البيت ثمانية عشر مقاتلاً فاقام على حصاره وتكاثر الدروز حوالي البيت و بلغ عددهم خمسمائة محارب وشددوا عليه الحصار فدفعهم الجاويش برجاله و بينما هو في اشد الضيق يلاقي هجمات الدروز ببسالة غريبة وصل اليه ابراهيم صقر واولاد عمه لنجدته ودخلوا عليه من الباب الخلفي و برزوا مع المدافعين واستانفوا القتال واخيراً امتشق سيفه وخرج اليهم وتبعه اولاد عمه واقتدى به بقية الرجال واعملوا سيوفهم برقاب الدروز حتى ابعدوهم عن الحارة

واقبل ثالث الايام والحرب سجالاً اما حارة الخندق شرقي البلدة فلم يتمكن الدروز من الوصول اليها لتلاصق بيوتها و بعدها عن حارة الدروز

وفي اليوم الرابع من الحادثة وصل الى الدير السيد عبد الفتاح الاسكندري من قبل والي صيدا ففض جماهير الدروز وعاد يصحبه الامير وكثير من رجاله من نصارى الدير

وانجلت الحادثة عن مائة وتسعة قتلى من النصارى وعدد كبير من الدروز

بالرغم عن تكتمهم وثلاثة عشر من المشايخ وما دفن النصارى قتيلاً منهم الا ولقوا بالجبانة عدداً جديداً من قتلى الدروز ولا عجب من كثرة قتلى الدروز لانهم كانوا مهاجمين والنصارى مدافعين والتعرض الذي يلاقيه المهاجم غير ما يلاقيه المدافع وبلغ عدد قتلى الدروز ماينيف عن خمس مائة رجل

ولما ظهر للنصارى غدر مشايخ الدروز بهم في هذه الحادثة نفروا منهم نفوراً تاماً وطلبوا من الوزير حاكما عليهم من قبله ورفع سلطة المشايخ عنهم فاجابهم الى ذلك لان هذا ما كان يرغب فيه ولولاه لما كان الاتراك يختمون العرضحالات طعناً على امراء الجبل ويحضون اهله على الفتن

الفصل السابع والثلاثون والماية

في حادثة زحلة

وبعد مضي شهر كامل على حادثة دير القمر اجتمع الدروز ثانية وتأهبوا للاجهاز على نصارى زحلة فانضم اليهم شبلي اغا العريان بفرسانه الذين تحت قيادته للمحافظة على ارواح واموال الرعية وتقدموا بعد ان اكتملت معداتهم الى مدينة زحلة واشهروا قتالاً شديداً ولكن اهالي زحلة كانوا على استعداد مثلهم فردوهم وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً واصيب شبلي برمية كادت تذهب بروحه فرجعت الدروز عن زحله بالفشل وبعد الحادثة شرعت اهالي المدينة في اقامة المتاريس والحصون واعداد معدات الدفاع ولكن الدولة امرت بهدم ما بنوه مدعية ان ذلك حطة في شأنها وكان عدد الهاجمين على زحلة من الاتراك خمس مائة رجل نجدة للدولة فتأمل

الفصل الثامن والثلاثون والمائة

في حادثة جزين

رات الدولة ايد الله شوكتها بعد الحوادث المار ذكرها ان تزيد عنايتها في السهر

على راحة الاهالي فارسلت مصطفى بك بفرقة كبيرة من جنودها المنظمة يجعل في البلاد الراحة و يلقي بين الاهالي سلاما وفي وصوله ظهر ميله الى تحقيق اماني الدولة فيه فصار يأمر و ينهي و يعدم من النصارى كل من عرف لهُ مكانة وكان الدروز طمعوا برضى الدولة منهم فاشهر جماعة منهم من سكان الشوف الحيطي العداء على نصارى اقليم جزين وهجموا عليهم وقد احسن النصارى الدفاع عن كرامتهم وتغلبوا على خصمهم بقيادة بطلهم الشجاع ابي سمرا غانم من بكاسين وردوهم على اعقابهم والحقوا بهم رصاصهم حتى ادخلوهم بيوتهم في عماطور وكان ابو سمرا ينوي اللحاق بهم الى النهاية ولكن حلّ عزمه وصول فرقة من الجند المنظم الذي كان مقيماً بالمختارة فرجع برجاله ولم يشاء مقاومة الجند انما قائد الفرقة القى القبض على اربعين رجلاً من اهالي جزين وارسلهم الى بيروت عند الوزير لتجري محاكمتهم و بعد مدة من وصولهم اطلق سراحهم لانهم لم يثوروا الا بامر الدولة وتحريض عمالها بسوريا والي صيدا ووالي الشام بامر من صهر السلطان الذي قدم من الاستانة بهذه المهمة لذبح العبيد المارقين بزعمه كامر بك

الفصل التاسع والثلاثون والمائة

في تعيين عمر باشا حكمدارًا على لبنان



عمر باشا

ارسلت الدولة الى لبنان عمر باشا وهو نمساوي الاصل اعتنق الاسلام وتقلب بوظائف الدولة وكان نزيهاً شجاعاً وعقب وصوله الى الجبل سكنت الاحوال وراقت سماء لبنان بالرغم عن الاعاصير والزوابع التي كانت تتهدده والقى القبض على اهل الزعامة من الدروز وارسلهم بالقيود الى الوالي ليوهم الناس ان الدولة بريئة من الحوادث لاناقة لها فيها ولا جمل ولكن يدحض هذا الزعم عدم صدور حكمها على واحد من المذنبين وعلى اثر ارسال اهل العصابة من الدروز الى بيروت اجتمعوا اتباعهم وهجموا على عمر باشا وهو في سراي بيت الدين وقطعوا الماء عنه فخرج اليهم وتهددهم بالعقاب الصارم فرجعوا عنه الى الشوف الحيطي وحضر اليهم شبلي العريان بجنده المنظم وتقدموا الى السمسقانية وهم في الطريق التقوا بفرقة من عسكر الارناؤط قادمة الى عمر باشا ليرسلها الى تاديبهم ولما ادركوا غرض قدوم هؤلاء الى بيت الدين اصلوهم ناراً فارتدت عليهم العساكر بالقرب من ضفة نهر الحمام وهزمتهم وظلت متقدمة الى ان وصلت الى عمر باشا الذي قام لساعته ولحق بهم وهم نازلون في السمسقانية وهناك اشتبك القتال بينهم . وكان مع الدروز شبلي العريان و باقل من ساعة هزمهم عمر باشا وولوا الادبار

وكان نزاهة عمر وعدالته لم تطابق مآرب الدولة فعزلته عن لبنان وقسمت الجبل الى قسمين شمالاً وجنوباً والحد الفاصل بينهما طريق الشام وعينت على القسم الشمالي الماهول بالف درزي فقط حاكما مسيحياً وعلى القسم الجوبي الذي خمسة وسبعون بالماية من سكانه نصارى والباقي دروز حاكما درزياً وابقت مدينة دير القمر مستثناة حسب طلب اهاليها فظل حاكمها يأتمر بامر والي الولاية



الفصل الاربعون والمائة

في حادثة حاصبيا

في سنة ١٨٤٥ أرسل والي الشام محمد باشا قبرصلي اعلاما الى دروز حاصبيا وحضهم على قتال النصارى ومدهم بالسلاح والذخيرة واوعز الى دروز حوران ان يتقدموا على مساعدتهم ومثل ذلك سال مسامي البقاع ان يعضدوهم على نصارى حاصبيا وفي اوائل الحركة وقبل نضوجها قر رأي النصارى في تلك المدينة على تركها

والقدوم الى زحلة هرباً من القتال وحبًّا بالسلام فقاموا عنها مثقلين بالاحمال وقام معهم الامير بشير شقيق الامير سعد الدين وفي وصولهم الى راشيا خرج عليهم الدروز وباشروهم القتال وكان قتال المسيحيين دفاعاً لان عيالهم واولادهم وموجوداتهم من الامتعة ارغمتهم على اتخاذ جانب الدفاع فدافعوا طاقتهم والامير اجهد نفسه بالدفاع ولم يفلحوا وانقضّ عليهم الدروز انقضاض الباشق على طير صغير او الاسد على فريسته وسلبوهم وفتكوا بمعظمهم ومنهم من ولّى الادبار والتجأ بسلّمي البقاع فكان نصيبهم نصيب من تركوهم وراءهم القتل والعذاب المؤلم ومنهم من فضل الرجوع الى حاصبيا فاستقبلهم الدروز فيها والحقوهم بقتلاهم وفريق ظل مع الامير وجدوا المسير الى زحلة فوصلوها سالمين

وبعد ايام ارسلت حكومة الشام تطلب الامير بشيرًا فقدم اليها وعينته حاكماً على حاصبيا لكنها لم تسمح له بمعاقبة المعتدين وزعماء الفتنة وهذه المعاملة بعدم معاقبة المذنبين من دروز لبنان برهنت على ان للدولة يدًا في هذه الحوادث

الفصل الحادي والاربعون والمائة

في ثورة دروز حوران

في سنة ١٨٥١ امتنعت دروز حوران عن دفع الخراج لوالي الشام كالعادة فقام محمد باشا بفرقة من الجنود لاخضاعهم واجبارهم على تقديم المفروض عليهم ولكنه رجع بالفشل والخيبة بعد معركة طالت بضع ساعات ولولا الليل كانوا فتكوا به واستولى الدروز على الذخيرة والمدافع ورجع الباشا الى الشام وجنوده افرادًا وازواجاً وبعد مدة توسط المستر وود فارجعوا الى الحكومة مسلوبات عساكرها

الفصل الثاني والاربعون والمائة

في مقاصد الدولة والدول

لما كان غرضنا بيان اصل جرثومة المذابح وما فعلته الدولة من ايقاد نيران الفتن وايغار صدور رعاياها من دروز ومسلمين على النصارى المستظلين بظلها — اضطررنا

ان نرجع بالقارىء الى المعاهدة المتفق عليها بين الدولة التركية والدولة الافرنسية لما لها من العلاقة المهمة في موضوعنا الآن · بعد ان تبوأ نابليون الثالث عرش فرنسا بحث في المعاهدات الدولية القديمة فوجد المعاهدة التي تخول لدولة فرنسا الحق بحماية مسيحيي الشرق التابعين لكنيسة رومية ومصادق عليها من سلاطين الاتراك القدماء فطلب من الدولة التركية تجديدها مع تجديد حماية موارنة لبنان واعترفت له الدولة بذلك الحق اعترافاً مبهماً وجددت له المعاهدة والحماية · وفي سنة ١٨٥٤ علم بهذه المعاهدة قيصر الروس بولس الثاني فرام الغاءها لانه كان يريد الحط من منزلة نابوليون الثالث لاسباب لا نسترسل بذكرها واخذ يسعى لدى الدولة بالغاء تلك المعاهدة ولم يفلح

ولما لم ينجح في اسقاط حقوق فرنسا في الشرق عموماً وسوريا خصوصاً طلب منها ان تخوله حق حماية نصارى الشرق من الروم الارثوذكس فلم تجبه على طلبه مع ان قيصر الروس كان على جانب عظيم من الابهة وعلو الشان وكان يرى تضعضع الدولة التركية وضعفها وقرب زوالها وراى ان دول اوربا مشتغلة عنه بنفسها وراي ما كان عليه من قوة الجيش واشتغال الدول بهام شوونها وضعف دولة بني عثمان ان الوقت لا كتساحها قد آن وميعاد ضمها الى مملكته وتنفيذ وصية بطرس الكبير سلفه اقترب · وحتى يجعل له سبيلاً لمقاتلتها اخذ يكرر طلبه منها حقوقه حماية روم الشرق اقتداء بدولة فرنسا ومن طبع الدولة التركية المماطلة · فاخذت تماطله وهو يتاهب ويعيد طلبه حتى اكتملت معدات الحرب من تاهيب الجند وتحضير السفن الحربية وكانت دولة الانكليز وفرنسا تفضلان الاتراك على الروس وتعدان الدولة التركية بمساعدتها لانهما انتبهتا الى الخطر المحدق بدول اوربا اذا استولت دولة الروس على الاستانة لذلك صممتا على قتال روسيا لا دفاعاً عن الاتراك بل حفظاً لاوربا من خطر روسيا عليها

وفيما كان قيصر الروس يطالب بحقوقه في حماية بني مذهبه في الشرق والدولة تماطله على جاري العادة هجم الاسطول الروسي في بحر الاسود على الاسطول التركي وحطمه وكان ذلك كافياً لاشهار الحرب بين الدولتين وعند ذلك زحفت الجيوش الروسية وتقدمت الى الاستانة وكان لها من النصر ما ذكره التاريخ ولا حاجة الى اعادته انما نذكر ان الدول ادركت دنو الخطر لانها ايقنت ان روسيا الظافرة — فاشتركت كلها على مقاتلتها وطالت تلك الحرب ثلاث سنوات كان النصر فيها حليف الروس من البداية الى النهاية غير ان مداخلة الدول اضطرت روسيا الى ارجاع ما امتلكته واعادت دولة بني عثمان

الى الوجود بعد ان كاد يقضي عليها ودفعت دولة الانكليز اكلاف الحرب وحصلت الدولة الروسية على مطاليبها وامتيازات فوقها مثل اجبارها الدولة التركية على مساواة حقوق النصارى بالمسلمين بعد ان كانت الدولة التركية تدعوهم عبيداً فقبلت هذه الشروط ولكنها لم تبرزها الى الوجود بل كانت تؤجل العمل بها والدول تلح عليها في انجازها وكثرت تشكيات قناصلها من سوء تصرف الاتراك مع النصارى خصوصاً بسوريا

وعند ذلك رات الدولة الافضل لها ان تقرض هذه الفئة من رعاياها وتريح نفسها من مضايقة الدول لها لاجلهم . وعلى هذا الراي انتدبت من رجالها الصادقين صادق افندي وارسلته الى سوريا لزرع جراثيم الفتنة واثارة الدروز والاسلام على النصارى وقرضهم ولم تتجاسر على اظهار غايتها او العمل بها راسا خوفا من قيام الدول عليها بل عملت عمل بيلاطس البنطي حيث غسل يديه من دم المسيح بعد ان امر بقتله

الفصل الثالث والاربعون والمائة

في وصول صادق افندي الى الشام

قدم صادق افندي الى الشام في اواخر سنة ١٨٥٩ مرسلاً من قبل الدولة لزرع بذور الشقاق بين الاهالي وكان مشهورًا في عالم السياسة وله فيها القدح المعلى فمر ببيروت ثم حضر الى الشام وعين احمد باشا المشير الشاهاني واليا على ولاية الشام وشرع في انجاز مهمته وكان كثير الاجتماع بمشائخ الدروز والمسلمين المتعصبين وكانت المشايخ تحصل على وعود باهظة اهمها انهم لا يقاصون على فتكهم بالنصارى وان اتموا ما عهد اليهم من التنكيل وقرض الكفرة ينالون المراتب العالية وغير ذلك من المواعيد . ولم تنطل هذه الحركة على العاقل المتبصر فبات من لحظ هذه الشرارة يترقب تاثيرها بقلب واجف وقد تبين ان جل مهمته محصورة في هذه الفئة التي تزوره ويكثر من الاجتماع بها دون سواها من بقية الاهالي وحيث قام عن سوريا في قضائها وقبل ان يعود الى الاستانة وردت اليه تعليمات من الدولة تشير عليه ان يوصي الوالي بحفظ المبادي التي زرعها ومساعدة البذور على النمو وبعد تركه الشام انقلبت سياسة الوالي مع النصارى بطناً لظهر وذلك مما يؤكد انه تاتي اوامر جديدة من صادق افندي لم يكن يعلم بها من قبل ولا خطر له

العمل بموجبها قط

وبعد قيام صادق افندي من سوريا حدث في جوها بروق ورعود اكد ظهورها انها طلائع حرب هائلة ومجازر ليس بعدها مجازر وبدأت غيوم العداء تتجمع في لبنان الشرقي وتمتد منه الى الغربي حتى خيمت فوق حاصبيا ومقاطعة وادي التيم وامتدت منها للبنان الغربي حتى عمت مقاطعة المتن الغربية من بيروت وخيمت فوق قرية بيت مري وغيرها

فقام الدروز بتحريض الدولة على يد صادق افندي واستعدوا للحرب واكثروا من التعدي على امراء شهاب حكام راشيا وحاصبيا منذ القديم وقتلوا عددًا من اتباعهم ونهبوا املاكهم وغير ذلك من التحرش ولا نعيد التنبيه لمخيلة القارىء ان الدولة دفعت الدروز لذلك وكان تعديهم هذا افتتاحًا للفتنة ليحملوا المسيحيين على دفعهم وردّ القوة بالقوة لان الحكومة لم تكن تنصفهم ولا تقتص لهم من مضطهديهم

فقتل رعاع الدروز بضعة عشر رجلاً في اقل من شهرين فاكثر المسيحيون التشكي للحكومة ولا حياة لمن تنادي وكان خورشيد باشا والي ايالة صيدا يدفع الدروز بامر الدولة ويحثهم على الفتك بالنصارى ويمدهم بمعدات الحرب من ثكنات الجند

وبينما الامور على ذلك والناس واجسة خائفة هجمت شراذم الدروز على قرية بيت مري في ٣٠ آب سنة ١٨٥٩ واشهروا على اهلها الحرب وبيت مري قرية بالقرب من بيروت تبعد عنها مسافة ستة اميال فقط ولو صاح الرجل منها لخورشيد باشا الوالي لسمعه ومع ذلك لم يسمع حتى فرقعة البنادق وصليل السيوف وكان جمهور من الدروز يسكن بيت مري مع اهلها النصارى

فاتحد الدروز مع ابناء دينهم المهاجمين على جيرانهم المسيحيين واشتد سعير الحرب فدفعهم النصارى واحسنوا الدفاع وبعد ساعات قليلة اجلوا الدروز عن القرية وهزموهم شر هزيمة فولى الدروز منهزمين بعد ان تركوا في ساحة الحرب عددًا كبيرًا من القتلى رغمًا عن كثرة عددهم وقلة عدد مدافعيهم واتسع الخرق وتقدم يوسف عبد المالك احد مشايخ الدروز برجاله فسلب واحرق ثلاث قرى مسيحية وقتل بعض رجالها

ولما وصل الامر لهذا الحد نهض خورشيد باشا من بيروت بفرقة من الجند وكانت معدات المذبحة لم تتم بعد فغمز الدروز للسكينة ريثما تتم المعدات ويأتي لنصرتهم اخوانهم من

حوران ووادي التيم وغيرها من الاصقاع الآهلة بالدروز فأخلد الدروز للسكينة وموعدهم فصل الربيع المقبل من سنة الاهوال

الفصل الرابع والاربعون والمائة

في سنة الاهوال والاستعداد

وبعد حادثة بيت مري الاولى تحرك المسلمون في مدن وقرى سوريا يريدون الفتك بالنصارى على جاري عادتهم لانهُ كان يعز عليهم ان يروا قوماً كانوا بالامس يدعونهم عبيداً و يسترقونهم واليوم اصبحوا احراراً نظيرهم لهم مالهم وعليهم ماعليهم بفضل حرب القريم واكراه الروس الاتراك على اعتاق النصراني واعتباره حرًّا كالمسلم امام الشريعة . وكان ذلك يأباه المسلمون و يترقبون فرصة ليوقعوا بهم لانه عز عليهم ان يروا العبد حرًّا

فتقاطر اشياخ الدروز الى بيروت وقضوا فصل الشتاء بها ضيوفاً على خورشيد باشا وهو يملي عليهم كيفية قضاء المهمة وذبح القطيع او العبيد كما كان يعرف الاتراك لقب النصارى

وفي اول فصل الربيع من سنة ١٨٦٠ هب مشايخ الدروز الى اوطانهم وبدأوا باعداد معداتهم وحشدوا عصائبهم و بدت وفود الدروز من وادي التيم وحوران وغيرها تفد على المختارة مركز آل جنبلاط مشايخ الطبقة الاولى من الدروز

وفي شهر نيسان من تلك السنة ورد أمر الى خورشيد باشا من السلطان باعدام المسيحيين ويأمره باطلاق ايدي الاوباش وذبح النصارى عن آخرهم . وللحال اشتهر الامر في بيروت وعلم القوم واشتد خوفهم وايقنوا بدنو الاجل

وللحال ارسل خورشيد باشا بالامر الى سعيد بك جنبلاط واعلمه بفرمان السلطان المرسل للدروز و المسلمين يأمرهم بالفتك بالمسيحيين وقطع دابرهم والح عليه ان يصدع بالامر و يباشر المذابح

وما بلغ جنبلاط بك الامر حتى بث رجاله لايصالهِ لمشايخ الدروز الآخرين وامرهم بالهجوم على النصارى فتقدمت شرذمة من الدروز وقتلت بضعة عشر شخصاً من النصارى في الطرقات ثم لدير عميق وقتلوا رئيسه وهو على فراشه و بضعة من خدام الدير ونهبوه .

ثم حدث لهم مناوشة بقلب دير القمر فقتل منهم جماعة وعادوا مخذولين

اما سعيد بك جنبلاط لما كان عالما بالامر السلطاني العالي باعدام المسيحيين عن اخرهم قدم الى بيت الدين وطلب مقابلة مطران الكاثوليك وجبرائيل مشاقه واخيه روفائيل وبضعة غيرهم من اصدقائه واخذهم معه الى المختارة

اما روفائيل مشاقه آب راجعاً الى دير القمر على نية ان يرحل عنها الى بيروت لعند ولده خليل الذي كان ترجمانا مقيماً لقنصل الانكليز بها — ولكن طاهر باشا الذي كان مقيماً في الدير ومعه فرقة من الجند الشاهاني للمحافظة (كما تدعي الدولة) صدّه عن الخروج من المدينة كما منع سواه من الذين طلبوا المهاجرة من تلك البلدة التعيسة التي اصبحت نقطة لمذبحة هائلة

وكانت مشايخ الدروز تجتمع بطاهر باشا وتتلقى الاوامر الشاهانية منه فكتب روفائيل مشاقة لشقيقه ابراهيم في بيروت بما وقع له مع طاهر باشا وهذا اطلع القنصل على الخبر

وفي الحال ارسل القنصل الى بشير بك ابي نكد وطلب منه مساعدة روفائيل على الخروج من دير القمر ووصوله الى بيروت و بعد مماطلة وتكرير طلب تمكن روفائيل من البلوغ الى بيروت بعياله

وكتب القنصل بومي سعيد بك جنبلاط بجبرائيل مشاقه . وكان يقال عن البيك المشار اليه انه نزيه ولا حاجة الى توصيته ولو امكنه منع القلاقل على الاطلاق لكان ضحى كل ثمين على منعها ولكن اذا كانت الدولة تبغي احداث الفتنة والفتك برعاياها ماذا تفيد استقامة الفرد . وكثيرون مثل سعيد بك يودون الوفق والوئام عن المناكفة والخصام

الفصل الخامس والاربعون والمائة

مجزرة دير القمر وجزين في اول حزيران الى ٢١ منه

كان من طاهر باشا انه ارغم نصارى دير القمر على تسليم سلاحهم لهوعندما حاولوا التخلص من اوامره لان عساكر الدولة كانت منتشرة في المدينه تنزع السلاح منهم وجماهير الدروز رابضة على الطرقات تمنع عليهم الخروج منها لذلك لم يقدر الديرانيون على

رفض اوامر طاهر باشا فجمعوا سلاحهم وسلموه اياه غير ان المطران ومن كان معه من النصارى في بيت سعيد بك جنبلاط تمكنوا من القيام عن تلك البقعة الى صيدا . و بعد ان فرغ طاهر باشا من جمع السلاح سمح للدروز بالهجوم على المدينة فدخلوها واعملوا سيوفهم في رقاب الاهالي وكانوا يذبحونهم ذبح النعاج وطلبت النصارى الالتجاء الى السراي فصدهم الجند وساعد الدروز على التنكيل بهم بدون شفقة ولا رحمة ولو انهم استجاروا بعدوهم الدرزي ربما وجدوا بقلبه نوعاً من الرحمة والحنان و لكن الاتراك ابت نفوسهم ان يكون لها هذا الحنان

فسالت دماء الابرار انهرًا في شوارع المدينة ودامت الحال ثلاثة ايام متوالية لم ينج من النصارى الا عدد قليل . ومن كان له صديق من الدروز مخلص دافع عنه او سعى بنجاته وفي نهاية المجزرة نهب الجزارون البيوت ولم يتركوا فيها غير الذي شاوا ان يكون مطعماً للنار فاحرقوا مساكن النصارى ولم يتركوا منها مسكناً واصبحت تلك المحلة بما كان فيها من السكان قاعاً صفصفاً تنعق في فضاها البوم والغربان . كل ذلك حدث ووالي صيدا مقيم بعساكره في الحازمية لم يظهر اكتراثاً كأنه قدم من عالم آخر لا علاقة له بعالم الدير وحوادثه مع انه علم بما جرياته الاولية وربما كان عالماً به من قبل وله ضلع بجمع السلاح الى آخر ما هنالك من التحضيز والتأهيب بامره

الان قناصل الدول تقدموا اليه وشددوا عليه بالقدوم الى الدير والذب عن النصارى وكان بامكانه قطع المسافة ببضع ساعات لو شاء المدافعة عن غنم المسيح لكنه جعل مسيره بكل بطء فلم يبلغ محل المجزرة الا بثلاثة ايام كأنه اراد ان يفسح للدروز مجالاً للفتك وفي وصوله وجد بيت الجاويش لم يزل قائماً والدروز يقيمون على حصاره والقارىء ينتظر منه المدافعة عن البيت وسكانه وارجاع الدروز عنه . فهو لم يفعل من ذلك شيئاً بل ظل واقفاً يشاهد بطش الدروز بما كان في داخله من النفوس حتى اذا ابادوها القوا في جوانبه النار وعاد شعلة فرماداً

ولم يصدر امره بالامان حتى اكد برأى عينه ان جميع الاهالي مفروشة على الحضيض جثثاً هامدة عند ذلك لعلع المنادي بصوته بالامان ولم يبق حياً حتى يسمع مناداته سوى النساء المولولات على فقد رجالهن واولادهن واصبحن تائهات لا ثياب تجال حرمتهن ولا قوت يسد جوعهن همن بالبراري وطفن على المدن والقرى المجاورة نادبات نائحات من اصابهن من الويل والعسف والجور ودرن على البيوت

متسولات بحالة تدمي الفواد

ولم يكف الدروز عن الحرب حتى اكدوا انهم غدروا بكل حي ونهبوا كل متاع ذات قيمة

اما الجنود التركية فارتكبت المنكر كعادتها واستباحت المحرمات وهتك العرض ومن شب على خلق مات عليه و بلغ عدد قتلى مذبحة الدير ما يقارب الفي نفس من رجال بالغين ونساء واطفال رضع

وقام الدروز من دير القمر ومن بوابة بيروت وما في طريقهم الى الشام كانوا يفتكون بمن تصدى لهم من الاحياء اوعثروا عليه من المتاع

والتقوا بالامير بشير القاسم في طريقه الى منزله وقتلوه ولدى وصولهم الى جزين اعملوا سيوفهم بالاهالي ونهبوا ما وصلت اليه يدهم وازاحوهم عن وطنهم وحدث انه قدر لواحد من النصارى النجاة والفرار الى قرية جباع في بلاد الشقيف ونزل على الشيخ عبد الله ضغمة فاغاثه وكان لهذا الشيخ منزلة رفيعة عند الشيعيين لتضلعه بالعلوم ولحسن سيرته وسريرته الا ان درزيًّا تتبع اثر المستغيث حتى وصل الى باب الشيخ وعند ذلك قامت قيامة المتاولة عليه وعلى رفاقه ونهضوا نهضة واحدة لمقاومة الدروز اذا لم يراعوا حرمة شيخهم الجليل . وكان من الوزير لما علم بما وصلت اليه حالة المتاولة والدروز انه اسرع اليهم ووصل الى الشقيف في ثاني الايام مع ان المسافة عن بيروت اضعاف المسافة من بيروت الى دير القمر ولو سار على معدل مسيره ذاك لما كان وصل الى بلاد الشقيف باقل من اسبوع فتأمل كيف ان الانسان آفة غايته . وفي وصوله منع المتاولة من الهجوم على الدروز واصلح بينهم

الفصل السادس والاربعون والمائة

في مذبحة حاصبيا

من يوم الجمعة ٢٤ ايار الى اول حزيران سنة ١٨٦٠ في خلال هذه الحوادث استعفى الامير سعد الدين من حكومة حاصبيا وعين والي الشام ولده الامير احمد خلفًا له وكان احمد باشا والي الشام يظهر للامير سعد الدين كل تودد واعتبار ويخاطبه كما كان يخاطب والده

فارسل اليه امرًا يستحثه للحضور الى حاصبيا وجمع بواقي الخراج من الدروز وارسل فرقة من العساكر لشد ازره ولما علم الدكتور مشاقة بعزم الامير على القيام اجابة لطلب الوالي منه اشار عليه بعدم الذهاب واعفاء نفسه من هذه الورطة لانه رأى من طالع الحال الخطر عليه من ثورة الدروز ولا يبعد ان يفتكوا به فاعتذر الامير اولاً وثانياً عن عدم امكانه للذهاب ولكن الوالي اصر على كلامه وكرر طلبه فقام الامير بالجنود من الشام الى حاصبيا ونزل في مركزه

وبعد وصوله طلب من الدروز البواقي للحكومة وكان هـذا الطلب كافياً لاثارتهم عليه فتألب دروز راشيا واقليم البلان مع دروز حاصبيا ومجدل شمس من شعراء الحولة المشهورين بالشدة والاقدام ونزلوا بالقرب من حاصبيا بقريتي شويا وعنيقة. ولما اكتمل عددهم هجموا على البلدة ولم يلاقوا مقاومة عنيفة من النصارى لقلة عددهم غير ان عدد قتلى الطرفين كانت متساوية مع وجود هـذا التفاوت . وبعد ساعات تراجع النصارى وتحصنوا في بيوتهم ولحقهم الدروز وفتكوا بهم واحرقوا مساكنهم فامر الامير قائد الجنود بالهجوم على العصاة بعساكرهم وردهم عن بيوت الاهالي فتردد بالمجاوبة على طلب الامير واخيرًا تظاهر بالهجوم ولكنه لم يطلق ولا امر الجنود باصابة الرماية وكان معه مدفع ادعى تعطيله بعد طلق واحـد في الفضاء . والانكى من ذلك انه لما رأى الدروز لا يتجاسرون على الدنو من السراي خوفاً من حاميتها المعززة بالسلاح عمل على ازاحة هذا الحاجز فطلب من الحامية سلاحها وتعهد بارجاع الدروز عن المدينة فلم يسع اولئك الابطال الا الامتثال خوفاً من انهم اذا رفضوا طلبه يتحد بعساكره مع الدروز عليهم وبعد ان جمع سلاحهم تظاهر بارساله الى الشام والحقيقة انه صار تسليمه الى الدروز ولما لم يبق ريب عند النصارى في اتحاد الجنود مع الدروز عليهم طلبوا الفرار لمرج عيون وهي على مسافة اربعة اميال عنهم ولكن حال دون خروجهم من السراي العساكر الشاهانية

وكان قناصل الدول يلحون على الوالي كي يرسل الجنود ويفرج عن الاهالي من ضغط الاتراك وقساوة الدروز وقر رأي الوالي على ارسال فرقة كبيرة من الاكراد بقيادة احمد بك صاحب الشهامة الذي طلب من الوالي ان يسمح له بضرب الدروز اذا لقي منهم مقاومة في الامتثال لاوامره فلم يسمح له بذلك. ولما رأى عدم التساهل في اجبار الدروز على الكف عن النصارى استعفى من القيادة وعند ذلك استحضر الوالي

الشيخ كنج العماد وارسله مع باوره الى حاصبيا وفي اثناء الطريق استغاثه بضع عشرات من النصارى فاغاثهم واحضرهم معه الى المجزرة وفي وصوله الى السراي ومفاوضته مع قائد الجنود التركية قر رأيهما على ترك الدروز ان تدخل على النصاري وتفتك بهم وفي ثاني الايام تنحى الجنود عن باب السراي فدخل الدروز وقتلوا كل من كان بها بعضهم بالرصاص والبعض الآخر بالسيوف والذي كان يفر منهم كانت الجنود ترجعه وتقدمه للذبح . وبعد ان اجهزوا على الرعية صعدوا الى الطابق الاعلى حيث الامير وصهره موجودان وقتلوهما وقتلوا الذين استغاثوا الشيخ كنج واغاثهم واحضرهم معه . وقتلوا اربعة من امراء الدروز ذهبوا ضحية الغلط والطياشة ظنًّا منهم انهم من النصاري ونهبوا المدينة واحدثوا النار في معظم بيوتها وتركوها خرابا ومن جملة قتلاهم الشيخ ابو صلاح الذي اصيب بجرح . وقبل وفاته احضروه الى قرية شوية وعالجوه وكان قائد الجنود يزوره ويصف له علاجاً . وعند وفاته اظهر كدره الشديد عليه وخلع على شقيق ابي صلاح فروًا وعزاه وشاطره الاسى على فقده . ومثل هـذه المعاملة وامثالها كثير مما يثبت للملأ اشتراك الدولة في هـذه الحوادث التي نرويها لك . وبلغ عدد القتلى ٧٢٤ من المسيحيين و ٤٠ من الدروز وجند الاتراك

الفصل السابع والاربعون والمائة

في مجزرة راشيا الوادي من ٣ حزيران الى ١٢ منه سنة ١٨٦٠

في ذات النهار الذي جرت به مذبحة حاصبيا بعد ان نزع قائد الجنود من النصاري سلاحهم كما تقدم بغت دروز حوران نصارى راشيا الوادي في بيوتهم وفي السراى وعلى مرأى الجنود التركية و بمساعدتها اجهزوا على جموعهم وقتلوهم مع امراء شهاب ولم ينج منهم سوى اميرين ثم نهبوا بيوتهم وتركوها عارية خالية . وقيل ان عدداً منهم استغاث باهل الاستقامة من الدروز واغاثوهم وردوا عنهم نكبات اخوانهم وبلغ عدد قتلى راشيا الوادي خمسمائة رجل وطفل وامرأة

الفصل الثامن والاربعون والمائة

في اجتماع الدروز على زحلة من اواخر حزيران الى ٤ تموز سنة ١٨٦٠

لا ريب ان القارىء يذكر حادثة زحلة سنة ١٨٤١ حين هجم الدروز عليها وشاهدوا من اهاليها الاهوال وكيف ارتدوا عنها بالفشل والخيبة وكيف ان الاهالي ابتنت المتاريس والحصون عقيب الحادثة وامرت الدولة بهدم ما بنوه وغير ذلك مما رويناه في ذلك المقام والذي نرويه الان حدث بعد ان فرغ الدروز من الفتك باهالي راشيا وحاصبيا اذ تحولوا الى شن الغارة على هذه المدينة التي ابقت في قلوبهم غصة فاجتمعوا من كل حدب وناد وتقدموا اليها وقلوبهم واجفة خائفة من شجعانها وعدم استسلامهم الى مواعيد الدولة واعتمادهم على قوتهم الذاتية وكأن ما رأوه من غدر الجنود التركية باخوانهم في دير القمر وسواها من المدن دعاهم الى اليقظة والحذر لذلك رفضوا مساعدة الدولة لهم ولم يسمحوا للجنود في الدنو منهم فنزلت العساكر الشاهانية خارج المدينة وكانت مختلطة بعدائها الدروز كانها واياهم على وفاق صريح في مهاجمة العدو ولم تكتف الجنود بهذه المسالمة والملاطفة لهم بل كررت طلبها من النصارى وهم داخل المدينة بجمع سلاحهم وارساله لها وكانت اهالي زحلة اكبر من ان يوخذوا بهذه الخديعة فسخروا بالطلب واحتقروا صغارة الطالب وكان من اسماعيل الاطرش انه وهو في طريقه الى زحلة مر بقرية كنياكر وقتل من عثر به من نصارى اقليم البلان الذين كانوا ملتجئين الى الشيخ من سكانها المسلمين وفي وصوله الى زحلة اجتمع بقايد الجنود بدعوة منه واطلعه على قدوم بطل لبنان يوسف بك كرم الاهدني برجاله الاقوياء لنجدة اخوانهم الزحلاويين وحرضه على الاسراع بالهجوم على المدينة قبل وصول الاهدني ورجال شمال لبنان البواسل واطلعه على ان الوالي بذل جهده بصده عن التقدم ولم يفلح

فاستصوب الاطرش راى القائد وهجم برجاله على المدينة وخرج حماة المحلة اصحاب النفوس الكبيرة الى ملاقاة حرابهم ورصاصهم وارجعوهم عنها مرارًا وطال القتال يومين في نهايتهما قفل الدروز راجعين الى الوراء واقلعوا عن زحلة مخذولين

الفصل التاسع والاربعون والماية
في قدوم يوسف بك كرم الى زحلة


يوسف بك كرم

ولما انتشرت اخبار الحوادث والمذابح وفتك الدروز بالنصارى على السواء ومساعدة الدولة لهم في المعمور وبلغت شمال لبنان نهض يوسف بك كرم الذي اسمه يغني عن بيان مقامه برجاله البواسل لنجدة اهالي الجنوب وفي طريقه مر بكسروان · وهو على مقربة من مار الياس شويا كانت الدروز قادمة الى ضرب بكفيا بقيادة الشيخ حسين تلحوق وعددهم خمسة عشر الف مقاتل · وعند ما علم الشيخ تلحوق بقدوم بطل لبنان ووجوده في تلك النواحي حول عزمه عن بكفيا فتركها وشانها كانه ادرك خطارة الموقف واكد ان وراء الاكمة رجالا كوامر ولكنه ارسل اعلم الوزير بعدوله عن مقاتلة المدفوع لقتالهم والاسباب التي دعته الى العدول · وعند ما اتصل الخبر بالوزير اسقط بيده وبالحال ارسل تهديدًا الى يوسف بك كرم اذا ظل في استطراده · وبالوقت ذاته اعلم قناصل الدول واوغر صدورهم عليه بقوله لهم انه يخشى ان يوسف بك كرم لا يعود يرى امامه

الدروز فقط بل يتحرش بالجنود الشاهانية فيوسع الخرق الذي هو ساع في رتقه وكيف انه باذل قصارى جهده في غل ايدي الدروز عن النصارى وعلى امل بنجاح مسعاه بالوقت العاجل

فانطلت الحيلة على عيون القناصل واخذوا كلامه حجة لا ترد وقر رأيهم على سؤال كرم بك العدول عن متابعة سيره الى زحلة فكتبوا له رسالة بذلك وطلبوا منه الرجوع الى بلاده وانهُ اذا تردد عن اجابة طلبهم يلاقي منهم مقاومة ليس من الدولة والدروز فقط بل من دولهم

ولدى تلقي كرم هذه الاوامر ادرك ما دبره له الوزير وكيف انه بسعايته حمل القناصل الى الاعتقاد بصحة دعواه فاسف لحدوث هذا التلاعب وانطلائها على عقول من كان يقدرهم اكبر من ان تقوى عليهم برقشة الوزير. فكتب على الاثر رسالة وارسلها الى بيروت عرض بها للقناصل افكاره وما يعلمه من فساد نوايا خورشد باشا واستشهد بحوادث دير القمر وحاصبيا وراشيا وبرهن لهم ان الوزير يترقب الفرص ويحث الدروز على الفتك بالنصارى عموماً وباهالي زحلة خصوصاً وارسل الى الوزير خورشد باشا رسالة هذا نصها . « اني مطلع ايها الوزير على سهرك على راحة الرعية الامر الذي لا ينكره عليك احد وكيف ينكر لك الفضل ومذابح دير القمر وغيرها من البلدان بعد ان جردت اهاليها اخواني النصارى من سلاحهم وزربتهم وساقتهم جنودك الى الذبح الا تعلم ايها الوزير اني عالم بصدق خدماتك النبيلة هذه ؟

« الا تذكر رسالتك السابقة الي التي بها تتهددني وتطلب مني العهدة ان لا اقوم الى نجدة اهالي الجنوب ولو قامت الاحوال وما اكتفيت بذلك كله بل سولت لك نفسك الشريفة والنفس امارة بالسوء واوغرت عليَّ صدور مسلمي عكا وطرابلس والضنية وحمص وحرضتهم على العبث بناحية الشمال التي افتخر برجالها لتقيم امامي عثرة وتشغلني عن مناصرة الجنوب ورد السوء عن اهاليه الاماجد

« واعلم ان الرجال الذين ردوا غارات اولئك القوم وبددوا جموعهم المجتمعة لم يزالوا احياء وهم معي الان فبهمتهم القعساء وعلو نفوسهم الشماء اقتحم صفوف الرجال ولو كانت بعدد الرمال واقتلع اركان المدافع ولو كانت باعز مكان يقدر ان يتصوره الانسان نعم ان لا رابطة سياسية تعلقني بالجنوب ولكن رابطة الوطن والمذهب وحب الفضيلة وقطع الفساد كل هذه الروابط وواحدة منها تفوق الاولى تدفعني الى تضحية نفسي ونفوس

رجالي الاعزاء في الذود عن اهالي الجنوب فتدبّر وكن حكيماً »

وبعد ان ارسل الرسالتين رجع بافكاره الى رسالة القناصل له فراى انه واقع بين شرين وكلاهما ذوخطارة ان رفض اوامر القناصل يحقدون عليه وان عمل بموجبها يوخزه ضميره على تقاعده عن مساعدة اخوانه وقر رأيه على الطف الشرين واخف الويلين فانتخب من رجاله مائة وخمسين مقاتلاً وارسلهم الى زحلة بقيادة الامير داود مراد وانهى اليهم ان يطلعوه على ماجريات الاحوال وان راوا تفاقم الازمة واقتراب الخطر على الاهالي يقوموا بهم الى بعلبك ومضوا

ولقيت هذه الفرقة الصغيرة كل حفاوة وترحاب من اهالي المدينة واطلعوهم على الاسباب التي منعت بطلهم من الوصول اليهم وكيف ان الوزير خدع القناصل باقواله المارقة وتغلب على دعم كلامه ببراهين قاطعة

وآخر الكلام اشاروا عليهم بالقيام الى بعلبك وهجر المدينة

فقر رأي الجمهور عندئذ على العمل باشارة البك وبدأوا بالتأهب والاستعداد

وبعد ايام سيروا النساء والاطفال مع حامية الى بلاد بعلبك وبقي الجانب الاكبر منهم بالمدينة ينتظرون ما ياتي به الغد

الفصل الخمسون والمائة

في مقاصد خورشد باشا

وصل الى الوزير كتاب يوسف كرم فوقع عليه كالصاعقة على ما فيه من الخشونة والحماسة وخاف على نفسه من اطلاع كرم على دسيسته الى القناصل وان ما دبره للزحليين من الاحن يذهب ضياعاً اذا لم يسرع في طلق اخرسهم بحجبته وقام لساعته واجتمع بالقناصل واعترض على كلام كرم بك اعتراضاً شديداً مفحماً وكرر وعوده الاولى لهم بالمحافظة على راحة الرعية بالسواء وكان كتاب كرم وصل الى القناصل فوقعوا بحيرة بين الاثنين هل يصدقون كلام الوزير و يعملون به ام بكلام يوسف بك كرم وكان المواجهة الشخصية اثرت بهم اكثر من الكتابة فركنوا الى مواعيد الوزير وكتبوا الى كرم ثانية ما كتبوه اولاً وقالوا له ان علمت بهجوم الدروز على زحلة فلك عندئذ ان تقدم الى نجدة الاهالي

وفي رجوع خورشيد باشا الى مركزه ارسل الى الدروز اعلمهم بعزم كرم وما يبغيه من المساعدة والذود عن النصارى وحثهم على الهجوم وضرب المدينة ثانيــة بالقريب العاجل قبل ان يتأكد القناصل فساد العمل ثم كتب الى قائد الجنود ان يساعد الدروز ويمدهم بالرجال والذخيرة ويبطش بكرم ورجاله ان تقدموا الى احباط مسعاهم وبلغ الدروز انه لم يبق لهم من الفرصة لضرب زحلة سوى يوم فان ابطأوا الى اكثر تدهمهم قوة الشمال المشهورة

الفصل الحادي والخمسون والمائة

في نكبة زحلة

وصل لكرم بك جواب القناصل وفي الوقت ذاته وصل للدروز ولقائد الجنود كتاب الوزير واجتمعوا وقر رأيهم على اعمال الخديعة

وفي ثاني الايام ارسل الدروز فرقة منهم الى اسفل زحلة لقتالها فهددهم الزحليون واحسنوا الدفاع وارسلوا فرقة ثانية من الجانب الآخر ونشروا بينها اعلام وبيارق شمال لبنان وغير ذلك من الرموز فانخدع بهم اهالي المدينة وظنوهم رجال يوسف بك كرم قادمين لنجدتهم فخرجوا لملاقاتهم بالعراضات كما هي العادة وعند ما اقتربوا منهم على مرمى الرصاص شعروا بالخديعة وانجلت لهم الدسيسة حيث اطلق عليهم الدروز رصاصهم وفتكوا بمعظمهم . ولما كانت بنادقهم خالية من الرصاص رجعوا مدحورين الى المدينة وتبعهم الدروز على الاثر ودخلوا وراءهم وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً فتأكد للاهالي صدق نبوة كرم بك وقرروا ان يتركوا المدينة ويقوموا مع رجال الشمال الى بعلبك لئلا يصيبهم ما اصاب اهالي دير القمر وراشيا وهكذا فعلوا

وعند اخلائهم المدينة دخل الدروز والجنود العثمانية واعملوا سيوفهم بمن وجدوه من المتخلفين ونهبوا ما عثروا عليه وارتكبوا المنكر واحدثوا النار في معظم بيوتها وبعــد ان نجز الدروز مهمتهم برحوا المدينة واخلفوا بها العساكر التركية ترتكب الفحشاء وتهتك حرمة العذارى وهجموا على دير الراهبات الذي لم يدنُ منه الدروز واغتصبوا الراهبات ونهبوا ما عثروا عليه من المتاع فيه وفي بقية الكنايس وقاموا بما امرهم به الوزير احسن قيام

وقد بلغ الخبر مسامع يوسف بك كرم في منتصف الليل فنهض للحال برجاله واسرع في المسير ولم يصل اليها الا صباحاً بعد ان لعبت بها ايدي الدروز وتمتعت بحصناتها وحوش الجند الشرهة وفي وصوله رجعت تلك النفوس الدنيئة الي معاقلها وتظاهرت بتخفيف المصاب عن الاهالي غيران هذه المظاهرات لم تنطل علي رجال الشمال وبطلها المغوار فتحمسوا مما شاهدوه واخبروه وعولوا على البطش بالقايد وعساكره ولولم يردهم بطلهم وقداعتادوا طاعته لما ابقوا منهم مخبرًا

فقام الجنود عن المدينة كانهم راوا حراجة مركزهم وتحولت رجال يوسف بك الى اعانة الاهالي ووردت الاعلام من قناصل الدول الى يوسف بك كرم على تعقب الدروز واظهروا اسفهم لعدم اتخاذهم كلامه ثقة والدروز كانوا تفرقوا بعد انجاز مهمتهم شذر مذر وبايعاز من الوزير لاذوا بالسكينة بعد ان قتلوا ونهبوا كل ما وقعت يدهم عليه

وحادثة زحلة كانت اخر الحوادث اللبنانية وتعد طفيفة بالنسبة لحادثة دير القمر وحاصبيا حيث رفض اهلها دخول الجنود الى المدينة وابوا ان يسلموا سلاحهم ولم يقتل منهم فوق المائة

وهكذا كانت نكبات لبنان عن يد دولتهم الفخيمة التي ارادت ان تميت منهم عزة النفس والاقدام المشهورين بهما ورات اخضاعهم واذلالهم واضعافهم عن مقاومة رجالها الذين كانت ترسلهم لابتزاز مالهم وكانه ساءها ما شاهدته بهم من عزة النفس وحب المدافعة عن حقوقهم فعزمت على قرضهم ولم يكن التركي رحوماً فيشفق ولاشهماً فيرد المعروف بمثله

الفصل الثاني والخمسون والمائة

في مخابرة القناصل دولها

وفي انقضاء نكبة زحلة ايقن القناصل بفساد مقاصد الوزير واكدوا ان له يدًا بحوادث لبنان كلها وانجلت لهم عهوده الباطلة فارسلوا تقارير لدولهم شرحوا فيه حوادث الجبل حادثة حادثة واسبابها ومن هو العامل على اثارتها وطلبوا منها الاسراع واعمال التدابير في حفظ حياة من بقي من النصارى في سوريا واطلعوا دولهم على ماقررته الدولة العثمانية سرًّا وهي لم تزل ساعية الى انجازه وقرارها قرض النصارى عموماً من سوريا ولبنان

لترفع عنها ثقالة مطالبتكم بهم وكيف كانت جنودها تعضد الدروز بكل فرصة سنحت لهم وطلبوا منها التشديد على الدولة وارغامها على ما قررته

وعند ما وصلت تقارير القناصل الى مراكزهم وعلمت الدول مقاصد الاتراك وعمالهم الفظيع طلبوا بلهجة واحدة من الدولة التركية التوقيع على المعاهدة لحماية النصارى واحق هذه الدول في الطلب دولة فرنسا واجتماع الدول على المطالبة بذات الحق لا يراد به الا التهويل ولما كانت الدولة مفطورة على المماطلة رجعت تماطل الدول كعادتها وخافت ان يجبروها على التوقيع قبل ان ينفذ سهمها في قلوب علة هذه المطالبة فارسلت الى مأموريها عموما والى احمد باشا والي الشام خصوصاً وطلبت منهم ان لا يتركوا واسطة الا و يطرقونها لقرض النصارى من بين بقية رعاياها لان وجودهم يقتضي مراقبة الدول على اعمالها الجزئية والكلية وذلك مما يحط بعظمتها و يحول دون استطراد حكمها على رجالها المسلمين

الفصل الثالث والخمسون والمائة

في التدابير التي اتخذها احمد باشا لمذبحة الشام

قيل ان مذبحة الشام لاعلاقة لها بحوادث لبنان ولا تعزى لها الاسباب التي عزيت لتلك وان من اسبابها الاولية عبث النصارى بالشريعة التي احدثتها الدولة على اثر حرب القريم مكرهة من دولة الروس على وضعها ومفاد الشريعة مساواة الرعايا بالحقوق المدنية واعفاء النصارى من الخدمة العسكرية وهذه الشريعة على ما فيها من الغبن بحقوق المسلمين كانت الباعث على انتشار الضغائن والاحقاد لما فيها من المبايزة وكانت الدولة تتقاضى النصراني بدلاً عن الخدمة العسكرية خمسين ليرة ومن المسلم مائة فهذا التمييز المحسوس حمل النصارى الى المظاهرة ونفخ صدورهم تعنتا وزاد عقولهم تصلبا وصاروا يتباهون به وظنوا انهم قبضوا على مفاتيح السماء وكان يكفي للمسلمين التعصب الديني والعداء المذهبي لاغارة احقادهم على النصارى فجاءت هذه الشريعة ضغثًا على ابالة

وقيل : ان الدولة رغبت في وضع هذه الشريعة التي يقال عنها المساواة وهي ليست على شيء منه لتثير خواطر شعبها على النصارى وتجعل لهم سبيلاً لبغضهم ومقتهم ولو كان النصارى وقتئذ على شيء من الحكمة لرفضوا اعفاءهم من الخدمة العسكرية التي جردتهم

من الوطنية وابكمت لسانهم عن المطالبة بحقوق جنسيتهم واعدادهم من الدخلاء تلك هفوة كبيرة واكبر منها اتخاذهم شريعة المساواة غير ماخذها فتجازفوا بها جزافاً وعبثوا بحقوقها المقدسة وضلوا عن الهداية وتناسوا ماضي ايامهم وكيف كانوا يسامون ويعاملون من الرعايا المسلمين انواع العذاب واشده من الحطة كاحط واحقر معاملة نالها الرقيق بايام رقه وعبوديته

وكان مسلمو دمشق عموماً وسوريا خصوصاً على الاطلاق لا ترى بهم اهليةً للحرية وكانوا يسفهون على الدولة التركية عملها الذي قامت به مضطرة عقب حرب القريم كما كان يسفه سكان جنوب اميركا دولتهم على تحريرها العبيد الارقاء ببلادهم

وكثر تذمر المسلمين من الدولة مع التقريع فاجابتهم انها لم تفعل ذلك الا مضطرة وبلغ من حقد المتعصبين انهم تآمروا وألفوا الجمعيات السرية يطلبون بها خلع الدولة التركية وابدالها بدولة تعيد مجد الاسلام والاسترقاق للمسيحيين وبلغ الاتراك امرهم فاوغروا صدورهم على النصارى ليلهوهم عنهم ويتخلصوا من شرهم والله اعلم . . ولما وصلت تعليمات الدولة للوغد احمد باشا انتبه الى طريقة افراج الدولة من هذه المعضلة وكانه لحظ ان الافكار تهيأت وعلى استعداد لبث شكواها الى السيف

فاستحضر وجوه النصارى وطلب منهم دفع ثمن بدل الخدمة العسكرية عن عموم اخوانهم وهددهم بالسجن اذا لم يسرعوا بتحضير طلبه ولما لم يكن لهم مقدرة على مجاوبته كما يريد اعتذروا له وعند ذلك امر بسجنهم الى ان يتعهدوا له بدفع كل ما يطلب للحكومة من نصارى المدينة

وكان يلقي القبض على كل من علم بمقدرته فامتلأت السجون وتعطلت الاشغال وعلا صراخ العيال من الجوع والفاقة واصبحوا بحالة يرثى لها فذهبوا الى بطريرك الروم الارثوذكس ليستغيثوا به ولسوء الحظ كان غبطته متغيباً عن الكرسي ولم يكن في البطركخانة غير نائبه المطران يوسف اسقف . ولما راى حضرته قدوم الجمهور اليه على تلك الحالة داخله الرعب نظراً لجهله عوائد البلاد ولغتها وللحال كتب للوالي وعرض له ان النصارى تجمهروا كعصاة وارادوا الايقاع به

وقصده بذلك ان يبرهن للوالي عن حالتهم وفقرهم وعدم مقدرتهم حتى على تحصيل معاشهم فكيف دفع مطاليب الدولة منهم . وغاب عنه ان الحكومة تتشاءم من كلمة عصاة وتبني عليها القصور العالية لاسيما اذا عنت النصارى وان لها وقعاً سيئاً باذهان

مسلمي المدينة الذين كانوا منتظرين سنوح الفرصة للايقاع بالنصارى لانهم كانوا ينظرون اليهم نظر الحاسد المنتقم المتعصب خصوصا بعد ما بدا من النصارى على اثر شريعة المساواة المباهاة وعدم الاكتراث بمن حواليهم فشق على المسلمين ان يروا رفيقهم بالامس اصبح يقاسمهم الحقوق والنفوذ بعد ان كان بقبضة يدهم يتصرفون بماله وراحته و يتحرشون بعرضه متى وكيف شاءوا حتى انهم كانوا يطلقون عليه احقر الاسماء التى تدور بمخيلتهم ويجلون مجالسهم عن ذكره حتى بقلب مركز الحكومة فضلاً عن الشوارع والازقة فجاءت كتابة المطران يوسف الى الوالي عن ثورة النصارى سلاحاً ماضياً بيده على الفتك بهم فاثار الخواطر ونفخ بصدور رعاع المسلمين روح الفساد فاماط عنها الضغائن الكامنة ولم يشاء ردع النصارى رأساً فاناط بتاديبهم رعاع المسلمين الذين كانت الحكومة تخشي بطشهم ولا تتجاسر على مطالبتهم بدفع الضرائب وكانت الدولة غير راضية منهم لفتكهم ببعض وزرائها وامتناعهم عن اجابة مطاليبها ورغبة احمد باشا باثارتهم على النصارى كي يتخلص منهم او من بعضهم فيقل عددهم وتضعف شوكتهم ويصبح اخضاعهم لاوامر الحكومة مكفولاً فيرد عن دولته الخطر الذي كان يتهددها به مسلمو الشام الذين جاهروا بخلع دولة الاتراك عنهم وراسلوا دولة مصر لتاتي لنجدتهم ولم يفلحوا

الفصل الرابع الخمسون والمائة

في بوادر ثورة الشام

ومما زاد الطين بلة هو ما كان ياتيه احمد باشا من الاعمال والاستعدادات وذلك انه :

امر بنصب المدافع على ابواب الجامع الاموي واعلن ان غرضه من ذلك الاحتراس من غدر النصارى بمن يكون داخله في اوقات الصلاة وغايته ليزيد المسلمين حقداً وكرهاً للنصاري ويزيح الرماد عن النيران الكامنة بصدورهم . وهل يعقل ان المسلمين الذين هم اصحاب الحكومة ولهم ولاء الجنود ومعداتهم الحربية من مدافع وقلاع وذخيرة ويبلغون نحو ثلاثين الف مقاتل بالمدينة ومائة الف بجوارها يخشون بطش وغدر بضعة آلاف رجل كثرهم لايعرفون نقل السلاح ولا يصلحون للقتال ومعظمهم لايقدم على ذبح ديك او حمامة فيحملهما الى الجزار هرباً من الوقوع تحت جرم القتل فهل يصدق

العاقل ادعاء احمد باشا بان حياة مائة وثلاثين الف بخطر من ثلاثة آلاف مسيحي تسعون بالمائة منهم لا يوجد عندهم قطعة سلاح تصلح للدفاع وان وجد عند بعضهم لا يحسنون المدافعة ولا المقاتلة

. . . .

فاحمد باشا كان يفعل ذلك كله ليثير احقاد المسلمين على النصارى وخصوصاً الرعاع منهم وهذه المظاهرات لم تجعل تأثيرًا على عقول الخاصة ولا انطلت عليهم انما كان تأثيرها في اشده على عقول العامة فتمسكوا بها واستعدوا للفتك بالنصارى عند اول اشارة تصدر من الوالي الحكيم

وبينما كان النصارى بالحصار منهمكين باشغالهم ومنفردين لاعمالهم في جوار المدينة ثار عليهم الدروز والمسلمين معاً وسدوا عليهم الطرقات فوقع عليهم الخوف وتولاهم الرعب وكثير منهم جاء من امكنة بعيدة فتعذر عليهم الرجوع الى محلاتهم فاضطروا للبقاء تحت الخطر المحدق بهم ونصارى المدينة لو تمكنوا من الخروج وترك المدينة لما ترددوا لحظة انما آثروا البقاء على القيام لعلمهم ان على الطرقات يلاقون حتفهم مع ان بقاءهم لم يكن اخف خطرًا على حياتهم

الفصل الخامس والخمسون والمائة

في احتفال الحكومة لنكبة زحلة

رابع تموز سنة ١٨٦٠

ولما بلغت الحال هذه الدرجة من التفاقم والحراجة اجتمع قناصل الدول بدمشق واعترضوا على الوالي لعدم اكتراثه لما يجري امامه وعلى مسامعه من الحركة والقلاقل واضطروه لتلافي الخرق الذي احدثه قبل اتساعه فيجلب امورًا وخيمة العاقبة

فماطلهم بالجواب ولم يحتفل بكلامهم وعند ما رأوا منه ذلك طلبوا مقابلته ولم يسمح الا لواحد منهم ينوب عنهم فارسلوا بورغا كي نائب قنصل دولة اليونان فقابله وعرض له ما ترتايه بقية القناصل من وجوب تسكين الخواطر وايجاد الامنية وهدده بالمسئولية ومطالبة الدول منه ما يقع على النصارى من الضرر . ورجع عنه بالخيبة والقنوط . وفي هذه الاثناء ورد خبر نكبة زحلة وتغلب الدروز مع معاضدة الجنود على

فتحها ونهبها وكان لوصول الخبر وقع حسن في دوائر الحكومة و بقية المسلمين فامر احمد باشا باقامة الافراح وتنوير الشوارع احتفالاً بفتوح زحلة كأن الدولة استولت على عاصمة القياصرة او قلعة سباستبول او جبل طارق او غيرها من الممالك والقلاع الحصينة في العالم

الا ان محمود افندي حمزة استاء من هـذه المظاهرة واقامة الزينة والاحتفال وامر باطفاء الانوار التي كانت بالقرب من منزله • اما النصاري فلم يعد عندهم ريب بحلول مصابهم وقرب اجلهم عن يد الحكومة • وانقطعت آمالهم بها وتكاثرت النصارى عدداً عن ذي قبل لصعوبة الخروج من المدينة ومن جوارها فاضطر عـدد عظيم من الفقراء الى المجيء اليها ليحصل على سد رمقهم او لتقديم اعناقهم للقطع والحصد وقائل يقول انهم جاؤوا لفقد الامنية في النواحي التي كانوا يقطنونها فقدموا الى الشام ليستجيروا من الرمضاء

وكان النصارى يأتونها من راشيا وحاصبيا و بقية القرى المجاورة لها وكثر حشدهم وضاقت المدينة على رحبها بهم • ولما لم يكن محلات كافية يأوون اليها اضطر اكثرهم مع عيالهم واطفالهم ان يتوسدوا الثرى في الشوارع و باحات الكنائس وجعلوا الارض فراشهم والسماء غطاءهم

و بالرغم عن الفاقة التي بها نصاري المدينة كانوا يشفقون على اخوانهم ويمدونهم بكل مافي وسعهم

وقد خصصوا لهم فرناً من افران المدينة ليقدم لهم ما يخبزه من العجين لسد جوعهم

واضرب المتوظفون بدوائر الحكومة من النصاري عن عملهم خوفاً على حياتهم وتفاقم الخطب وقرب يوم العصب ٠٠٠ ووقفت حركة الاعمال حتى في دواوين الحكومة حيث اكثر الكتبة منهم • والقـلاقل تزداد يوماً فيوماً وقدوم الدروز الى المدينة على تكاثر من يوم الى آخر

كل ذلك واحمد باشا لائذ الى السكون لا يحرك صامتاً ولا يسكت صائحاً وقد تقرر من سكونه وسروره عند ما بلغه نكبة زحله انهُ العامل القوي في حـدوث الاضطراب والتشويش وكثيرًا ما كان يقول اللهم اهلك الكافرين بالكافرين مفدياً خورشد باشا والي صيدا النذل

الفصل السادس والخمسون والمائة

في مأثرة الامير عبد القادر الجزائري

قنط النصاري من النجاة من مخالب الحكومة وشراسة الاتراك وحقد المسلمين وقساوة الدروز وابتلوا بالفاقة فقنطوا من الحياة جوعاً وتعددت عليهم المصائب وكثر ارتباكهم ولكن قدر لهم ان يكون بين المسلمين شهم يرق لحالهم ويرثي لمصابهم . وهذا الشهم الذى نعنيه هو الامير عبد القادر الجزايري الذي طبق ذكره الخافقين وعم فضله وكرمه نصارى الشام على السواء . وكان لا يترك فرصة تفوته من الدفاع عنهم واجتمع بالوالي مرات وباعيان المدينة ووجوه قراها وحضهم على السكينة والاخلاد الى السلام والاقلاع عن الثورة وترك النصارى وشأنهم وقد بين لهم وخامة العواقب التي تسقط على رؤوسهم اذا عملوا على الفتك بهم وكيف تخرج البلاد من ايديهم واظهر لهم عدم جواز قتل المسيحيين شرعاً وديناً وافرغ قصارى جهده في ارجاعهم الى الهدي والصواب ولم يتركهم حتي استوثق منهم بالوعود باجابة طلبه وفي السابع والثامن من تموز سنة ١٨٦٠ راقت الاحوال ورجع شيء من الطمأنينة الى قلوب النصارى . واصدرت الحكومة امرًا للكتاب بالعودة الى اشغالهم وتهللت وجوه النصاري وتفاءلوا من هذه الهدنة خيرًا وخرج اصحاب الاعمال الى اشغالهم وعادت الحركة التجارية والصناعية الى سابق عهدها

الفصل السابع والخمسون والمائة

في مذبحة تاسع تموز سنة ١٨٦٠

خرجت اصحاب الاشغال الى العمل وافكارهم هادئة نوعاً غير عالمين ما تولده الايام من الاحن والكوارث . وامر الحاكم احمد باشا في عصارى النهار باخراج بعض الرعاع المسجونين من المسلمين بقصد تطوافهم بالشوارع وهم مكبلون بالقيود ارهاباً للثوار من المسلمين والدروز معاً . هذا ما اشاعهُ به انما غرضه من تجول المحابيس على تلك الصورة ليس الارهاب كما كان يوهم البعض بل ليحرك عواطف المسلمين ويجعل لهم سبيلاً الى الفتك والتحرش بالنصارى لان عمله كان قد نضج

وفي وصول المحابيس الى باب البريد هجم بضعة من المسلمين على الخفر و بطشوا به وخلصوا رفاقهم من القيود ونادوا بالجهاد لقتل الكفار وكان ذلك النهار بدء المذبحة العظمى والمصيبة الكبرى والنكبة التي ليس فوقها نكبة عمت نصارى المدينة وكادت تكون القاضية عليهم

وكان النصارى متفرقين بالمدينة ذلك مما زاد ضعفهم فهجم اوباش المسلمين عليهم في بيوتهم ومحلاتهم واين ما عثروا عليهم اعملوا بهم السيف

وقد اخترقوا حرمة العرض فدخلوا البيوت وقتلوا الرجال وسبوا العيال ونهبوا وارتكبوا المنكر ولم يتركوا امرًا قبيحًا الا وفعلوه ومحرمًا الا واستحلوه حتى انهم نهبوا الكنايس وقتلوا الرهبان في مخادعهم والحقوا اضرارهم بالمرسلين اصحاب الرسالة من الانكليز وسواهم ولم يبقوا ولم يذروا فقتلوا القوي والضعيف الصغير والشيخ الكبير المريض بفراشه والكسيح في ساحته والضرير على عكازه ورجال الدين وهم سجود او نيام . وكان فتكهم بالنصارى الذين جاؤا المدينة ملتجئين الى حكومتها ذريعًا فقتلوا منهم عددًا كبيرًا واستباحوا المحرمات وقصدوا مستشفى البرص والجذام وفتكوا بالمرضى ونهبوا ما وجدوه من المال واحرقوا مكانهم ثم قصدوا دير الرهبان الاسباني وقتلوا ثمانية من رهبانه ونهبوا ما عثروا عليه من المتاع واطلقوا النار في المحل وقصدوا دير العازرية الفرنساوي وصدهم حاميته القوية عن الدخول اليه بضع ساعات حتى قدم لنجدتهم الامير عبد القادر الجزائري برجاله وافرج عن الرهبان وحفظ حياتهم انما لم يقو على حفظ الدير من النار والمال الموجود به من السلب فنهبوه واحرقوه ولم يكن هم الامير الا المدافعة عن الحياة

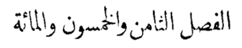
وارسل احمد باشا قوة عسكرية الى حي النصارى بقيادة صالح زكي بك ليوهم الشعب اخلاصه لهم وفي وصول هذه الفرقة وقائدها الشجاع افرج عن النصارى و بدد جموع المسلمين عنهم ولم يكن ماذونًا برماية الثوار محلا قاتلاً فكان يطلق عليهم طائشًا ومع ذلك لكونه تغلب على طردهم من حي النصارى نال غضب احمد باشا وكدره فاستقدمه وحاكمه وارسله الى الاستانة تحت جرم الخيانة ولم تكن جريمته سوى انه غل ايدي الثوار عن النصارى كانه كان جاهلاً مقاصد الدولة واحمد باشا الوغد بهم

وفي مساء ذلك النهار اجتمع الامير عبد القادر الجزائري باحمد باشا واعضاء مجلس الشورى وسالهم مساعدتهم على اطفاء شرارة الثوار و بين لهم براهين ادعمها بايات الشرع تقضي على الحاكم بمقاتلة الثوار ولو كانوا من اهل الشريعة وساعده على



الامير عبد القادر الجزايري

تثبيت دعواه مفتي الولاية طاهر افندي فقر رايهم على معاقبة الثائرين ومقاتلتهم اذا ثابروا على ملاحقة الثورة والفتك بالنصارى . وقفل راجعاً الى بيته يعدُّ رجاله الى الغد ولم يمض على رجوعه عن احمد باشا بضع دقايق حتى الحقه برسول وعرض له عدوله عن ضرب الثائرين وارجاعهم للطاعة . عند ذلك حول اهتمامه لتخليص من يقدر على خلاصه من العيال والرجال بيض الله وجهه



الفصل الثامن والخمسون والمائة

في مدافعة الجزائري عن النصارى

ولما قنط الامير عبد القادر من مساعدة احمد باشا بالمدافعة عن النصارى امر رجاله بالذهاب الى حيهم وعزم ان يضحيهم في الذود عن عيالهم واطفالهم ما استطاع لذلك سبيلاً واوصى رجاله ان يحضروا اليه من النصارى رجالا ونساء واطفالا وكل من يقدرون على الوصول الى تخليصه من مخالب الثائرين

واقتدى به اسعد افندي حمزه وطاف برجاله شوارع المدينة واغاث الملهوف واحضرهُ الى بيته

وعلى هذا النحو جرى الشيخ سليم العطار وصالح اغاشور بجي وسعيد اغا النوري وعمر اغا العابد جاؤا الى حي الميدان ودافعوا عن سكانه دفاعاً مشكوراً مع ان رعاع المسلمين كثروا في ذلك الحي وزاد بطشهم

وكان هؤلاء الابطال يتباهون بكثرة ما تحضره رجالهم من النصارى وقد اجتمع عند صالح اغا بضع مئات وكان يقدم لهم كسوة وطعاماً . وكان الحشد في بيت الجزائري عظيماً وفي ثاني الايام لم يحدث في المدينة غير استحضار ما بقي من النصارى الى بيوت اولئك الابطال المار ذكرهم الذين ثابروا على تخفيف الكروب واطفاء شرارة الثورة جهدهم وقد نجحوا في ذلك النهار وفازوا بتسكين الخواطر وقمع العصاة نوعاً انما أتى نهار الاربعاء وهو النهار الثالث من حدوث المذبحة بجيشه وجنده وهدم مابنوه بالامس وذلك انه خرج جمهور من رعاع المسلمين في ذلك الصباح ونشروا اوامرهم في انحاء المدينة على كل مسلم اغاث النصارى في بيته ولم يزل مستحفظاً عليهم ان يسلمهم ليفتكوا بهم وان خالف واصر على رفض طلبهم يهجمون على بيته و يبطشون به و بعياله ومن كان داخل بيته و بعدان يجهزوا على الارواح وينهبوا موجودات البيت يحرقونه

فخارت قوى بعضهم وخافوا على حياتهم من بطش الرعاع بهم ولم يروا بدًّا من تسليم النصارى الذين اغاثوهم للثوار بعد ان تكبدوا المشاق لتحضيرهم فادخلوا العصاة عليهم وهناك علا صراخ الاطفال وعويل النساء وانين الرجال وكانوا ياخذون الاحداث والرضع عن صدور امهاتهم و يذيقونهم حتفهم على مرأى منهن بلا رحمة ولا حنان

وقدم بعض الثوار الى الصالحية واطلقوا الصوت على سكانها من المسلمين وحمسوهم على نجدة العالم الشيخ عبدالله الحلبي وطرد النصارى الذين هجموا على بيته يريدون الايقاع به و بكل من وجدوه في البيت فهبَّ مسلمو الصالحية وهجموا على المدينة وقصدوا بيت الامير عبد القادر الجزائري حيث بلغهم انه محتفظ على عدد كبير من الكفرة فتجمهروا حول منزله وراموا الفتك به اذا ابى ان يسلمهم النصارى الموجودين عنده ولم يكن الجزايري ممن يهولهم التهديد والوعيد فخرج اليهم برجاله الامناء وتهددهم بصرامة العقاب ان تحرشوا بحرمته واظهر لهم انه مستعد تمام الاستعداد لمقابلتهم بالقوة و يمطر عليهم ناراً تبيدهم على الاطلاق ولما شاهد العصاة انه على اهبة ان يكيل لهم الكيل وازود تركوه خوفاً من سطوته وشدة باسه

الا ان الاكراد ونصراءهم قد أتوا اعمالاً بربرية في ذلك اليوم تخلد لهم

الذكر في تاريخ المجازر التي عجز عن مجاراتهم بهـا الامم الهمجية فقتلوا المئات من النصارى ونكلوا بالآخرين ممن وقع بايديهم • وكان قواد الجند من الاتراك والاكراد مثل اسمعيل اغا شمدين وفرحات اغا وسواهم من المتحمسين يحرضون الجنود على التوغل بالفتك وكانوا يمرون احياناً أمام السراي ليشاهدهم احمد باشا ويثني على بسالتهم وصدق اخلاصهم له كل ذلك واحمد باشا قد طاب له السكوت ولذّه استبسال رجاله وقساوة المسلمين والدروز فلم يبد حراكاً كأنه سكر بخمرة الانتصار

ولا نضن عليه بذكر مأثرة وهي محافظته على الكتّاب الذين سألهم الرجوع الى اشغالهم فعند ماشبت نار الثورة بالمدينة ابقاهم داخل السراي ليستفيد منهم وبذلك ابقى لهم حياتهم وقد يكون الذي حمله الى ذلك حاجته لهم • اما النصارى سكان شرقي المدينة مع مطران السريان الكاثوليك فتركوا المحلة قبل وصول الثوار اليهم وذهبوا الى قرية صيدنايا وتحصنوا بديرها المنيع وكان بالقرية عدد كبير من النصارى وكلهم يشهد لهم بالقوة والبأس

فوجه احمـد باشا لقتالهم دعاس اغا الجيروري بفرقة من الجنـد بمن التف حولهم من المسلمين • وعند وصوله الى الدير خرج لقتاله ورده اهل الحمية واحسنوا لمدافعة ولم يتمكن دعاس اغا من الحاق اذيته بالمحاصرين الذين كانوا يخرجون اليـه ويبطشون برجاله ويعودون الى رفاقهم سالمين وظل الحال بينهم الى ان ارغموا دعاس ورجاله على العودة فرجع مخذولا

ومثل هذه التعديات من عسكر الدولة ورجالها الامناء كانت تتوالى على النصارى من يوم الى آخر وقد دلت دلالة واضحة على ان للدولة اصبعاً بها •وأكبر برهان على صحة هذا الزعم تقاعد الوالي عن قمع العصاة واخضاعهم للشريعة ولو انه طاف بشوارع المدينة أو ابدى اقل اهتمام بتسكين خواطر الشعب الهائج كما تقتضي وظيفته لامكنه مع مالديه من القوة أن يمنع حدوث ماحدث •• او لو انه عهد لصالح زكي او سواه من اهل الاستقامة في اخماد الثورة لكان انقذ الوفاً من النصارى من تجرع كاس الحمام على تلك الصور الفظيعة

ومما يثبت اشتراك احمد باشا بالحادثة اخلافه مع الامير عبد القـادر كما مر بنا وكيف انه تعهد له بضرب العصاة وصادق المجلس على قوله ووعده ولما خرج الامير من حضرته ليعد رجاله لمعاضدة الجنود عاد فانهى له عدم مقدرته على اخضاع الثائرين

وفضلاً عن ذلك انه لم يرسل فرقة الى حي النصارى للمدافعة عنهم والانكى انه بعد ان فتك المسلمون بالارواح واستولوا على المال والمتاع امر باطلاق قنبلة على احد البيوت فالتهب وامتد اللهيب ببقية بيوت النصارى في ذلك الحي والجنود تراقب انتقال النار من بيت الى آخر ولم تبد حراكاً مع انه اتفق ليهودي انه تقدم الى احمد باشا وطلب منه رجالاً لاطفاء النار من بيته وللحال اجاب طلبه وارسل معه رجالا ولدى وصولهم شاهدوا اللهيب في غير بيته فرجعوا على اعقابهم بدون ان يمدوا يداً لذلك البيت فقد وصل تعصبهم حتى الى الجماد فما هو ذنب البيوت والاملاك هل هي تعقل فارادوا تأديبها

وقد اظهرت الحكومة في اثناء الحادثة ولاءً وثقة بالشعب الاسرائيلي اكثر من ذي قبل وبالرغم عن العداء الكامن بين الشعبين كنت تشاهد مسلوبات النصاري في بيوت اليهود وكنت ترى الاسرائيلي يحتفل بقدوم المسلمين والجنود بها ويقدم لهم ماء قراحاً اخلاصاً وتودداً ولو كان المسلمون والجنود التركية غايتهم النهب فقط لرأوا مغنماً وافراً عند اليهود اضعاف ماحصلوا عليه من النصارى بالالاف من المرات

الفصل التاسع والخمسون والمائة

في مأثرة صالح اغا

غصت دار الامير الجزائري بالنصارى وكان عددهم يتضاعف وعلى ازدياد من وقت الى آخر وفي النهار الرابع من المذبحة والخامس كان الوفود عظيماً ومع ذلك لم تفتر همة رجال الامير عن التفتيش بالآبار والكهوف عن التائهين واحضارهم الى منزله ولكن لما راى ان عددهم يتزايد ورأى منزله اصبح ضيقاً على رحبه بهم قدم الى احمد باشا وسأله ان يسمح له بالقلعة ليجعلها مأوى لهم وهكذا كان كلما وصلت اليه شرذمة ارسلها الى القلعة يخفرها برجاله ولا نعلم كيف استسلم لوعود الباشا بعد ان اختبره وقبل منه ان يقيم الجنود على باب القلعة ولكن اذا جهلنا السبب فما علينا ان نكذب الواقع

في النهار الخامس اصدرت الحكومة امراً بفصل الرجال عن النساء والاطفال وكان

وقوع الخبر على النصارى عموماً عظيماً لانهم قدروا نصابهم من هذا الانفصال بما اختبروه من حوادث دير القمر وراشيا وحاصبيا وباتوا بحذر وخوف على حياتهم من غدر الحكومة بهم كما غدرت بغيرهم · وكان حذرهم بمحله لان احمد باشا ارسل فاستقدم دروز حوران للفتك بهم وهم داخل القلعة وبالذين في حماية صالح اغا في محلة الميدان

ولولا استقامة صالح اغا لنفذ بهم المقدور ونالهم من الدروز ما اصاب اخوانهم سابقاً لكن وجود صالح اغا وشهامته القعساء دفع عنهم الضرر ورد جماهير الدروز بالخيبة بعد جدال وعراك دام ثلاثة ايام

الفصل الستون والمائة

في تعيين معمر باشا بدلا من احمد باشا

وصل الى الشام في صباح الثامن عشر من شهر تموز اي بعد ان مر على الحادثة ثمانية ايام معمر باشا والياً على ولاية الشام وفي وصوله انزل احمد باشا عن كرسي الولاية ونشر اعلام السلام في المدينة وبالحال اعاد الامنية ورفع التعدي واسكن القلاقل وربما يسأل القارىء كيف تأتى لمعمر باشا ارجاع الامنية واخماد الثورة في حال وصوله ولِمَ تعذر ذلك على احمد باشا · والجواب يحضر نفسه ويحكم على ان الدولة لها ضلع في حوادث لبنان وسوريا على السواء وانى للدروز او الاسلام الاقدام على ملاحقة تمدياتهم وبطشهم بالنصارى من مكان الى اخر بدون ان يحسبوا للحكومة حساباً اذا لم يكونوا على ثقة من رضاها عليهم وارتياحها الى اعمالهم وفي اخلادهم الى السكينة والطاعة حالما اشعرتهم بالكف عن سوابق اعمالهم عن يد معمر باشا برهان على عدم اقتدارهم على مقاومتها كما كانت تدعي وفي عدم معاقبة الدولة لهم بما اتوه من المنكر والفظائع والعيث براحة رعاياها شاهد لا يدحض على مشاركتها لهم بكل ما جرى اولا ولاحقاً

الفصل الحادي والستون والمائة

في الاضرار التى لحقت عائلة مشاقه

رابنا من الواجب ان نضم هذا الفصل الى حوادث الكتاب لما فيه من الحقائق الراهنة التي دونها الدكتور مشاقه على اثر حدوثها له والتي نسال القاري ان يتخذها قياساً محسوساً على ما اصاب بقية العائلات من المشاق والاخطار ونحن نتوخى ان نبقي نفس كاتبها بها على غاية ما يخولنا المقام قال :

«لما كنت متخذاً قيلولة ظهر نهار الاثنين الواقع في تاسع تموز من سنة ١٨٦٠ استيقظت مذعورا على الصياح واثر قرعة قوية على باب الدار فسالت من هو الطارق وسبب الصياح فقيل لي ان الاسلام نهضوا لذبح النصارى و بداوا بذلك فخرجت خارج البيت الى باب الدار لا تحقق الامر بنفسي فنظرت القوم تترا كض من كل حدب فتا كد عندي حقيقة الخبر وقفلت راجعاً الى البيت انتظر قدوم قواص القنصل الانكليزي المستر برانت الذي كان ولدي ناصيف موظفا عنده · وفيما انا على ذلك دخل علي رجلان من اتباع محافظ الحي وصحبتهما رجل مسيحي كان التجأ الى بيت المحافظ فارسله الي و بعد قليل حضر القواص المسلم وعند حضوره ارسلته الى الامير عبد القادر الجزائري وطلبت منه رجالا ليوصلوني اليه · فما لبث ان رجع وقال : ان الامير كان غائباً عن البيت وحضر في ساعة وصولي ودفع الي ستة من رجاله انما لم يمكنهم الوصول مع لانهم اعزال والطرقات مزدحمة بالثائرين فلا يقدرون على المحافظة عليك بدون سلاح

«فلبثت انتظر قدومهم بعد ان يتسلحون وفيما كنت منتظرا هجم علي شرذمة من العصاة وقصدوا الايقاع بي ولما لم يقدروا على اغتصاب الباب جعلوا يضربونه بالبلطات والفؤوس حتى كسروه ودخلوا الدار وتقدموا الى البيت وصاروا يطلقون على النوافذ الرصاص وعالجوا الباب ليخلعوه

«وعند ما أدركت الخطر ولم يحضر لنجدتي أحد خرجت من الباب الخلفي بعد أن أخذت معي مبلغاً من المال ولم استصوب نقل السلاح لئلا يزيد هياج الثوار علي · ·
وتبعني القواص و ولدي ابراهيم وابنتي واتخذت وجهتي دار الامير وبينما انا اعدو بمن معي قابلني جمهور من الثوار وهجموا علي مشهرين السلاح فرشقتهم بقبضة من المال فرجعوا

لجمها وابتعدوا عني فنجوت منهم و واصلت سيري وقبل ان ابلغ المحل المقصود اعترضني جمهور آخر ففعلت معهم كما فعلت بالاولين واشغلتهم بالتقاط المال الذي رميتهم به وتراجعوا عني قليلاً واصبح الموت وراي وامامي فدخلت في زقاق ضيق يمكن الوصول منه الى دار الامير ورجوت عدم وجود احد على الطريق ظاناً ان اهل جواره ذهبوا للجهاد الى حي النصارى وخاب فالي حيث رجال الزقاق كانت قد عادت من اشغالها لاخذ سلاح من بيوتها وتذهب لذبح الكافرين

« فالتقيت بهم ولم يعد لي منهم منج فحاطوني من كل الجوانب وتقدموا الي يبغون سلبي اولاً وقتلي ثانياً وكانت ابنتي تصرخ اقتلوني قبل والدي وابقوا عليه او اقتلونا قبل ان توقعوا به شرًّا فتقدم احدهم الى ابنتي وانتهرها بالسكوت ولما لم تفعل ضربها فشجَّ رأسها واسال دمها ثم اطلقوا عليَّ النار واخطاوني مع ان المسافة بيني و بينهم ستة اقدام فقط

« ثم هجموا على بالبلطات والنبابيت فجرحت بجبهتي وتهشم جانبي الايمن ووجهي وذراعي من ضرب نبابيتهم وكثرة ازدحام اقدامهم حولي ولم يعودوا قادرين على اطلاق الرصاص لخوفهم من اصابة احد منهم

« فخدعتهم بقولي اني كنت ذاهبًا الى البك محافظ المحلة لشغل له انما اجتماع القوم وحشد الجماهير اوقفني عن اتمام مهمتي فخذوني اليه وصدف ان جماعة منهم من اخصاء البك المذكور فقالوا نحن ناخذك اليه

«فساقوني اليه عقب ان سلبوا مني ما تبقى معي من المال حتى لم يتركوا على راسي طربوشي واخذوا ساعتي وتبعني جمهور كبير وفيما نحن سائرون بالطريق لحقنا درويش التعصب يزيد بتعصبه على كل افراد الجمهور وكان متعمماً بعمامة خضراء وشعوره مدلاة مكحل عيونه و بيده عصا طويلة وضع على راسها منجلاً

« وكان يمد عصاه من فوق روس الرجال المحدقة بي ليقطع راسي بمنجله فما توفق للعمل ونجوت منه ومن معي ووصلت الى دار المحافظة بمصلبة باب توما فلاقاني الحافظ المذكور وفرق عني الجموع واعتذر الى اسفاً على ما لحق بي من الاهانة ثم وضعني في بيت احد اتباعه ولا يوجد به سوى امرأة عجوز وهي صاحبة البيت واطلعني مع القواص الى قصر يطل على الطريق وكان باقي من النهار ثلاث ساعات ولما خلوت بنفسي ضربت فكاري لعائلتي وما ترى كان امرها مع المتعصبين وماذا جرى لكل فرد منها وما اذ

كانوا بجوع ام عري وفيما اذا احرق الثوار داري ام ابقوها ثم اذا كانوا احياء فعلى اي فراش ينامون وباي غطاء يتغطون .. لانني ابقيت الثوار يعالجون الباب وانهم سوف لا يبقوا عليه ولا يذروا ثم لاعلم لي بما وقع لهم افرادا واجمالا وخصوصا ابنتي التي ضربها ذلك الوغد بالبلطة وشج راسها وفيما هل وجد بين اولئك الطغاة من بقلبه حنان كاف ليضمد لها جرحها ثم اطلقت تصوراتي نحو زوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها وخالتها اللواتي فارقتهن بالبيت عند خروجي منه فماذا حل بهم ياترى

« ثم افتكرت باولادي الكبار وماذا حل بهم وهكذا كانت تنازعني الافكار والهواجس وانستني المي واوجاعي

« ثم سمعت صوت دوي البنادق والنار ببيوت النصارى التي كانت تقصف كالرعد وكثرة وفود الدروز واسلام القرى المجاورة للمدينة واشتركوا بالجريمة والمذبحة كل ذلك كان من البواعث التي انستني الامي ... فطليت من احدى نوافذ المقصورة فنظرت المحافظ اتياً لبيته بجملة عيال ورجال ففكرت كيف انه لم ياخذني الى بيته اذا كان يقصد الذب عني وترجح عندي انه يضمر لي الشر ولولا ذلك لما اتى بي الى هذا المكان المجهول فهو ينتظر سدول الظلام ليرسل من يقوم بقتلي لانه لا يتجرأ عليه جهارًا

« ففكرت بعرض افكاري هذه على القواص لئلا يصيبه شرًا بسببي لانهم قد يقتلونه معي لاخفاء الجريمة فقلت له ما انا مفكر به ورجوته ان يخبي نفسه لانني عازم على النجاة بالهرب بعد سدول الظلام لبيت المحافظ الذي لا يبعد اكثر من ثلثمائة خطوة

« ولا يلزم لي اكثر من دقيقتين فاوصل اليه وهناك عنده ما ينيف عن ثلثماية من المتجئين وهناك اطلب رجالاً من الامير الجزائري فيرسلهم الى نصرتي

« فاستوصب القواص افكاري ورأيي وقال لي اذا كان المحافظ يريد بك شرًا فسوف ينتظر الظلام ليرسل من يفتك بك والا فلا . اما انا فلا اريد ان افارقك البتة بل اريد أوصلك لبيت المحافظ ثم اذهب بخبرك للامير واذا خرجت الآن وتركتك اخشى من ان يعاقبوني على الفرار وتركك لوحدك فلا افعل وانا كذلك منتظر سدول الظلام ليقضي ربك امراً كان مفعولاً

« وبت منتظراً الظلام وأنا على مثل الجمر والطريق مزدحم بالمارة بتواردهم من القرى رغبة في القتل والسلب وعند سدول الظلام نظرت سبعة رجال شاكين السلاح

جاءوا وطرقوا باب الدار ففتحت لهم العجوز فسألوها ابن هو ميخائيل مشاقة فدلتهم على المقصورة التي تضمني داخل جدرانها حينئذٍ قنطت من الحياة ولبثت منتظراً تسليم الروح فاشرت على القواص بتسايق الجدران والذهاب بخبري لئلا اذهب ضياعاً وفيما انا على ذلك سمعت صوتاً ندهني ياميخائيل مشاقه انزل لعندي انا صديقك السيد محمود السوطري جئت برجال الامير عبد القادر لكي تكون عندي أمناً فلا تخاف فما عليك من بأس

« فنزلت اليهم فالبسوني هدوم المغاربة ومشوا جماعة خلفي وامامي ومعهم ابن شقيق الحافظ وكنا ندوس فوق جثث القتلى بالازقة حتى وصلنا لدار الامير فوجدناها مزدحمة وقد ضاقت رحبها بالعالم الملتجئين اليها ممن دفع عنهم الامير الاذى واغاثهم وكان هذا الشهم الباسل متقلداً سلاحه ومعه رجاله البواسل ودام على هذا المنوال ثمانية ايام وثماني ليالي لم ينزع سلاحه ولا حذاه ومثله رجاله وان اعياه النعاس كان ينام قليلاً على حصير بباب داره

« فالتمس السيد محمد السوطري من الامير اخذي الى بيته لشدة الازدحام عنده ولكوني مثخناً بالجراح فيلزمني الراحة فاجاب الامير ملتمسه' وذهبت مع هذا الشهم لبيته وبعد ان استقر بنا القـدم سالني عن عائلتي وما جرى عليها واين هي ليستحضرها لعندي فاجبته بما جرى واني لا اعلم من امرها شيئاً سوى ان ولدي كان معي وابنتي وعندما ضربوني وضربوا الابنة فرقوني عنهما ولا ادري كيف ال امرهما وزوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها وخالتها تركتهم بالبيت عندما هاجمه المتعصبوا وابنائي الكبار احدهم بقنصلية الانكليز و الآخر بمدرسة بطريركية الروم الارثوذكس ولا ادري ما اتصلت اليه حالهم . فقال لي: ان قنصلية الانكليز دون باقي القنصليات لم ينتهك حرمتها الثائرون فكن مطمئن على ولدك بها . اما باقي العائلة فسوف امضي للبحث عنها في هذه الساعة واحضرها اليك انما اخشى من انهم لا يعرفوني لعدم سابق معرفتي فيهم فاطلب اليك ارسال القواص معي ليطمنهم عنك ويخبرهم باني لا اريد بهم شراً

فاجبت فليكن ما تريد ايها الشهم الهمام واصحبت معه' القواص فذهبا سوية وفتشا عن العائلة وبعد قليلاً رجعا بها اليّ الا ولدي سليماً فذهب للتفتيش عنه' فعاد ولم يقف له على خبر فظننا انه' بين المقتولين ثم سألت سوطري اغا عن كيفية معرفته بمحل اقامتي اجاب اننا عند بدء المذبحة كنا ظننا ان المسالة جزئية وان الوالي لا يدع

الحرف يتسع لهذا الحد

« وعند ما خبرنا ما جرى بباب البريد وددنا منع اولاد النصارى من الاشتراك مع الثائرين فقلعنا باباً من القصب ووضعناه في الزقاق الموصل لحي المسيحيين فجاء جمهور من اكراد الصالحية وكسروا الباب وتقدموا الى جهة الحي حينئذٍ ترجح لدينا حصول الاذى عليك وعلى بيتك

« فحضرت وفحصت عنك فعلمت ما توقع لك فذهبت لحافظ المحلة وطلبتك منه فانكر وجودك اولاً فذهبت واطلعت الامير على حقيقة الامر فارسل معي رجاله للافراج عنك بالقوة وجئنا للحافظ وارغمناه على الاقرار بمكانك فارسل ولد شقيقه معنا ليدلنا على مكانك وكان ما علمت

«وفي ليلة اول المذبحة حضر القنصل الانكليزي ليفتقدني فطمني عن ولدي ناصيف فبقي ولدي سليم لم اقف على خبره مدة ثلاثة ايام المذبحة الاولية ولم يعثر عليه بين القتلى التي ملأت الشوارع والازقة والابار والخرايب وبعد وقوع التنبيه والتهديد من المتعصبين على المسلمين الذين اغاثوا مسيحياً عندهم حضر مسلم تركي الى قنصل الانكليز واخبره بانهُ متزوج بابنة علي اغا خزينة كاتبي في بيتها الذي يسكن به ضمن الدار الخارجية المستر رابصون المرسل الانكليزي وكان عندها سليم مشافه مختبئاً وتخشى عليهم من فتك الرعاع

« فارسل ولدي ناصيف فطمني عن شقيقهِ سليم وان جندياً من المغاربة ذهب ليحضره الى مركز القنصل فتطمنت قليلاً الا انني بت اوجس خيفة على دار الامير عبد القادر من سطو رعاع الاسلام عليها لان اوباش هذه الطبقة كانت حانقة على الامير لانقاذ النصارى من مخالبهم

« فارسلت ابراهيم الى عند اخوته لدار القنصلية المزدحم بها المسيحيون من وطنيين واجانب الذين عندما نظروا احترامها هرعوا للاحتماء بها اما القنصل فلم يهمل امر صيانة داره من الاوباش المتحمسين بل احضر جنداً من رجال الامير الجزايري للذب ونفراً من طرف الوالي

« اما انا فبت ببيت سوطري اغا منشغلاً بتضميد جروحي ومداواة رضوضي التي احدثها ضرب النبوت وزاد على مصابي هذا املاقي لانه لم يبق لي ما اشتري بهِ لوازم الحياة والطرقات مسدودة ولا وصول لي الى ما يلزمني فاحد العلماء المشهورين افتقدني

بثوب من ملابسه لان ثوبي كان مخضباً بالدم مع بعض ريالات ظننتها مزدوجة لشدة حاجتي اليها

« فاشتريت بها ما كان لازماً لي وهكذا ولدي ناصيف ارسل لي ما كان معه من الدراهم وبعد حضور معمر باشا ومناداته بالامان سلكت الطرقات وحضر لي دراهم من الخارج اشتريت بها الكسوة التي تلزم لي واعيالي

«وبقيت شهراً بدار سوطري اغا الى ان شفيت من جروحي اما بيتي فلم يحرقه الثوار لقربه من بيوت المسلمين انما اخذوا اخشابه وبلاطه وقطعوا اشجاره وخربوا منه ما امكنهم تخريبه ولما لم يعد يصلح للسكنى فحضرة الشريف محمود افندي حمزة الذي هو مفتي الشام في تلك الايام اخلى داره الخارجية ودعاني للسكنى عنده فقبلت شاكراً وانتقلت لداره فاقمت بها الى ان قدم فواد باشا لدمشق فعينوا لي بيتاً للسكنى بينما يفرغون من تعمير ما تهدم من بيتي ومما تعزيت به على مصيبتي هو اني لما كنت مقيماً بدار محمود حمزة حضر لعيادتي السيد محمد امين مفتي بلاد بشارة فقال لي يا صديقي ماذا جرى لكم . اجبته ما تراه فقال : ان دماءكم سفكت ونساوكم سبيت وبيوتكم هدمت بيد بعض اسلام دمشق فهل جرى عليكم غير ذلك . اجبته افلا يكفي ما حل بنا من النكبات وما دهمنا من الكروب قال : يجب على العاقل ان يتناسى في مصيبة غيره الا طالعت تواريخ الاسلام اليس الذين قتلوا حفداء النبي وسبوا حريمه وهدموا الكعبة المشرفة كانوا من اسلام دمشق ؟ قلت بلى قال : اذاً تأسوا بما اصاب المسلمين منهم قبلكم

« وكان الاسلام يخيرون النصارى اما بالاسلام واما بقتلهم وقد اقدموا على العجائب » انتهى

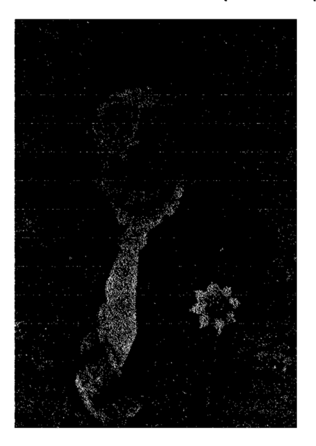
هذا الذي لحق الدكتور مشاقة مع الوسائط التي له وغيره محروم منها فقس على ما قصه لنا بما لحق بقية النصارى بذات النكبة التي ما بعدها نكبة وبلغ عدد قتلى دمشق اكثر من ستة آلاف نفس

الفصل الثاني والستون والمائة

في قدوم الحملة الفرنساوية

ورغماً عن حالة لبنان وما جرى به من التعدي على النصارى كسلب اموالهم ومتاعهم وحرق بيوتهم وذبح من وقع بايدي رجالها والدروز منهم كل ذلك والدولة لم تحرك

ساكناً لقمع الثوار وارغام العصاة على الاخلاد الى السكينة بل كان وزراؤها ومأموروها كصيادي الارنب يبطشون بفريستهم وكانوا يرون تمزيق جوانب الرعية واضعافها وهم صامتون ودامت الحال اكثر من ثلاثة اشهر حتى عم اخبار الحوادث في تلك الربوع الخافقين حتى ان رجال الاستانة لم يكترثوا بما كان يجري من الويلات والهوائل وعند ما نظرت الدول تقاعد الدولة عن حماية النصارى قررت ارسال مراكب حربية لمياه سوريا مع حملة من الجنود الافرنسية لاخماد الثورة الاهلية الموجهة لقطع النصارى ولا ذنب لهم سوى دينهم



فؤاد باشا

وعندما رأت الدولة الخطر يقترب منها بسرعة خافت من الدول ان تستولي على بلادها فارسلت للافاة هذا الخطر اعقل وادهي رجالها وهو فواد باشا وزير الخارجية ولكنها تباطأت في ارساله ورجعت لسياستها الاولى من المماطلة ظنا منها ان الدول لن تتفق على ارسال حملة لما بينهن من التحاسد والضغينة ولم تحرك ساكناً حتى وصلت مراكب دولة فرنسا الى قبرص وحينئذٍ تحقق لها اتفاق الدول على اخضاع العصاة وشن الغارة عليها

فاسرعت بارسال فؤاد باشالسوريا و بوصوله الى بيروب وصلت حملة كبيرة من الجنود الافرنسية وفي وصول هؤلاء الجنود اخلد الثوار الى السكينة وهدأت الاحوال في سوريا

وحضر فؤاد باشا الى دمشق وامر بجمع المسلوبات من سكان دمشق والقرى المجاورة لها وكانت تسلم للمأمورين اقامهم فؤاد باشا لذلك الغرض وكان المأمور لا يعطي وصولاً بما استلمه ولا اشعاراً بما وصل ليده فزادت اطماعه وغرته كثرة ما يرد اليه من المسلوب

وكان من فؤاد باشا انه القى القبض على المشتبه بهم ومن كان له ضلع بالثورة وشدد عليهم بتحضير المسلوب ذلك ما احجم كثيرين عن تقديم ما كان عندهم

وعقب صدور الامر بتفتيش بيوت المسلمين وان كل من وجد عنده من متاع النصارى يكون عقابه صارماً وقع الرعب في قلوب معظمهم وصاروا يطرحون ما عندهم على الطرقات والشوارع وكان اليهود يلتقطون و يشترون اشياء ثمينة باسعار تافهة ولم تتجاسر النصارى على الخروج الى الشوارع ليلتقطوا مثلهم مع انهم احق من اليهود بها لذلك كانت الخسارة فادحة عليهم و بالعكس على اليهود

وليس كل ذلك كان من فؤاد باشا فانه كان يقتل و ينفي و يغرم كل زعيم من المسلمين وكانت الغرامة جسيمة وفادحة اجابة للدول فاضطر المسلمون الى استقراض المال من اليهود بربا فاحش بين ٣٠ و ٣٥ في المئة ذلك ما ضاعف ارباح هذه الفئة وزاد ثروتها عما كانت عليه وصح قول القائل مصائب قوم عند قوم فوائد

الفصل الثالث والستون والمائة

في قدوم فؤاد باشا الى القلعة

ثم حضر فؤاد باشا الى قلعة المدينة وشاهد الاحوال ورأى الرجال والنساء والاطفال حفايا عراة الاجسام يئنون جوعاً و يتوسدون الغبراء وعقب مشاهدته هذا المنظر المحزن اذرف الدموع

وامر بترميم منازل النصارى في المدينة وخيرهم بالذهاب الى بيروت على نفقة

الحكومة فهاجر من شاء المهاجرة والذي فضل البقاء اخلى لهم من مساكن المسلمين وامر ان تعطى لهم معابدهم ليقوموا بفروض دينهم اذا رغبوا فرفض النصارى بالشكر هذا الكرم لعلمهم ان في ذلك يكدرون المسلمين عليهم و يولد بهم حب الانتقام في مستقبل الايام

وعند رفضهم سؤاله عين لهم بعض البيوت لذلك الغرض ثم رتب لهم قوتاً كان يأتيهم يومياً بحسب افرادهم ثم دفع لهم الاقمشة وما يحتاجون اليه من الكسوة

الفصل الرابع والستون والمائة

في نفي بعض المسلمين

و بعد ان ازال فؤاد باشا عن المنكوبين بعض الضنك حول عنايته الى اعيان المدينة من المسلمين الذين نفخوا ببوق التعصب كما امرتهم الدولة وحرضتهم على ذبح اخوانهم بالوطنية وقد فعلوا واتهمه بعضهم انهُ رام ان ينفيهم عن المدينة ليطمس علي هذه الحقائق الراهنة

فنفى طاهر افندي مفتي الاحناف وعمر افندي مفتي الشافعية واحمد افندي عجلاني نقيب الاشراف والشيخ عبد الله الحلبي شيخ العلماء واحمد افندي الحلبي وعبد الله بك العظم وولده علي بك الذي منحته الدوله رتبة باشا وعبد الله بك سبط ناصيف باشا وفردوس بك ومحمد بك العظمة ومحمد سعيد بك شمدين الكردي

وارسل بعضهم الى جزيرة قبرص والبعض الآخر الى جزيرة رودس والى بلاد الارنؤوط وحدد لهم مدة بقائهم في تلك الاماكن خمس سنين

وتوفي بعضهم وهم بمنفاهم و بعضهم رجع الى الشام وعينت الدولة راتباً للشيخ عبد الله الحلبي ثمانية عشر الف غرش سنوياً جزاء لصدعه لاوامرها . وعينت طاهر افندي قاضياً على حماة براتب جسيم وانعمت على محمد سعيد بك وعلي بك العظم بلقب باشا مجازاة لهم على اعمالهم البربرية

الفصل الخامس والستون والمائة

في ارسال احمد باشا الى الاستانة

وارسل فؤاد باشا احمد باشا الى الاستانة يسلم اوراقه الخصوصية الى مراكزها خوفاً من ان تقع بيد الدول وفي وصوله قدمها محفوفة بالتجلة والاكرام وأعادته الدولة على الاثر الى الشام لتصير محاكمته فيها وحكم عليه المجلس العسكري بالاعدام وصار اعدامه رمياً بالرصاص فنال جزاء ما دبره على قتل الابرياء

وحكم المجلس باعدام اميرالاي الجنود الذي كان حاضراً مذبحة حاصبيا والبكباشي الذي شاهد مذبحة راشيا

بيد ان طاهر باشا الذي كان حاضراً وبامره صار ذبح اهالي الدير لم يحدث عليه مكروه بل ابقته الدولة بوظيفته

ثم تشكلت محكمة دولية لتحقيق المجرمين وسمي هذا المجلس مجلس فوق العادة وكان رئيسه محمد افندي رشدي الذي ارتقى بعدئذ الى الوزارة

وبعد هذا التشكيل طلب من النصارى ان يقدموا شكواهم على الذين سطوا عليهم

فكان من النصارى انهم لاذوا الى السكوت ولم يقدموا شكوى على احد وكان جوابهم انهم لا يعرفون غير الذين احسنوا اليهم

وكلامهم الواقع لان الذي يعرف اصحاب الجرائم قضي عليه وقدموا لائحة لفؤاد باشا اجابة لطلبه بالذي كان له ضلع بالثورة وشرع على موجب الاسماء المدونة باللوائح المتقدمة له صار يحضر اصحابها وكان من المقبوض عليهم البك محافظ محلة النصارى واولاد اخته واما ولده الوغد ففرَّ من وجه العدالة

وجرت التحقيقات فكان عدد المجرمين من الدرجة الاولى اربعة وخمسين رجلاً منهم محافظ المحلة واولاد اخته والذين هجموا على الدكتور مشاقة وشجوا رأس ابنته وذلك المتعصب الذي اركز على عصاته منجلاً ورام قطع عنق مشاقة به صار اعدامهم شنقاً وفرَّ واحد منهم من ايدي رجال التنفيذ ولما قبضت عليه الحكومة ثانية عفت عنهُ

ومائة واحد عشر رجلاً من الدرجة الثانية صار اعدامهم بالرصاص

ومن الدرجة الثالثة عدد كبير كان جزاء اغلبهم الخدمة العسكرية

واما الدروز ومسلمو القرى من الذين قتلوا ونهبوا واستباحوا المحرمات واستحيوا النساء لم يعاقبوا وظلوا يعيثون في البلاد فساداً

الفصل السادس والستون والمائة

في قدوم نواب الدول الى دمشق

وبعد ايام قلائل حضر نواب الدول الى الشام وشاهدوا ما حل بالنصارى من النكبات ففرضوا على الدولة دفع غرامة جسيمة وترميم بيوت المنكوبين وتعويض ما فقد لهم من المتاع وادى هذا الحكم الى تشكيل مجلس كومبارس يرأسه محمد افندي رشدي واعضاه من جميع الطوائف وبعض من مأموري الحكومة . وصار التحقيق عن خسائر النصارى وتعهدت الدولة بدفعها ما عدا المسلوب من المال وقد دفعت لهم سندات عليها وكان المحتاجون يبيعونها الى اليهود بالخصم عشرين بالمائة واكثر وعلى سائر الوجوه كانت خسارتهم عظيمة لانهم كانوا يقبضون الليرة العثمانية على سعر مائة وسبعة وعشرين غرشاً حال كون سعرها مائة واحد عشر .. والحاكم قبل بهذا السعر لانه كان يدفعها للمنكوبين به ولكن عند ما كان يحصل الخراج منهم كان يحاسبهم على الليرة مائة غرش فقط وهذه المعاملة جعلت النصارى لا يصيبهم من التعويضات التي حكم المجلس بها غير شطرها وبعد حضور قبولي باشا كان يأخذ سندات الدولة بنصف القيمة تماماً

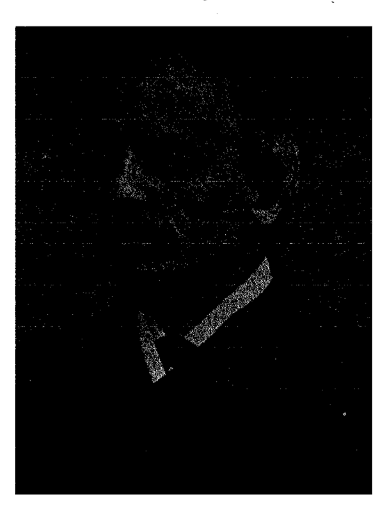
اما نصارى قرايا الشام فلم يعوض عليهم ما يساوي جزءاً مما فقد لهم بالثورة بل تعين لهم مبلغ اقتسموه بينهم بحسب مفقوداتهم

حاسبتهم الدولة بخراج الاراضي عن سنة النكبة ثم مال الجزية وخراج قديم والفردية عن الاموات والهاربين وارسلت اليهم جباة لتحصيلها منهم وامرتهم بالقيام عندهم وارغامهم على تقديم عليق الخيل حتى يدفعوا المطلوب منهم وهو ما يعبرون عنه بالحوالة

والذي كان يطلب منه بقدر ماله على الحكومة من مال التعويض رفعوا عنه الحوالة وسلموه الوصل والذي زادت اموال خراجه على ماله ضمن الحكومة كتبت عليه تعهد بدفع الباقي على تراخي الايام فرفض معظمهم هذه المعاملة واعترضوا عليها واتخذوا حجة لهم عدم تحصيل الدولة من الدروز

ولم تقبل الدولة منهم المماطلة بل ارغمتهم على المصادقة على الوصولات او دفع مطلوبها منهم وظلت تعاملهم هذه المعامله ثماني سنين بعد حدوث حادثة الستين ذلك ما حصل عليه نصارى القرى المجاورة لمدينة الشام من التعويض

ثم وضع فواد باشا ضريبة على ولاية الشام ماية وخمسين الف كيس ثمانية آلاف على دروز حوران وباقي الضريبة توزعت على البلدان



اللورد دوفرين

وقد عين مجلساً في بيروت للنظر بتعويض ما فقدهُ الاجانب ونال الدكتور مشاقة ثلاثة ارباع ما فقد له

وبالاجمال نالت الدولة شيئاً من غايتها ولم تخسر من خزينتها مالاً بل كانت الخسارة على الرعية مسلمين ونصارى على السواء

وربحت اذلال الشعب لها وخضوعه التام لكل ما تفرضه عليه من الضرائب حيث

اضعفت الحوادث عصبيته واسترسل الى الطاعة والسكون واماتت نفوذ روساء العشائر ونزعت منهم استقلالهم بحكومة بلادهم في الداخلية

الفصل السابع والستون والمائة

في ما آل اليه لبنان

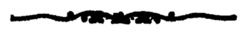
امر فؤاد باشا فالقي القبض على عدد كبير من دروز حاصبيا وراشيا وكاد يأمر باعدام خمسمائة من عددهم بدون محاكمة الا ان النصارى طلبوا منه محاكمتهم واعدام من توجب الشريعة قتله وهكذا صارت محاكمتهم وانجلت عن تبريرساحتهم لعدم وجود شهود تثبت عليهم الجريمة ولم تكن الحكومة تقبل شهادة المسيحي لانه خصمهم وكان من اصعب الامور على الدرزي ان يشهد على اخيه في مثل تلك الظروف

اما زعماؤهم من بكوات ومشايخ فارسلوا الى بيروت وحكم عليهم بالنفي مدة رجعوا في انقضائها الى بلادهم وعينت لهم الدولة راتباً

وتوفي منهم سعيد بك جنبلاط قبل ان يبرح بيروت وقيل انهُ مات مسموماً . وخطار بك العماد توفي على اثر رصاصة اصابت عنقه في حادثة جرت بينهُ و بين الجنود المقبلة الى حوران اما بشير بك نكد رجع من منفاه وكافأتهُ الحكومة بوظيفة

و بعد ذلك صرّح فؤاد باشا ان جنوب لبنان قد انتظمت اموره ولم يبق علينا غير اصلاح شماله وفي ذلك التصريح دلالة على ان الحوادث التي جرت في الجنوب كانت على رضى الدولة و بارادتها وعلى اثر وصول فرمان الوزارة لهُ ارسل فرقة الي شمال لبنان ليخضع بطلها و يذل رجاله ولم يفلح لان الجنود كانت اقصر من ان تداني رجال الشمال بالقتال والقوة فرجعت بالخيبة

وكانت نهاية القتال تسليم يوسف بك كرم على يد قنصل دولة فرنسا ونفيه الى باريس كما جاء بتاريخه



الفصل الثامن والستون والمائة

في استقلال لبنان

وانهى المؤتمر الدولي في بيروت قراره على منح لبنان استقلاله الذي يرتع به الآن وان تنصب عليه الدولة وزيرًا مسيحيًّا من خارج سوريا بموافقة الدول عليه وعينت مدة حكمه خمس سنوات تقبل التجديد ان ظهر منهُ الكفاءة وفرضوا على الجبل سبعة الآف كيس الى الدولة تقدم سنويًّا وان الجند اللازم لحفظ راحة اهاليه يكون من ابنائه وفرضت على الدولة دفع رواتب المأمورين ولو زاد راتبهم عن المفروض عليه وصار تقسيم الجبل الى قائمقاميات ومديريات وغير ذلك مما هو معروف عند الجميع ولا حاجة الى تدوينه

وعينت الدولة داود باشا متصرفًا عليه وهو اول حاكم جاء لبنان وحكمه عقب الثورة وعلى اثر الاستقلال وخلفه فرنقو باشا والد المتصرف الحالي

الفصل التاسع والستون والمائة

في ترجمة استقلال لبنان الحالي

لما كنا نعتقد ان هذا الكتاب كبير الاهمية وجدنا من الضروري تعليق نظام الجبل به لتتم الفائدة التي نرمي اليها

ولما كان عزمنا اعلام اللبنانيين معرفة قوانين حكومة جبلهم المحبوب ليكون لهم تمام المعرفة في قوانين وسنن الاحكام الاساسية التي قررتها الدول الاوربية المتحابة بمصادقة جلالة السلطان والتي اشتركت في مؤتمر بيروت ننقل ذلك عن كتاب (حسر اللثام عن نكبات الشام) وهاك ترجمة النظام المذكور :

ارادة سنية من جلالة السلطان

لما كان الاجل المضروب مدة ثلاث سنوات للنظام الذي وضع وللقرار الذي تقدم صدوره بخصوص ادارة الجبل تحصيلاً لاسباب رفاهه وأمن الرعايا التابعين لدولتي العلية القاطنين والمستوطنين جبل لبنان المذكور وكان من المقدر انهُ عند انقضاء المدة المعينة يعاد التذاكر في مقتضى الحال وقد انقضت الآن أُجري التعديل والتنقيح في

بعض المواد الواردة في لائحة هذا النظام وعند عرضها على جنـاب سلطنتي الاشرف والاستئذان فيها تعلق شرف صدور ارادتي السنية الشاهانية باجراء مقتضاها على هـذا الوجه و بموجبها لزم اعلان النظام المذكور على المنوال الآتي بيانه :

(المادة الاولى) يتولى ادارة الجبل اللبناني متصرف مسيحي تنصبه الدولة العلية ويكون مرجعه الباب العالي رأساً وهو محتمل العزل بمعنى انه لا يستمر في منصبه ما دام حيًّا و يكون على عهدته القيام بجميع خطط الادارة الاجرائيـة متوفرًا على حفظ الراحة والنظام في انحاء جبل لبنان كلها وان يحصل منها التكاليف · وبحسب الرخصة التي من لدن الحضرة الشاهانية ينصب تحت عهدته مأموري الادارة المحلية و يتلو احكام القضاء و يعقد المجلس الكبير و يتولى رئاسته و ينفذ الاعلامات القانونية الصادرة من المحاكم الخارجة عن القيود التي ستذكر في المادة الثامنة

(المادة الثانية) ينبغي ان يكون للجبل كله مجلس ادارة كبير مؤلفاً من اثني عشر عضوًا اثنان مارونيان ينوبان عن قائمقامية كسروان وثلاثة عن قائمقامية جزين احدهم ماروني والثاني من الدروز والثالث مسلم · واربعة عن قائمقامية المتن الاول ماروني والثاني من الروم والثالث من الدروز والرابع من المتاولة وعضو واحد درزي ينوب عن قائمقامية الشوف وآخر عن قائمقامية الكورة من الروم وعضو آخر عن قائمقاميـة زحلة من الروم الكاثوليك · · · ومجلس الادارة هذا يكون مأمورًا بتوزيع التكاليف والبحث في ادارة واردات ومصاريف حكومة الجبل وبيان ارائه من وجه المشورة فيما يعرضه عليه المتصرف من المسائل

(المادة الثالثة) ينبغي ان ينقسم الجبل اللبناني الى سبعة اقضية الاول يشتمل على الكورة مع الجهة التحتية والاراضي المجاورة الآهلة باقوام على مذهب الروم الارثوذكس باستثناء قصبة القلمون الآهلة بالمسلمين وموقعها على ساحل البحر · والثاني يشتمل على شمالي لبنان ويضم جبة بشراي والزاوية و بلاد البترون · والثالث يشمل من الشمال المذكور بلاد جبيل وجبة المنيطرة والفتوح وكسروان الاصلي حتى نهر الكلب · والرابع يشمل زحلة ونواحيها · والخامس يضم المتن مع ساحل النصارى وارض القاطع وصليما والسادس يبتدئ من جنوبي طريق الشام حتى جزين · والسابع يضم جزين واقليم التفاح · وفي كل من هذه الاقضية السبعة المار ذكرها ينبغي للمتصرف ان ينصب مأمور ادارة منتخباً من ابناء المذهب الغالبين هناك عددًا في النفوس أو اهمية في الاملاك

والاراضي الجارية بتصرفهم

(المادة الرابعة) يجب ان تنقسم الاقضية الى نواح على نمط قريب الشكل من اقسام الاقضية فيلي كل ناحية مأمور ينصبه المتصرف بناء على انهاء القضاء وان يكون في كل قرية شيخ صلح ينصبه المتصرف بعد انتخاب اهلها له

(المادة الخامسة) قد تقرر امر المساواة بين الجميع في شمول احكام القانون ونسخ والغاء كل الامتيازات العائلية لاعيان لبنان خصوصاً اصحاب المقاطعات

(المادة السادسة) ينبغي ان يكون في جبل لبنان ثلاث محاكم ذات درجة اولى يقوم كلٌّ منها بحاكم ووكيل ينصبهما المتصرف ومعهما ستة وكلاء دعاوي رسميين تنتخبهم الطوائف . ويكون في مركز ادارة الحكومة مجلس محاكمة كبير يتألف من ستة حكام ينتخبهم المتصرف ويعينهم من الطوائف الست القاطنة الجبل وهي المسلمون السنيون والمتاولة والموارنة والدروز والروم والروم الكاثوليك ويلحق بذلك ستة من وكلاء الدعاوي الرسميين لكل طائفة وكيل معين .. واذا وقعت دعوى لاحد المتمذهبين بالمذاهب الاخرى كالبروتستانت واليهود فيضاف الى المجلس حاكم ووكيل دعاوي رسمي من اهل كلا المذهبين علاوةً على الاثنى عشر عضواً المار ذكرهم ... اما رئاسة هذه المحكمة فتناط بمأمور مخصوص ينصبه المتصرف . وان اقتضت حاجات البلاد زيادة فللمتصرفين ان يضاعفوا عدد المحاكم ذات الدرجة الاولى . واجراء للحكومة مجراها المتسق ينبغي لهم ان يعينوا منذ الآن الاماكن الصالحة بان تكون فيها هذه المحاكم

(المادة السابعة) ان لمشايخ القرى الذين يقومون بوظيفة حاكم الصلح ان يحكموا في الدعاوي التي لا يتجاوز قدرها مئتي غرش حكماً غير مستأنف . واما الدعاوي المتجاوز قدرها مائتي غرش فترى في مجالس المحاكم ذات الدرجة الاولى . على انه لو عرض امورٌ مختلطة كالدعاوي التي تقع بين اثنين مختلفي المذهب الديني وابى ايهما كان قضاء حاكم الصلح فيها لكونه على مذهب المدعى عليه فتحال وان قل قدرها الى محاكم الدرجة الاولى . ثم ان جميع الدعاوي ولو وجب فصلها بحسب ماهيتها بغالبية آراء الاعضاء الا ان للمدعي والمدعى عليه المختلفي المذهب ان يردوا الحاكم لاختلاف مذهبهم غير ان الحكام المردودين من هذا الوجه لا بد من حضورهم للمحاكمة

(المادة الثامنة) تقتضي المحاكمة في الدعاوي الجزائية ان تكون على ثلاثة وجوه

وهي ان يرى في دعوى القباحة شيوخ القرى المتقلدون خطة حاكم وان الجنحة والجرائم تنظر بها المحاكم ذات الدرجة الاولى . وان الجنايات تجري محاكمتها في مجلس المحاكمة الكبير واعلامات الحكم الواجب صدورها من هذا المجلس لا يمكن وضعها موضع التنفيذ مالم تكمل المعاملات والمراسم الجارية بها في سائر الممالك المحروسة الشاهانية

(المادة التاسعة) ينبغي ان يرى في مجلس تجارة بيروت كل الدعاوي العادية الواقعة بين واحد من ذوي التابعية الاجنبية او احد الداخلين في حماية دولة اجنبية وبين امرىء آخر من اهل الجبل ترى في المجلس المذكور . على ان المنازعات البادية بين اللبنانيين والاجانب متى تأتى فصلها بمعرفة محكمين عن تراض من المتنازعين فيجب والحالة هذه على مأموري لبنان المحليين وقناصل الدول المحابة الفخيمة ان ينفذوا اعلام المحكمين — وان تعذر تراضي الخصمين على التحكيم في الدعوى واحيلت الى محكمة بيروت فتجب تأدية المصاريف على الخاسر دعواه بحسب التعريفة التي وضعها متصرف جبل لبنان وقناصل الدول جملةً واتفاقاً وقد جرى عليها التصديق من جانب الباب العالي ... ومن المقرر انه يجب في الصك الحاوي تراضي المتنازعين على اتخاذ محكمين ان ينظاه ويمضياه وفقاً لاصوله وان يسجلاه في بيروت وفي مجلس المحاكمة الكبير بلبنان

(المادة العاشرة) للمتصرفين حق نصب الحكام الا اعضاء مجلس الادارة فهؤلاء ينتخبون بمعرفة مشايخ القرى كما انه يكون انتخاب المشايخ المذكورين بمعرفة سكان القرى . ثم ان اعضاء مجلس الادارة يجدد انتخاب ثلثهم كل سنتين ويجوز تكرير انتخاب من انقضت مدتهم

(المادة الحادية عشرة) يجب ان يكون الحكام باجمعهم موظفين وان اقدم احدهم على ارتكاب « الرشوة » او تبين بالتحقيق انه آتٍ مالا يليق بصفة مأموريته فهو مستحق للعزل بل مستوجب ايضاً للتأديب على قدر قباحته

(المادة الثانية عشرة) يجب في مجالس القضاء على الاطلاق ان تكون المدافعة علنية وان يعهد بضبط الدعوى الى كاتب مخصوص وما عدا ذلك فحيث ان هذا الكاتب يكون مأموراً باتخاذ سجل لقيود الصكوك المختصة بفراغ وانتقال « بيع » الاموال الثابتة « العقار » فلا تكون هذه الصكوك معمولاً بها مالم تقيد بحسب اصولها في السجل المذكور

(المادة الثالثة عشرة) ان المتهمين من اهل جبل لبنان بارتكاب الجرائم في غير الوية فمرجع الدعوى عليهم هو اللواء الواقع فيه الجرم . وكذا مرتكبو الجرم من اهالي سائر الالوية داخل حدود جبل لبنان . وبناء على ذلك فان المجرمين في جبل لبنان سواء كانوا من اهاليه الوطنيين او من نزلائه المعدودين من اهل ديار أخرى اذا فروا الى لواء آخر فكما ان على ضابطه ان يقبضهم بمقتضى الاعلام الوارد من قبل ادارة الجبل و يسلمهم الى حكومة لبنان كذلك يلزم ادارة الجبل ان تلقي القبض على الفارين اليه من المجرمين في احد الالوية لبنانيين كانو او غير لبنانيين وتدفعهم الى اللواء المذكور بموجب اشعار ضابطه . ومأمورو الادارة الذين يتسامحون في اجراء الاوامر الصادرة باسترجاع امثال هؤلاء المتهمين الى المحاكم المنوطة بها دعاويهم او الذين يجيزون تأخيرات لا يمكن اثبات بنائها على اسباب شرعية فتجري عليهم المجازاة بمقتضى قانون الجزاء كسائر الذين يوارون ويخفون امثال هؤلاء المتهمين عن الحكومة . والحاصل ان العلاقات اللازم اجراؤها بين حكومة لبنان وحكومة الالوية المجاورة كالمواصلات الجارية والمتخذة دستورًا للعمل بين باقي الايالات في ممالك الدولة العلية

(المادة الرابعة عشرة) ان سبيل المتصرف الى اقرار حفظ الراحة وانفاذ القوانين في الازمنة العادية انما يكون بمعرفة فرقة ضبطية مجموعة من الاهلين بحسبان سبعة انفار تقدر على كل الف من النفوس من سكانه ويجب نسخ الحوالية وفرض سككها وابطال نزول الضبطية على البيوت والاعتياض عن ذلك باسباب اكراهية كامتياق المحكوم عليه الى السجن . فبناء على ذلك يمنع مأمورو الضبطية بقيد التأديبات الشديدة ان يصادروا اهل البلاد بشيء من الاجرة نقدًا او عينًا . ثم يجعل للضبطية ملبس رسمي او ازياء مميزة لهم في خدمتهم . وان تبقى طرفات بيروت والشام وصيداء وطرابلس تحت محافظة العساكر الشاهانية الى ان يصدق المتصرف على ان جند لبنان صاروا اكفاء لاتمام جميع الوظائف المنوطة بهم في الازمنة العادية . وهذا الجند يكون لدى المتصرف وبارادته وللمتصرف ان يطلب من الحكومة العسكرية بسورية الامداد بالجنود المنظمة في الاحوال الغير العادية ان دعت الضرورة بعد ان يستشير مجلس الادارة الكبير — ويلزم الضابط المعين بالذات لرئاسة هذا العسكر ان ينظر مع المتصرف في تقرير التدابير الواجب اتخاذها وهو (اى الرئيس المومأ اليه) وان كان مختارًا ومستقلاً

بامور الجند المحضة كاجراء الحركات والنظامات الجندية الا ان عليه مدة وجوده في الجبل ان يلزم معية المتصرف ويجري العمل تحت عهدته وفي حال اعلان المتصرف لقائد الجند وافادته رسميًّا ان قد زال السبب الذى من اجله ورد العسكر الى الجبل يجب عليه اخراجه منه ٬

(المادة الخامسة عشرة) ان الدولة العلية تحافظ على حقها المعلوم بتحصيل ويركو الجبل المعين الآن ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس وذلك على يد المتصرف على انه يجوز ابلاغ هذا القدر الى سبعة آلاف كيس عند الامكان بحيث ان المال المتحصل يخصص بادىء بدء لادارة الجبل ونفقات منافعه العمومية فان فضل منه شيء رد الفاضل الى الخزينة وان اقتضت شدة الضرورة الى تحسين مجرى الادارة مزيدًا على التكاليف المعينة فيرجع في تسوية المزيد الى مصاريف الخزينة الجليلة اما واردات البكاليك اي حاصلات الاملاك الهمايونية فحيث انها ليست بداخلة ضمن الويركو فينبغي ادخارها في صندوق الجبل لحساب الخزينة الجليلة · على ان السلطنة السنية لا تقوم باداء مصاريف المنشآت العمومية وسائر النفقات الغير العادية ما لم يتقدم قبولها لها وتصديقها عليها

(المادة السادسة عشرة) يجب تعجيل الشروع في احصاء نفوس اهل الجبل محلاً محلاً وملةً ملةً ومسح جميع الاراضي المزروعة ونظم خريطة مساحتها

(المادة السابعة عشرة) كل الدعاوي الكائنة بين افراد رهبان الاديرة وخوارنة الكنائس يكون فيها المظنون به او المتهم تابعين للحكومة الرهبانية الا ان تطلب الاسقفيات احالة ذلك الى مجلس الدعاوي العادية

(المادة الثامنة عشرة) يمتنع في عموم اماكن الرهبان مطلقًا اجارة اللاجئين اليها ممن تطلبهم الحكومة رهبانًا كانوا او من عوام الناس (اه)

ان الثماني عشرة مادة المسرودة آنفًا هي النظامات الاساسية لجبل لبنان يجب اتخاذها دستورًا للعمل الى ما شاء الله تعالى · ومن مقتضى ارادتي القاطعة السلطانية ان يتوفر على الجميع كمال الاعتناء والدقة في اجرائها وتنفيذها حرفًا حرفًا والحذر كل الحذر من مخالفتها . . . وايذانًا بذلك صدر فرماني هذا العالي الشأن · وقد كتب في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة احدى وثمانين ومائتين والف هجرية الموافقة لسنة ١٨٦٣ مسيحية (اه)

الفصل السبعون والمائة

في خاتمة الكتاب

ختم جامع حوادث كتابنا مجموعة في سنة ١٨٧٣ بقوله ان ما دونه على صفحات كتابه من حوادث سوريا عموماً ولبنان خصوصاً لا يقصد به الحط من مقام الدولة العثمانية ولا لاشهار ملامتها بما اوقعته على رعاياها من مسلمين ودروز ونصارى من الاحن والمصائب لان كل ما فعلته كانت تعتقد به واجباً لبقاء سلطتها وحفظ البلاد لها بدون منازع بل لاشهار سوء تصرفها معهم على تلك الطريقة طريقة الخداع والنفاق وللملامة ذلك الشعب الذي ساعدها على تنفيذ غايتها

وان قصده الاول وهو الوحيد يظهر للملاء حقيقة ما اختبره وتوصل الى معرفته ولكي يشهر استبداد الامراء وتصرف المشايخ مع الشعب الخامل وان الذي كتبه تحقق حدوثه بنفسه والبعض من الحوادث اخذها عن ثقات القوم وهو يرجو القارىء المعذرة عن الهفوات اللغوية والغض عن سقم العبارة . وكان الفراغ من جمع كتابه مساء السبت الواقع في ٢٢ ت ٢ سنة ١٨٧٣

